الدكتور

محمد عمر الحاجي

النساء شقائق الرجال

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)

النساء شقائق الرجال

بسم الله الرحمن الرحيم

٢١٠,٤
حمن

النساء شقائق الرجال

[دراسة علمية موثّقة مستوحاة من القرآن والسنة
وكتب التاريخ والتراجم ، عن موقف الشريعة الإسلامية
من المرأة ، وكل ما يثار حول ذلك من شبهات]

الدكتور
محمد عمر الحاجي

دار المكتبي

الطبعة الأولى

1423هـ - 2002م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أوالنسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق

دار المكتبي

للطباعة والنشر والتوزيع

www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا

ص. ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢

e-mail: almaktabi@mail.sy

من الدستور الإلهي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ
اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ
أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

[التوبة : ٧١ـ٧٢] .

من أحاديث المصطفى ﷺ

قال سيدنا رسول الله :

« النساء شقائق الرجال »(*) .

(*) جزء من حديث شريف رواه الترمذي : رقم (١١٣) ، وأبو داود : رقم (٢٣٦) ، والإمام أحمد في المسند : رقم (٢٥٦٦٣) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وأصلي وأسلم صلاةً وتسليماً يليقان بمقام أمير الأنبياء وإمام المرسلين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلِّ اللهم وسلم وبارك علىٰ هذا النبي الأمين ، وعلىٰ آله وصحابته الغرّ الميامين .

اللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونثني عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعىٰ ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشىٰ عذابك ، إن عذابك الجدّ بالكفار ملحق ، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم ، أما بعد :

فالحرب علىٰ الشريعة الإسلامية قديمة ومتجددة ومتلونة ومتعددة ، والاتهامات والإشاعات حول الإسلام كثيرة .

ولذلك تسمع ـ أو تقرأ ـ بين الحين والآخر : أن الإسلام ظلم المرأة ، وأنه اعتبرها مسؤولة عن كل أخطاء المجتمع ، ذلك لأنها المركز الذي يستطيع الشيطان أن يدخل من خلاله إلىٰ بني البشر ، حيث خُدعَ أبونا آدم ـ عليه السلام ـ بذلك ، فكانت النتيجة هي خروجهما من الجنة ، ومن ثم هبوطهما إلىٰ الأرض للشقاء والعذاب ! !

إنها قصص خيالية حُبكت بإحكام هناك ، لكن ـ وللأسف ـ تناقلتها ببغاوات الشرق وطنطنوا لها وصفقوا بحرارة ، وكأنهم وجدوا ثغرة في شريعة الله!!

لكن أمام هذا الأمر ، أين الحل ؟! ومن أين يجب أن تُؤخذ حقيقة وجهة نظر الإسلام إلىٰ موضوع المرأة ؟

هل تؤخذ من ناس معقَّدين لسبب أو لآخر ، أو هل تؤخذ من أفواه بعض الشعراء والأدباء ، كما يروىٰ أن المعري قال في شأن المرأة :

علموهنّ الغزل والنّسْج والـ ـرَدْنَ وخلّوا كتابةً وقراءة
فصلاة الفتاة بالحمد والإخلاص تجزي عن (يونس) و(براءة)

أو كما يُروىٰ عن مصطفىٰ لطفي المنفلوطي أنه قال :

يا قوم لم تُخلق بنات الورىٰ للدّرس والطَرْس وقال وقيل
لنا علومٌ ولها غيرها فعلّموها كيف تنشر الغسيل!!
والثوب والإبرة في كفّها طرس عليه كل خطٍ جميل

أو كما يُروىٰ في التاريخ ، من أن أحد الحكماء رأىٰ امرأة تتعلم الكتابة ، فقال : أفعىٰ تُسقىٰ سمّاً ، ثم أنشد قائلاً :

ما للنساء وللكتابة والعمالة والخطابة
هذا لنا ولهنّ منا أن يَبِتنَ علىٰ جنابة!!

هل هؤلاء وأمثالهم يمثّلون الشريعة الإسلامية ؟ وهل قرأت في الكتب المعتمدة أنه يحرم علىٰ المرأة أن تتعلم القراءة والكتابة و. . . ، وبالتالي فمهمتها في الحياة تنحصر بالغزل والنّسج ، وحمل الإبرة والخيط ، والغسل والجلي. . . . ؟

* * *

لكن لو عدنا إلىٰ الدستور الخالد ورأينا كيف يحدثنا عن هٰذا الأمر لرأينا العجب العجاب .

حيث إن اصطفاء الله سبحانه وتعالىٰ قد يكون لشخص ما ، كآدم ونوح عليهما السلام ، وقد يكون للشخص وذريته ، كإبراهيم وآل عمران عليهم السلام :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣٣ـ٣٤] .

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

وقد يكون الاصطفاء مكافأة لواحد من الناس ـ سواءً كان رجلاً أو امرأة ـ كما حدث لأم مريم بأن كوفئت باصطفاء الله لابنتها مريم وقبوله منها وكفالة سيدنا زكريا عليه السلام لها ، وذلك كما في قوله تعالىٰ :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٥ـ٣٧] إلىٰ أن قال تعالىٰ :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

[آل عمران : ٤٢ـ٤٣] .

ثم تقرأ في مكان آخر عن مكانة المرأة في القرآن ، حيث يوحي الله لها :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] .

وتقرأ في القرآن عن بطش فرعون وجبروته واستكباره وظلمه ـ وهو رجل ـ بينما في المقابل امرأته العاقلة الراشدة التي عملت المستحيل لأن تأخذ الرضيع موسىٰ ـ عليه السلام ـ إلىٰ قصرها وتربّيه وتحنو عليه ، ثم تُعلن سيْرها وراء الحق ، وتتحمل في سبيل ذلك الشيء الكثير ، ثم كيف أنها تدعو الله أن يخلّصها من فرعون و . . . ويدخلها الجنة بأمان وسلام ـ وهي امرأة ـ :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٨ـ٩] .

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

[التحريم : ١١] .

وبعدها مباشرة ، يأتي الحديث عن امرأة أخرىٰ ـ إنها مريم ـ وكيف كانت سيرة حياتها الطاهرة فكانت من عباد الله المطيعين :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم : ١٢] .

وتقرأ في القرآن كذلك قصة بلقيس ، وكيف مدح القرآن الكريم حكمتها ومشورتها ومن ثم إرسالها الهدية إلىٰ سليمان ـ عليه السلام ـ ، ثم إسلامها[١] .

---

(١) القصة في سورة النمل ، وسنشير إليها بتفصيل وإسهاب في الفصول القادمة .

والشريعة الإسلامية ردّت على النظريات التي كانت سائدة ، والتي كانت تحتقر المرأة وتتهمها بأنها سبب الشر في كل شيء!!

فحينما قالوا : الشيطان يوسوس للمرأة وهي توسوس للرجل ، وآدم - عليه السلام - خُدع عن طريق امرأته حواء ، جاء رد القرآن صريحاً واضحاً :

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] .

لكن عندما يتحول الحديث إلى وسوسة الشيطان لا يتهم القرآن المرأة وحدها ، بل يأتي الحديث بصيغة التثنية - لآدم وحواء - ، وهذا ردّ واضح على تلك النظرية التي تلصق الإجرام والوسوسة والإغواء بالمرأة وحدها :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف : ٢٠-٢٢] .

وحينما قالوا : المرأة شرّ كلها يجب الابتعاد عنها ، وبالتالي دعوا إلى الرهبانية ، نجد سيد الأنام عليه الصلاة والسلام يردُّ على ذلك بقوله :

« حُبّبَ إليّ : الطيب ، والنساء ، وجُعل قرةُ عيني في الصلاة »[1] .

وحينما ذمُّوا كل شيء يأتي عن طريق المرأة واعتبروه نجساً ، نرى سيدنا رسول الله ﷺ يمدح كثيرات منهن ، مثال ذلك :

« حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران ، وخديجة بنت

---

(١) رواه النسائي : ٧/ ٦١ ، وأحمد في المسند : ٣/ ١٢٨ .

خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ ، وآسية امرأة فرعون »[1] .

« فضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام »[2] .

وحيما قالوا : المرأة ليست إلا لعبة يلعب بها الرجل!! جاء القرآن ليدحض ذلك معلناً أن الرجل والمرأة يكمل أحدهما الآخر :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

وحينما قالوا : لا تصلح النساء إلا باحتقارهن وإهانتهن ، جاء رد الإسلام صريحاً ، حيث اعتبر المرأة سكن للرجل :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] .

نظريات ظهرت ـ وما زال بعضها ـ تدعو إلىٰ تمييز الرجل عن المرأة ، وعدِّها تابعة له وملكاً له ، يتصرف بها كيفما شاء ، وكان موقف الإسلام من ذلك واضحاً جلياً .

* * *

وقد فهم الصحابة الكرام موقف الإسلام من النساء ، واتضحت حقيقة ذلك ، فأُعطيت حقوقها كاملة ، واحترمت من قِبَل رسول الله ﷺ ومن معه ، وتبوَّأت كل ما تستطيع القيام به ، ومارست شتىٰ أنواع النشاطات :

ففي مجال الخطابة والشعر والأدب ، برزت أسماء كثيراتٍ منهن ، بل أكثر من ذلك أن بعضهن كن يجلسن للحكم بين فطاحل الشعراء!!

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٨٨٨) ، وأحمد في المسند : ٣/ ١٣٥ ، والحاكم (٣/ ١٥٧) .

(٢) رواه النسائي : ٧/ ٦٨ ، وهو حديث صحيح .

وفي ميادين الحروب والقتال ، شاركت النسوة في ذلك ، يضمّدن الجراح ، ويسقين العطاش ، ويشجعن الرجال ، وإن اضطر الأمر حملن السلاح ليقاتلن الأعداء!!

وفي المجالات التي تدعو إلىٰ الذكاء والفطنة وسرعة البديهة ، لمعت الكثيرات من النساء في ذلك!!

وفي ميادين العلوم : كالفقه والحديث ونحوهما ، راحت كثيرات منهن يروين عن سيدنا رسول الله ﷺ الأحاديث الشريفة ، وما ورد في تفسير آيات القرآن ، وما يتعلق بالأحكام الشرعية ـ خاصة ما يتعلق بالنساء ـ وكانت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن جميعاً وكالات أنباء تذيع ما يفعله أو يقوله رسول الله في بيوتهن ، والأجمل من ذلك أن بعضهنَّ كنَّ يجلسن لإلقاء الدروس ، وكان من الحضور كبار الصحابة ، ومنهم بعض الخلفاء الراشدين!!

بل إن واحدة منهن ، وهي السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تردّ علىٰ كثير من كبار الصحابة ، فتقول : هذا أخطأ في كذا ، وذاك أخطأ في تلك المسألة ، وقد جُمع ذلك كله في كتاب (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة علىٰ الصحابة) للزركشي .

وتناقل ذلك المسلمون جيلاً عن جيل ، حتىٰ وجدنا في تراجم كثير من فطاحل العلماء والمبرّزين ، أن من مشايخهم الكثيرات من النساء اللاتي سمعوا منهن الأحاديث والفقه والتفسير ونحوه. . . !!

وفي ميادين البذل والإنفاق والكرم والسخاء لمعت أسماء كثيرات منهن. . .

وفي مجال التربية والقدوة كان لكثيراتٍ منهنَّ الفضل في تنشِئة أولادهن علىٰ الفضائل والأخلاق الحميدة. . .

وفي محاريب العبادة والتذلل لله ، حدثنا التاريخ عن كثيرات منهن وصلن إلىٰ درجة كبيرة في ذلك . . .

وفي ميادين الدعوة إلىٰ الله ، وتطبيق منهج الإسلام ، وحب سيدنا رسول الله ، والتمثل بالأخلاق الحميدة الفاضلة ، برز كثير من أسماء النساء .

وفي القضاء ، والحسبة ، و . . . لمعت أسماء الكثيرات منهن . . .

وفي كل مجالات النشاطات نجد الكثيرات منهن ، بحيث لم يقم واحد من الرعيل الأول ليقول للنساء : أنتنَّ خلقكن الله للغسيل والطهي وحضانة الأولاد ! !

ولم يقل لهنَّ أحد : يحرم عليكن الخروج إلىٰ المسجد ، والخروج إلىٰ السوق ، والخروج إلىٰ القتال ، والخروج إلىٰ سماع العلوم ، والخروج إلىٰ الحج ونحو ذلك . . .

* * *

لكن ما الذي حدث فيما بعد ؟

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، واختلط المسلمون بأمم وشعوب أخرىٰ ، فراحوا ينظرون إلىٰ عادات أولئك الناس ، وبسبب بعدهم رويداً رويداً عن حقائق الإسلام ، تأثّروا بتلك العادات ، فراحوا يطبّقونها ، لتصير فيما بعد بديلاً عن حقائق الإسلام ، وكما قيل : الإنسان أسير عادته ! !

وظهرت مقولات علىٰ ألسنة المسلمين ، وتوارثها الجيل أثر الجيل ، لتصل إلينا وكأنها هي الدين الحقيقي : الإسلام يحرّم علىٰ المرأة التعلّم ! ! ويحرّم عليها الخروج من بيتها إلا ثلاث مرات : مرة إلىٰ الدنيا ،

ومرة إلىٰ بيت زوجها ، ومرة إلىٰ قبرها!!

ويحرّم عليها أن تدلي بصوتها في الانتخابات!! واخترعوا مقولات ألصقوها ـ تارةً بواحد من الصحابة ، وتارةً بالنبي المصطفىٰ ﷺ ـ كمثل قولهم : صوت المرأة عورة ، ولا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور!!

ومثل قولهم : النساء ناقصات عقل ودين!!!

وهكذا تلقف هذا الكلام المستشرقون فطنطنوا له وطبّلوا وزمّروا وأعلنوا بصوتٍ عال : انظروا كيف أهان الإسلام المرأة ، انظروا كيف ميّز الرجل عنها في كل شيء . . . !!

وراحوا يستدلون بما تناقلته الأجيال ـ لا من السنة والقرآن ـ بل من عاداتٍ لا دخل للإسلام بها ، ورددّت هذا الكلام أبواق الاستعمار في بلاد المسلمين ، وراحوا يكتبون ويحاضرون ويتبجحّون مستدلّين بأقوال بعض من يلبسون لباس علماء المسلمين .

إذن : لا بدّ من العودة إلىٰ الأصول ـ القرآن والسنة والإجماع والقياس ـ ولا بدّ من عرض الأمر علىٰ حياة الصحابة والتابعين ، لنتبين حقيقة ذلك بوضوح .

* * *

من هذا المنطلق جاءت فكرة هذا الكتاب ، ولذلك كانت أبوابه علىٰ الشكل الآتي :

ـ مكانة المرأة قبل الإسلام : في العصور الغابرة ، وفي الديانات السابقة .

ـ تحليل واسع لمكانة المرأة في القرآن الكريم .

ـ نظرات في حقوق المرأة في الإسلام .

ـ المرأة في محراب العبودية لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ

ـ المرأة : شجاعة ، بطلة ، مضحية ! !

ـ المرأة : طبيبة ، ممرضة ، ناجحة ! !

ـ المرأة : ذكيّة ! !

ـ المرأة : داعية إلىٰ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ

ـ المرأة : قاضية ، مستشارة ، رئيسة وزراء ، عضواً في البرلمان ! !

ـ المرأة : عالمة ، فقيهة ، محدِّثة ! !

ـ المرأة : في ميدان الأخلاق ! !

ـ المرأة : خطيبة ، بليغة ، شاعرة ! !

ـ المرأة : مربية ناجحة .

ـ ثم الخاتمة : حيث نقلتُ بعض أقوال الغربيين في تكريم الإسلام للمرأة أكثر من أي نظام أو قانون عالمي آخر .

هذا ، وإني علىٰ علم ويقين ، بأن هذه الأفكار المطروحة في هذا الكتاب ، لا تُعجب بعض المسلمين ـ فضلاً عن أن تُعجب أعداء الإسلام ـ الذين ما زالوا أسارىٰ عادات وتقاليد أُلصقت بالإسلام وهو بريء منها براءة الذئب من دم يوسف ـ عليه السلام ـ

لكن لا ضير ما دام الهدف هو الوصول إلىٰ الحقيقة ، وما أجمل قول الإمام أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ورحمه ـ : (علمنا هذا رأيٌ ، وهو أحسن ما قدِرْنا عليه ، فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه) وقوله أيضاً : (لا يحلّ لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه) .

وأنا لم أقل وأكتب إلاّ ما فهمته من القرآن والسنة وحياة الصحابة ،

وقد وثّقت ذلك كله وعزوته إلىٰ مراجعه ومصادره .

ولا بدّ من القول : أنه حين يُختلف علىٰ أمر ، فالحكم في ذلك لله وللرسول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

فإن لم نجد هذا الأمر في القرآن ولا السنة ، نعود إلىٰ حياة من أمرنا رسول الله بالاقتداء بهم : « اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر »[١] « . . . وما يدريك لعل الله اطلع علىٰ أهل بدرٍ فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[٢] « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »[٣] .

إذن : ما بيّنته في هذا الكتاب ليس إلا إثباتاً من القرآن والسنة وحياة الصحابة والتابعين لموقف الإسلام تجاه المرأة ، فإن وفّقتُ لذلك ، فهذا من فضل الله ومنّته ، وإن أخطأت الهدف فأسأل الله أن يصفح عني ، وأن يشملني برحمته وغفرانه ، حيث لا هدف إلا الإصلاح :

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] .

اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، ولا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، فأحيينا اللهم مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، واحشرنا مع حبيبنا محمد سيد الأولين والآخرين ، وتقبّل منا هذا الجهد المتواضع ، يا أكرم الأكرمين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

---

(١) رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وأحمد ، والحاكم ، وغيرهم .

(٢) جزء من حديث رواه الإمام مسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٣) جمع الفوائد : ٢/ ٢٠١ .

الباب الأول

مكانة المرأة قبل الإسلام

تمهيد

قبل الدخول إلىٰ الملف الواسع الذي اتُّهم من خلاله الإسلام : بأنه أهان المرأة ، وأنه صنّفها بعد الرجال ، و . . . ! !

لا بدّ من استعراضٍ سريع لحالة المرأة في العصور التي سبقت عهد الإسلام ، وهذا الموضوع متشعّب واوسع ، لكن نكتفي بتقديم لمحةٍ عن كل عصر . . .

* * *

الفصل الأول

المرأة في العصر الفرعوني(١)

من خلال قراءة المصادر والمراجع التي اهتمت بهذا الموضوع ، يتبين لنا أن المرأة أخذت غالبية حقوقها ، بل وكادت تساوي الرجل في كل الأمور :

(كان الزوج يدفع مهراً لزوجته ، ويشترط في عقد الزواج أنه إذا تزوج بغيرها في حياتها أو أبغضها أعطاها مبلغاً آخر من المال زيادة علىٰ المهر ، وصارت جميع أمواله الحاضرة والمستقبلية تأميناً لها ، وضماناً للوفاء بعهده ، وكانت المرأة تتعهد لزوجها إذا أبغضته أو أحبّت غيره ردّت له مهره وتنازلت عن جميع حقوقها) .

(وجاء في وصايا ذلك العهد : لا تكن فظاً غليظ القلب في معاملتك لزوجتك) .

(ويوصي حكيم ابنه ـ في ذلك العهد ـ فيقول : أحب زوجتك ، وأشبع بطنها ، وأكس ظهرها ، واشرح صدرها طوال حياتها معك) .

---

(١) من أهم مراجع هذا الموضوع :
الزواج والطلاق في جميع الأديان للشيخ عبد الله المراغي ، وفلسفة وتاريخ النظم الاجتماعية والقانونية للدكتور محمود السقا ، والمرأة عبر التاريخ لحسن محمد جوهر ، والمرأة في جميع الأديان والعصور لمحمد عبد المقصود .

(ومن النصائح التي كان الحكماء يسددونها للشعب : كن لين العريكة مع زوجتك وعاملها بالعدل والإحسان والرحمة ، ولا تدع نشوة القوة تستبد بك في معاملتك إياها ، فاللين أفعل في قلوب النساء من السحر ، واغمر زوجتك بالحنان والعطف وأسبغ علىٰ حياتها شمس حمايتك القوية) .

وكان للمرأة أن ترث ، وأن تقوم بمزاولة الأعمال خارج بيتها ، حيث كانت تعمل في الحقول ، كما ظهرت في رسوم عصور الأسرة الخامسة لامرأة تدير دفة سفينة ، وكانت تذهب إلىٰ الأسواق ، وتمارس كافة أنواع التجارة ، وكان لها أن تملك وأن تتولىٰ أمر أسرتها في غياب زوجها .

(وكانت المرأة المصرية قادرة علىٰ إجراء كافة التصرفات القانونية دون إذن وليّها ـ سواء كان والدها أو زوجها ـ إذا كانت متزوجة ، وكان لها ملكيتها الخاصة ، ويمكنها التعاقد باسمها ، وكانت حريتها في التعاقد مطلقة ، وكانت كاملة الأهلية ، ولها الحق في اختيار من تشاء زوجاً لها فلا تكره علىٰ الزواج بدون رغبتها ، وكانت محبوبة من زوجها وتلقّب (بنت بر) أي : ربة بيت) .

(وكان المصريون يعنون بتعليم الفتيات الصغيرات العقائد الدينية وآداب السلوك ، ولم يكن من الغريب أن تتولىٰ المرأة في مصر الفرعونية مناصب عظيمة مثل القاضيات والكاهنات والملكات ، ومن النساء اللاتي تولين منصب الملكة في مصر الفرعونية :

١ـ **مرتين نبت** : حكمت مصر في أواخر الأسرة الأولىٰ بعد اضطرابات سادت البلاد ، وأعادت النظام والأمن لمصر .

٢ـ **ختكاوس** : ولقبت بملكة مصر العليا والسفلىٰ ، وهي من الأسرة الرابعة .

٣ـ سبك نفرو : حكمت (٣) سنوات و(١٠) شهور ، وهي من الأسرة الثانية عشرة .

٤ـ حتشبسوت : أشهر ملكات مصر ، وهي من الأسرة الثامنة عشر وحكمت مصر (٣٢) سنة .

٥ـ أمحتب : حملت أعباء البلاد بعد مقتل زوجها (سفن رع) ودفعت ابنها (أحمس) لطرد الهكسوس من مصر .

٦ـ تي : وهي من عامة الشعب ، وكانت زوجة الملك امنحتب الثالث ، حاولت أن توفق بين ابنها (أخناتون) وبين كهنة معبد آمون لكن إصرار (أخناتون) علىٰ عبادة الإلٰه الواحد أدىٰ إلىٰ وقوع الصراع بين الجانبين . . .) .

* * *

الفصل الثاني

المرأة عند البابليين والآشوريين[1]

في بلاد العراق كان وضع المرأة مضطرباً ومتناقضاً : حيث أعطاها القانون ـ عندهم ـ حقوقاً تساوي حقوق الرجل ، وأعطاها نصيباً مثل الرجل في الميراث. . . لكن من جانب آخر حكم عليها بالموت غرقاً إذا أقدمت علىٰ الطلاق!!!

كذلك فلها الحق في مزاولة أي نوع من أنواع التجارة و. . . في مالها ، ولها الحق في اختيار زوجها و. . . لكن للرجل الحق أن يبيعها إذا ثبت له خيانتها ، أو أن يستبقيها عنده كجارية!!

كذلك فللرجل الحق في أن يرهن زوجته عند دائنه مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات وفاءً لدينه!!

وفي شريعة حمورابي التي اشتهرت بها بابل كانت المرأة تُحسب في عداد المواشي المملوكة ، وكانت هذه الشريعة تفرض علىٰ من قتل بنتاً لرجل آخر أن يسلمه ابنته ليقتلها أو يملكها إذا شاء أن يعفو عنها!!

ولا يحق للزوجة أن ترث زوجها بعد موته لا من ماله المنقول ولا من غير المنقول ، وكان الطلاق سهلاً علىٰ الرجل .

---

(١) بتصرف واختصار من : المرأة في جميع الأديان والعصور .

أما إذا كانت المرأة ناشزاً مهملة لشؤون بيتها وتربية أولادها فإنها تستحق أن تُلقىٰ في الماء .

وكانت الإناث في شريعة حمورابي لا يرثن آباءهن ، ولم يكن لهن نصيب معلوم في تركته ، وذلك لأن التركة كانت للذكور وحدهم ، الذين اعتبروا امتداداً لشخصية آبائهم .

* * *

الفصل الثالث

المرأة عند الهنود والصينيين واليابانيين والروس(١)

دانت الهند لشريعة (مانو) ، وكان للمرأة موقع ومكانة منحطة في تلك الشرائع ، حيث اعتبرها (مانو) جسداً يوشك أن لا يكون لها روح ، وليس لها حق مستقل ، فهي تتبع أباها أو زوجها أو ابنها ، وفي حالة وفاة الأب أو الزوج وجب عليها أن تنتمي إلىٰ رجل من أقارب زوجها في النسب. . .

واعتبرها (مانو) مخلوقاً نجساً يجب التحرز منه ، وفرض عليها أن لا تهجر زوجها في أي حال حتىٰ لو أصيب بالجنون أو الشلل ! ! .

واعتبر (مانو) : أن الزوجة الوفية ينبغي أن تخدم سيدها كما لو كان إلٰهاً ، وأن لا تأتي بشيء يؤلمه مهما تكن حالته ، حتىٰ وإن خلا من كل الفضائل ! !

وأما الزوجة التي تعصي زوجها فمآلها أن تتقمص روحها جسد ابن آوىٰ في خلقها التالي ! !

---

(١) للتوسع في هذا البحث يراجع : الدين وقوانين الأحوال الشخصية للمستشار علي منصور ، والمرأة في التصور الإسلامي لعبد المتعال الجبري ، والمرأة (مركزها وأثرها في التاريخ) : راي ستراتش. . .

كذلك فمن حق الرجل أن يطلّق زوجته لخيانتها الزوجية ، ولكن الزوجة لا تستطيع أن تطلق زوجها لأي سبب من الأسباب ، وفي مقدور الزوج أن يتزوج علىٰ زوجته إذا ما شربت خمراً أو مرضت أو شقت عليه عصا الطاعة أو كانت مسرفة أو مشاكسة!!

نعم ، لقد كانت المرأة الهندية تخاطب زوجها في خشوع قائلةً : يا مولاي ويا سيدي . . ويا إلٰهي!!

بل والأغرب من ذلك ، أن المرأة الهندية كانت تحرم من حق الحياة بعد وفاة زوجها ، ذلك لأنهم اعتقدوا بأنها لا طاقة لها علىٰ الحياة بعد موت زوجها ، لذا كانوا يقيدونها بالسلاسل والأغلال ، وكانوا يحرقونها مع زوجها في أتون واحد!!

وأما (بوذا) فله آراء عجيبة في المرأة ، من ذلك قوله :

خير للإنسان العاقل أن يقع بين فكي نمر مفترس أو تحت سيف الجلاد من أن يُساكن امرأة ويحرّك من نفسه الشهوة!!

هذه حال المرأة في بلاد الهند ، فهل كان حالها في بلاد الصين أحسن أم أسوء ؟! :

عرف الصينيون نظام الطبقية بين الرجال والنساء ، إلىٰ حد أن الأب ما أن يُخبر بأن زوجه قد ولدت له مولوداً أنثىٰ ، حتىٰ كان يسارع إلىٰ حمل هذا المولود إلىٰ السوق باحثاً عمن يشتريه بأبخس الأثمان ، فإن لم يجد شاري نادىٰ في السوق أنه يريد أن يهب هذا المولود لمن شاء ، فإن لم يحالفه الحظ في ذلك ، حمل هذا المولود إلىٰ مكان مهجور فخنقه أو أغرقه أو دفنه في التراب . . . وهو حيّ!!

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : ٨-٩] .

وقد وجد في كتبهم أن المرأة كالمياه المؤلمة التي تغسل المجتمع

أو تكنسه من السعادة والمال ، وهي شر يستبقيه الرجل بمحض إرادته ويتخلص منه بالطريقة التي يرتضيها ولو بيعاً كبيع الرقيق!!

وكان سلطان الأب مطلقاً في جميع الأمور في عهد (كونفوشيوس) ، فكان في وسعه أن يبيع زوجته وأولاده ليكونوا عبيداً ، وكان الرجل يتناول طعامه بمفرده ، لا يدعو إليه زوجته ولا أبناءه ، وكان من حق الزوج أن يطلب من زوجته أن لا تتزوج بعده ، وكان يطلب منها أن تحرق نفسها عند موته تكريماً له ، وظلت حوادث حرق الزوجات تقع في الصين إلىٰ أواخر القرن التاسع عشر!!

إذن كيف كان حال المرأة اليابانية ؟

منذ نعومة أظفار الفتاة هناك ، كانوا يعلمونها الطاعة العمياء : لأبيها قبل الزواج ، ولزوجها عندما تتزوج ، ولابنها الأكبر بعد موت زوجها!!

وعرف المجتمع الياباني عادات غريبة منها : أن الرجل له الحق في أن يبيع بناته في سوق النخاسة أو الدعارة!!

وكان للرجل حق في تطليقها إذا رفعت صوتها!! وكان له حق تطليقها إذا كانت عقيمة ، وكان الرجل إذا تحدث عن زوجته يقول : إنها الشيء الذي يسكن المكان الخلفي من المنزل ـ أي يخجل أن يقول إنها زوجه ـ!!

وإذا مات زوجها ، فكانت العادة تقضي بأن تظهر المرأة بمظاهر البؤس ، فتحلق رأسها ، وتلبس الملابس الكئيبة ، ولذلك قيل : إن اليابان جنة الرجال .

وأما مكانة المرأة في بلاد الروس : فليست أحسن حالاً مما سبق ، بل لقد انتشرت الدعارة عندهم إلىٰ حد أن الرجال كانوا يعاشرون النساء جماعات أمام بعضهم البعض!!

* * *

الفصل الرابع

المرأة في بلاد فارس واليونان والروم(١)

كان علىٰ الرجل في بلاد فارس إذا وُلد له مولود ذكر عليه أن يقدم القرابين شكراً لله ضمن مراسيم دينية معينة وكانت توزع الهدايا والأعطيات والصدقات ، أما إذا كان المولود أنثىٰ فليس عليه من ذلك أي شيء!!

ولم تكن المرأة تملك حق اختيار زوجها ، بل كان الأب يزوجها بمن يشاء ، دون أخذ رأيها ، كما كان الحق للرجل أن يتنازل عن زوجته إلىٰ رجل آخر!

ـ وأما مكانتها عند الرومان :

فشبيهة بمكانتها عند الهنود ، فالزوج له الحق في أن يطلقها أو يعاقبها أو يبيعها!! وهي في نظرهم سلعة رخيصة يملكها الرجل ويتصرف بها كما يشاء!!

بل والأغرب من ذلك أن حكماءهم و. . . عقدوا اجتماعاً في مجمع روما تناقشوا فيه في وضع المرأة ، وبالتالي وصلوا إلىٰ قرار مفاده : المرأة كائن لا نفس له ، وهي لن ترث الحياة الأخروية ، وأنها رجس ،

---

(١) المراجع السابقة نفسها ، إضافة إلىٰ : حق الزوج علىٰ زوجته وحق الزوجة علىٰ زوجها لطه عبد الله العفيفي .

ويجب أن لا تأكل اللحم ، وألا تضحك ، وألا تتكلم . وعليها أن تمضي جميع أوقاتها في الخدمة والخضوع!!

وأصدروا قراراً يحرِّم علىٰ المرأة أن تملك أكثر من نصف أوقية من الذهب!!

ـ إذن فماذا عن مكانتها عند اليونان ؟

لم يختلف الأمر بالنسبة لما سبق : فهي في نظرهم قاصر ، لا يحق لها التصرف في أي شيء ، وخضعت لنظام الوصاية ـ من قبل أبيها أو زوجها أو ابنها الأكبرـ ، وهي لا ترث زوجها أو أباها!

وأما فلاسفتهم فلم يكونوا أحسن حالاً بالنسبة إلىٰ المرأة ، فهذا (أرسطو) يقول : المرأة رجل غير كامل وقد تركتها الطبيعة في الدرك الأسفل من سُلّم الخلقة .

ويقول : إن المرأة للرجل كالعبد للسيد ، والعامل للعالم ، والبربري لليوناني ، وإن الرجل أعلىٰ منزلة من المرأة!!

وأما (أفلاطون) فكان يرىٰ في مدينته الفاضلة أن النساء ذوات الأجسام السليمة الخاليات من العيوب البدنية متاعاً مشاعاً للرجال الأصحاء الأقوياء لإنجاب أطفال أصحاء ، وفي النهاية فإن المرأة رجس من الشيطان بعيدة عن رحمة الله لحملها خطيئة أمها العليا حواء!!

* * *

الفصل الخامس

المرأة عند اليهود وعند النصارى

كان لليهود نظرة خاصة للمرأة ، فهي الأداة التي يتخذها الشيطان وسيلة لإيقاع الإنسان في الشر ، وبالتالي فهي أشد من الموت!!

كذلك فهي نجسة في المحيض ، ويجب أن تُحبس في البيت ، لأن كل ما تلمسه من طعام أو كساء أو إنسان أو حيوان ينجس!!

وكذلك كل ما يفعله الرجل من أعمال لا أخلاقية فإثمه علىٰ المرأة ، وبالتالي فهي ملعونة لتسببها في إغواء آدم ـ عليه السلام ـ وإخراجه من الجنة!!

والمخيف في الأمر ، أن اليهود زوّروا ولفّقوا التهم علىٰ كل الشعوب و. . . بل حتىٰ علىٰ الأنبياء ، كل ذلك من أجل خدمة مصالحهم وتحقيق شعارهم (اليهود شعب الله المختار!!) وبالتالي فالمرأة عندهم لها دور رهيب في الإغواء ، و. . . من أجل تحقيق المصلحة العليا لبني قومها!!

ـ فمثلاً في سفر التكوين[1] يدّعي واضعه ـ وهو كذاب أشر ـ أن النبي لوط ـ عليه السلام ـ رُزق بولدين ، هما موآب : أبو الموآبيين ، وعمّي : أبو بني عمّون .

---

(١) الإصحاح ١٩ ص ٣٣ـ٣٨ .

أما الوالدتان فهما ابنتاه اللتان سقتاه خمراً لكي تحملا منه وتلدا رأس المؤابيين ، ورأس العمونيين!![1] .

إنها المرأة.. وهي أنجح سلاح لإنجاح مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، هاهو كتاب بروتوكولات حكماء (صهيون) يبرر ذلك الأمر :

(يسعىٰ اليهود لهدم الحكومات في كل الأقطار والاستعاضة عنها بحكومة ملكية استبدادية يهودية ، ويهيئون كل الوسائل لهدم الحكومات لا سيما الملكية منها ، ومن هذه الوسائل إغراء الملوك باضطهاد الشعوب من جهة وإغراء الشعوب بالتمرد علىٰ الملوك ، متوسلين لذلك بنشر مبادىء الحرية والمساواة ونحوها مع تفسيرها تفسيراً خاصاً يؤذي الجانبين ، وبمحاولة إبقاء كل من قوة الحكومة وقوة الشعب متعادلتين ، وإبقاء كل منهما في توجس وخوف دائم من الأخرىٰ ، وإفساد الحكام وزعماء الشعوب ، ومحاربة كل ذكاء يظهر بين الأمميين (غير اليهود) ، مع الاستعانة علىٰ تحقيق ذلك كله بالنساء والمال والمناصب والمكايد... وما إلىٰ ذلك من وسائل الفتنة ، ويكون قصر الحكومة الإسرائيلية أولاً ، ثم تستقر إلىٰ الأبد في روما عاصمة الإمبراطورية

---

(١) ومن تلك القصص التي في التوراة : قصة أبرام التوراتي الذي قدّم زوجته ـ ساراي ـ لفرعون مصر ليحقق الغاية المنشودة : (سفر التكوين ، الإصحاح ١٢/ ١٤ـ١٧) . وكذلك قصة لابان وابن أخته يعقوب وزوجه : (سفر التكوين ، الإصحاح ، ٢٨/ ١ـ٢) وكذلك قصة يعقوب ـ عليه السلام ـ وابنته دينة وأهل شكيم : (سفر التكوين ، ٣٤/ ٢٥ـ٢٩) ، وكذلك قصة روابين ـ ابن يعقوب ـ مع بلهة : (سفر التكوين ، ٣٥/ ٢١ـ٢٢) ، وكذلك قصة يهوذا ابن يعقوب مع ثامار(سفر التكوين ، الإصحاح ٣٨/ ١٢ـ١٩) ، وكذلك قصص كثيرة حول مضاجعة المحارم في أسفار التوراة (سفر راعوث : ٣/ ٦ـ٧) و(سفر صموئيل الثاني : ٣/ ٨) و(سفر اللاويين : ٦٢/ ٢ـ٨)...!!

الرومانية قديماً .. وإفساد الشبان والقضاء علىٰ الضمائر والأديان والقوميات ونظام الأسر ، وإغراء الناس بالشهوات البهيمية الضارة ، وإشاعة الرذيلة والانحلال ، حتىٰ تستنزف قوىٰ الأمميين استنزافاً ، فلا تجد مفراً من القذف بأنفسها تحت أقدام اليهود !!)[1] .

وهذا الأمر هو السلاح نفسه الذي يحمله اليهود لمحاربة أعدائهم من كل الشعوب :

(إن صناعة السينما في أمريكا هي يهودية بأكملها ، ويتحكمون فيها دون أن ينازعهم في ذلك أحد ، ويطردون كل من لا ينتمي إليهم ، وجميع العاملين فيها هم إما من اليهود أو صنائعهم ، وهوليوود تعتبر اليوم سدوم العصر الحديث ، حيث تنخر الفضيلة وتنتشر الرذيلة ، وتسترخص الأعراض ، وتنهب الأموال دون رادع أو وازع ، والمشرفون عليها يرغمون كل من يعمل لديهم علىٰ تعميم ونشر مخططهم الإجرامي تحت أستار خادعة كاذبة ، وبهذه الأسباب القذرة أفسدوا الأخلاق في البلاد ، وقضوا علىٰ مشاعر الرجولة والإحساس وعلىٰ المثل العليا لدىٰ الأجيال الأمريكية ، فأوقفوا هذه الصناعة المجرمة لأنها أضحت أعظم سلاح يملكه اليهود لنشر دعاياتهم المضللة الفاسدة)[2] .

ولقد صدق الله تعالىٰ حين وصفهم في القرآن الكريم بقوله :

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم : ٥٩] .

ـ وأما مكانة المرأة عند المسحيين فقد أخذت منحىً آخر ، فللمرأة في

---

(١) وهو من ترجمة السيد محمد التونسي : ٣١ـ٣٣ .

(٢) المفسدون في الأرض لسليمان ناجي : ٣٢٨ .

الإنجيل صورتان متعاكستان ، صورة تمثّل الخير واسمها مريم ، وصورة تمثّل الشر ، وهي صورة المرأة الخاطئة . . .

فأما مريم فهي الأم والعذراء الأولىٰ في التاريخ البشري ، وهي أم الطفل البشارة ، تلك المرأة التي أخبرتها الملائكة أن الله يبشرها بكلمة منه : (مباركة أنت في النساء ، ستحبلين وتلدين ابناً وتسميه يسوع)[1]

وأما المرأة الخاطئة التي وقعت نتيجة إغواء الشيطان والنفس والملذات والشهوات فلم يكن موقف المسيح ـ عليه السلام ـ منها كما كان موقف من قبله ، إنما نظر إلىٰ الخطيئة نظرة أخرىٰ حققت انقلاباً كاملاً في المفاهيم السائدة في تلك الأيام :

(جيء بامرأة زانية ، يحفّ بها الرجال وعابرو السبيل ، إلىٰ السيد المسيح وقيل له : هذه المرأة أُمسكت وهي تزني ، وموسىٰ في الناموس أوصانا إنَّ مثل هذه ترجم . . . وكانت الخاطئة ترتجف خوفاً ، وعيون الحاضرين تسوط[2] جسدها بنظرات حاقدة ، كنظرات الذئاب الجائعة ، فقال لهم السيد المسيح : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر ، فذهبوا واحداً وراء الآخر ، وبقي يسوع معها ، فقال لها : أنا لا أدينك ، اذهبي ولا تخطئي)[3] .

لكن مع كل هذا ، نجد تعليمات صارمة ـ في الإنجيل ـ تؤكد علىٰ الخط الرسالي الذي جاء من عند الله ، هاهو المسيح يوصي حوارييه وأتباعه فيقول :

(قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تزنِ ، وأما أنا فأقول لكم : إن كل

---

(١) إنجيل لوقا : الإصحاح الأول ص ٩٠ .

(٢) أي : ينظرون إليها نظرات حادة ، تكاد تقتلها .

(٣) إنجيل يوحنا : الإصحاح الثامن ص ١٦١ .

من ينظر إلىٰ المرأة ليشتهيها ، فقد زنىٰ بها في قلبه)[١] .

وأما صلاة المرأة في بيوت العبادة فيجب أن تكون علىٰ هذه الحالة :

لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهنّ أن يتكلمن ـ بل يخضعن ـ ولكن إن كنّ يردن أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم في كنيسة. . . !![٢] .

وأما تعليمها للآخرين أو أن تكون مسؤولة عنهم ، فهذا أمر غير مسموح فيه : إن النساء يزيِّن ذواتهن بلباس الحشمة مع ورع وتعقل ، لا بضفائر أو ذهب أو لآلىء أو ملابس كثيرة الثمن ، لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع ، ولكن لست آذن للمرأة أن تعلِّم ولا تتسلط علىٰ الرجل ، لأن آدم جُبل أولاً ثم حواء ، وآدم لم يغوَ ولكن المرأة أغويت[٣] .

إذن : نستطيع تلخيص مكانة المرأة في المسيحية بما يلي[٤] :

ـ يقول القديس (ترنوليان) عن المرأة : إنها مدخل للشيطان إلىٰ نفس الإنسان ، وهي ناقضة لنواميس الله!!

ـ ويقول القديس (كريستوم) عنها : إنها شر لا بدّ منه ، وإغواء طبيعي وكارثة مرغوب فيها وخطر منزلي ، وفتنة مهلكة وشر عليه طلاء!!

---

(١) إنجيل متىٰ : الإصحاح الخامس ص ٩ .

(٢) رسالة بولس إلىٰ أهل رومية : الإصحاح السابع ص ٢٨٠ من إنجيل مرقس .

(٣) الإصحاح الثاني : ص ٣٣٩ .

(٤) بتصرف واختصار من : المرأة في جميع الأديان ، وللعلم : في عام ١٩٦٧م صدر قرار من البرلمان الاسكوتلاندي يقضي بأن المرأة لا يجوز أن تُمنح أي سلطة علىٰ أي شيء من الأشياء ، وكذلك البرلمان الإنجليزي أصدر قراراً في عهد هنري الثامن ـ ملكها ـ يحظِّر علىٰ المرأة أن تقرأ كتاب العهد الجديد ـ الإنجيل ـ!!

ـ عقد الفرنسيون مؤتمراً عام (٥٨٦ م) قرروا فيه : إن المرأة إنسان خُلق لخدمة الرجل فقط!!

ـ ذكر العقاد (عباس محمود) في كتابه عبقرية محمد ﷺ ص ١٢٨ :

أن المرأة بيعت في أسواق لندن (بشلنين) عام ١٧٩٠ م لأنها ثقلت بتكاليفها علىٰ الكنيسة التي كانت تأويها!!

وذكر أيضاً ، أن المرأة المسيحية بقيت إلىٰ سنة ١٨٨٢ م محرومة من حقها الكامل في ملك العقارات وحرية المقاضاة ، كما كان تعلّم المرأة سبة تشمئز منها النساء قبل الرجال ، وعندما كانت (اليصابات بلاكويل) تتعلم في جنيف عام ١٨٤٩ م ـ وهي أول طبيبة في العالم ـ كانت النسوة المقيمات معها يقاطعنها ويأبين أن يكلمنها ويزوين ذيولهن من طريقها احتقاراً لها ، كأنهن متحرزات من نجاسة ، ولما اجتهد بعض الرجال في إقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة فيلادلفيا الأمريكية أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تصادر كل طبيب يقبل التعلم بهذا المعهد وتصادر كل من يستشير أولئك الأطباء!!

ـ ويقول (سان يونافنتور) لتلاميذه : إذا رأيتم المرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائناً بشرياً ولا كائناً وحشياً ، وإنما الذي ترونه هو الشيطان بذاته ، والذي تسمعونه هو فحيح الأفعىٰ!!

ـ غالىٰ بعض المسيحيين فجرّدوا المرأة من العقل ، وإنما تفكيرها هو تفتّق الغريزة عن مطلبها وكفايتها .

قال (ستاكلمين) وهو من أهالي الإسكندرية : العقل أمانة عند الرجال لا يلحقه أي خطأ و عيب ، ولكن التفكير بطبيعة المرأة شيء مخجل ومخز حقاً!!

ـ ويقول (ترتولين المقدس) للنساء : هل تعلمين أن كل واحدة منكن حواء ، لذلك يستمر إلىٰ اليوم توبيخ الله لكنّ ولجنسكن عامة ، وهذا ما يسمىٰ في المسيحية لعنة حواء الأبدية!!

* * *

الفصل السادس

المرأة في العصر الجاهلي

انقسم الباحثون إلىٰ قسمسن :

القسم الأول : رأىٰ أن المرأة قد احتلت مكانة سامقة في العصر الجاهلي ، وذلك من خلال أنها كانت الوتر الحساس إلىٰ قلب الرجل العربي ، لذلك نراه يبدأ قصائده بذكر المرأة وتمجيدها ويفاخر بحمايتها وصونها ، من ذلك مثلاً معلقة امرىء القيس المشهورة والتي مطلعها :

قفا نبك من ذكرىٰ حبيب ومنزل ... بسقط اللوىٰ بين الدخول فحومل
أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت هجري فأجمل
أغــرك منــي أن حبــك قــاتلــي ... وأنك مهما تأمري القلب يفعل

ومن ذلك قول عنترة العبسي يخاطب زوجته عبلة :

ولقـد ذكـرتـك والـرمـاح لـواقـح ... مني وبيض الهند تقطر من دمي
فــوددت تقبيــل السيــوف لأنهــا ... لمعــت كبــارق ثغــرك المتبســم

إلىٰ أن يقول :

يا عبل لا أخشىٰ الحمام وإنما ... أخشىٰ علىٰ عينيك وقت بكاك

ويستدل أصحاب هذا الرأي علىٰ رأيهم هذا ، بأن غالبية الحروب التي نشبت في العصر الجاهلي كانت دفاعاً عن المرأة .

فمعركة (ذي قار) التي قامت بين الفرس والعرب وكانت نتيجتها انتصار العرب علىٰ الفرس ، إنما كان سببها الدفاع عن كرامة امرأة ، وذلك حين رفض النعمان بن المنذر تزويج ابنته لكسرىٰ أَبرويز ملك الفرس ، فعدّ كسرىٰ هذا الرفض إهانة له ولملكه!!

كذلك استدلوا علىٰ رأيهم هذا : بأن العرب كانوا يسمون أصنامهم بأسماء الإناث ، وذلك من باب إعلاء شأن المرأة .

وسردوا أحداثاً تدل علىٰ مكانة المرأة في الجاهلية منها : أن عصمة كثيرات من نساء الجاهلية كانت في أيديهن ، فإذا ما ضار إحداهن زوجها طلقته!!

وأن المرأة خُيّرت في زواجها ، بل كانت تختار زوجها وتُزوّج نفسها ، كما فعلت (ماويّة) بنت عفزر وهي من بنات أحد ملوك اليمن إذ وازنت بين خاطبيها الثلاثة : النابغة الذبياني وحاتم الطائي ، ورجل من البنيت . . كذلك فقد استشار والد الخنساء ابنته حينما خطبها دريد بن الصمة ، فرفضت مؤثرة بني عمها ، ولما أراد أخوها معاوية أن يكرهها ـ وكان صديق دريد وصخر غائب في غزوة ـ قالت :

تباكرني حميدة كل يوم ... بما يُولي معاوية بن عمرو
فإلا أُعط من نفسي نصيباً ... فقد أودىٰ الزمان إذاً بصخر
أتكرهني ـ هُبلتَ ـ علىٰ دريد ... وقد أحرمت سيد آل بدر
معاذ الله يرضعني[(١)] حبركىٰ[(٢)] ... قصير الشِّبْر[(٣)] من جُشَمَ بن بكر[(٤)]

(١) أي : يتزوجني .
(٢) أي : قصير الرجلين أو ضعيفهما .
(٣) أي : الحَظو أو الخير أو العطاء .
(٤) الأمالي : ٢/ ١٦١ ، والأغاني : ٩/ ١١ .

وكان العربي يستمع إلىٰ مشورة امرأته ويطبقها . من ذلك ما رواه صاحب الأغاني ، أن الحارث بن عوف خطب بُهيسة بنت أوس بن حارثة الطائي ، ولما همَّ بها قالت : أتفرغ لنكاح النساء والعرب تتقاتل ؟ وكان ذلك في أيام حرب عبس وذبيان ، فقال لها : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج إلىٰ هؤلاء القوم فأصلح بينهم . فخرج هو وهرم بن سنان فأصلحا بين القوم . وحملا عنهم الديات فانصرفا بأجمل الذكر ، وأشاد بهما زهير بن أبي سلمىٰ[1] .

وكان للزوج مكانة مرموقة عند زوجته ، فكانت تخاف عليه من القتل ، وهذا ما سجله عروة بن الورد بقوله :

أرىٰ أم حسان الغداة تلومني ... تخوفني الأعداء والنفس أخوف

تقول سُليمىٰ لو أقمت لسرّنا ... ولم تدر أني للمقام أطوِّف

لعل الذي خوفتنا من أمامنا ... يصادفه في أهله المتخلف[2]

وكانت تحرص علىٰ ماله ، وكانت وفيَّة له : حيث تذكرُه بأنها تعاف الزواج بعده وتذكره بالخير ، وكانت لتتفجع علىٰ زوجها إذا ما أتاها خبر موته ، وكانت تحمسُّ أخوتها للأخذ بالثأر لزوجها . . .

وأما القسم الثاني فقالوا : إن المرأة في ذلك العهد كانت مهضومة الحق ، لا ترث شيئاً إنما تُورَّثُ كأنها متاع أو ماشية ، وتوأد وهي طفلة ، وتسبىٰ في الحروب . . . لذلك كره العرب إنجاب البنات واعتبروه سبيلاً إلىٰ المذلة والذل . وللتاريخ في ذلك أحاديث طويلة ، من ذلك أن أبا حمزة الضبي هجر خيمة امرأته حين ولدت بنتاً ، وراح يبيت عند جيرانه ،

---

(١) الأغاني : ٢/ ١٤١ ، والمستطرف للأبشيهي : ٢/ ٢٢٢ .

(٢) ديوان عروة بن الورد : ص ٢٣ .

لكنه ذات يومٍ وهو يمرّ من أمام خبائها ، سمعها تغني لابنتها وتقول :

مــا لأبــي حمــزة لا يــأتينــا يظــل فــي البيــت الــذي يلينــا
غضبـــان ألا نلـــد البنينـــا تــالله مــا ذلــك فــي أيــدينــا
فنحــن كــالأرض لــزارعينــا ننبــت مــا قــد يــوضــع فينــا

عندها عاد إلىٰ رشده ، وولج الخباء ، فقبّل رأس زوجته ، وقبّل ابنته[1] .

وهذا البغض ـ عند الجاهليين ـ للبنات دفعهم إلىٰ الوأد ! !

إنه الأب الذي يحمل ابنته وهي صغيرة متعلقة بأثوابه لا تدري إلىٰ أين يقتادها ، ويصل إلىٰ مكان خارج القرية يحفر حفرة في التراب ، والبنت تلعب بذلك التراب ، ثم يواريها الثرىٰ ـ وهي حيّة ـ تنادي وتصرخ وتستغيث. . . لكن دموع والدها قد تحجّرت ، وقلبه قد قُدَّ من صخر ، والرحمة لا تعرف إلىٰ قلبه سبيلاً. . . ألم يسأل واحد منهم : ما ذنب هذه الصغيرة كي توضع في هذا القبر وهي حية ؟!. . . وما الذي جَنَتْهُ يداها ؟ !

قالوا : إن السبب هو الفقر ، وقالوا : إن السبب هو التخفف من الأولاد ، وقالوا : إن السبب في ذلك هو الغيرة علىٰ البنات أن يُسبين أو يزوجن بغير أكفاء ، و. . . . لكن هل أي سبب من تلك الأسباب مقنع لهذا العمل البشع ؟ !

لنقرأ هذ القصة : ذكر قيس بن عاصم لرسول الله ﷺ أن امرأته ولدت بنتاً في سفره ، فدفعتها إلىٰ أخوالها ، فلما قدم من سفره أخبرته أنها ولدت ولداً ميتاً ، ومضت سنون حتىٰ كبرت الصبية ويفعت ، فزارت أمها

---

(١) البيان والتبيين : ١/١٨٦ .

يوماً ، فرآها قيس فأعجبته ، فسأل عنها ، فبكت أمها وقالت له : هذه ابنتك ، وقصت عليه حيلتها ، قال : فأمسكت حتىٰ اشتغلت عنها ، ثم أخرجتها فحفرت لها حفيرة ، فجعلتها فيها ، وجعلت أقذف عليها التراب ، وهي تقول : يا أبت أمغطيٍّ أنت بالتراب ، أتاركي أنت وحدي ومنصرف عني ؟!

وجعلت أقذف عليها التراب حتىٰ واريتها وانقطع صوتها ، فما رحمت أحداً ممن واريته غيرها ، فدمعت عينا النبي ﷺ وقال : إن هذه لقسوة ، وإن من لم يرحم لا يرحم[1] .

إنها الجاهلية الجهلاء ، ولذلك أتىٰ الإسلام ليهدم كل المظاهر السيئة ، وليعترف بما كان حسناً ـ وهو النذر اليسير ـ لذلك نجد أن الشريعة الإسلامية قد نددت بوأد البنات ، وذلك ضمن علامات استفهام واستنكار وتعجب .

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : ٨ـ٩] .

ولم تدع الشريعة أي مجال للتبرير ، فأياً كان السبب للوأد فهو مرفوض :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء : ٣١] .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

[الأنعام : ١٥١] .

وكذلك فقد نددت الشريعة الإسلامية وحرمت زواج الابن بامرأة أبيه ـ والتي يرثها بعد موته ـ وأسمىٰ ذلك بالزواج المقت :

---

(١) الأغاني : ١٢/١٤٣ .

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٢٢] .

ونهىٰ الإسلام عن إكراه الفتيات علىٰ البغاء :

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٣٣] .

إلىٰ جانب ذلك فقد أعطاها الحق في الميراث ؛

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء : ٧] .

إلىٰ غير ذلك من الأمور التي سنأتي علىٰ بيانها وشرحها عند الحديث عن مكانة المرأة في الإسلام .

* * *

الباب الثاني

ذكر النساء في القرآن الكريم

[illegible]

[illegible]

تمهيد

بعد أن استعرضنا حال المرأة عند الشعوب القديمة : من الهنود إلىٰ الصينيين إلىٰ اليابانيين. . . إلىٰ المرأة في العصر الجاهلي. . . لا بد من أن نتابع المسيرة لهذا العرض ، خاصةً أنه حدث انقلاب علىٰ وجه الأرض ، حيث هبط الأمين جبريل بكتابٍ من عند الله تعالىٰ يعلن أنه آخر الرسالات ، وأن رسول الله محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء ، وأن هذه الشريعة هي الشريعة التي ستدوم وتبقىٰ إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لذلك لا بدّ من استعراضٍ سريع لوضع المرأة في كتاب الله تعالىٰ وسنة حبيبه المصطفىٰ ﷺ ، ليتبين لنا الفرق الواضح بين وضعها في الإسلام وبين ما كانت عليه في الأديان والمعتقدات السابقة .

* * *

في سورة البقرة

آيات كثيرة تتحدث عن المرأة ، من ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة : ٣٥ـ٣٦] .

إنه خطاب من الله تعالىٰ إلىٰ أبي البشر آدم ـ عليه السلام ـ بأن يتخذ الجنة مأوىً له ولزوجه حواء ، وأن يعيشا عيشة هانئةً لا عناء فيها ، ثم

وضع لهما شرطاً هو أن لا تقربا هذه الشجرة ـ وهي شجرة مجهولة بالنسبة لنا ـ إلا أنها شجرة ما ، أراد الله من خلالها امتحان آدم وحواء ▪ فماذا حدث ؟

وسوس لهما الشيطان وأغراهما بالأكل منها ووعدهما أنه سيكون لهما من الناصحين ▪ بل وحلف لهما بذلك ، وفي لحظة ضعف صدَّقت حواء إبليس فأكلت من تلك الشجرة فلم تصب بأذىٰ ، عندها أقنعت آدم عليه السلام بأن يأكل من الشجرة فأكل ، فكانت العقوبة إخراجهما من الجنة ، من جوار الله ، ثم الأمر بأن يهبطا إلىٰ الأرض لتعمر الحياة ويتكاثر البشر[١] .

ثم يقول الله تعالىٰ في السورة نفسها :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٧٨] .

إنه تشريع القصاص الذي وصفه الله تعالىٰ بقوله :

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

واختلف الفقهاء في موضوع هل يُقتل الرجل إذا قتل امرأة ؟

فذهب مالك وأحمد وسفيان الثوري إلىٰ أن الذكر لا يُقتل بالأنثىٰ إلا إذا سلم أولياء المرأة الزيادة علىٰ ديتها من دية الرجل ، لكن الجمهور ـ أبو حنيفة والشافعي ـ قالوا : يُقتل الرجل بالمرأة ولا زيادة . . .

ثم يُلفت البيان الإلهي النظر إلىٰ مسألة أهم وهي العفو ، وهذا من باب التيسير والتخفيف .

---

(١) للتوسع يراجع التفسير الكبير للرازي : ٥/ ٤٠ .

بعدها ينهي الله تعالىٰ هذه الآية بقوله : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي أن الله سبحانه عفا عما كان في الجاهلية لمن أسلم الآن ، وقد بين له وحُدَّ له الحدود ، فإن تجاوزها بعد بيانها فله عذاب أليم ، بالقتل في الدنيا وبالعذاب في الآخرة[١] .

ـ ثم بعد ذلك يحدثنا البيان الإلهي عن العلاقة بين الرجال والنساء ـ الأزواج ـ أثناء الصوم فيقول :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

ويعلق الإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٤ هـ) علىٰ هذه الآية بقوله :

ذهب جمهور المفسرين إلىٰ أنه في أول شريعة محمد ﷺ ، كان الصائم إذا أفطر حلّ له الأكل والشرب والوقاع بشرط أن لا ينام وأن لا يصلي العشاء الآخرة ، فإذا فعل أحدهما حرّم عليه هذه الأشياء ، ثم إن الله تعالىٰ نسخ ذلك بهذه الآية .

ثم يقول : وأما قوله تعالىٰ : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولىٰ : قد ذكرنا في تشبيه الزوجين باللباس وجوهاً ، أحدها : أنه لما كان الرجل والمرأة يعتنقان ، فيضمّ كل واحد منهما جسمه إلىٰ جسم صاحبه حتىٰ يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذي

---

(١) للتوسع يراجع أحكام القرآن لابن العربي : ١/ ٨٩ـ١٠٠ .

يلبسه ، سمي كل واحد منهما لباسً ، قال الربيع : هن فراش لكم وأنتم لحاف لهن ، وقال ابن زيد ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ يريد أن كل واحد منهما يستر صاحبه عند الجماع عن أبصار الناس .

وثانيها : إنما سمي الزوجان لباساً ليستر كل واحد منهما صاحبه عما لا يحل ، كما جاء في الخبر « من تزوج أحرز ثلثي دينه » .

وثالثهما : أنه تعالىٰ جعلها لباساً للرجل ، من حيث إنه يخصها بنفسه ، كما يخص لباسه بنفسه ، ويراها أهلاً لأن يلاقي كل بدنه كل بدنها كما يعمله في اللباس .

ورابعها : يحتمل أن يكون المراد ستره بها عن جميع المفاسد التي تقع في البيت ، لو لم تكن المرأة حاضرة ، كما يستتر الإنسان بلباسه عن الحرّ والبرد وكثير من المضار .

وخامسها : ذكر الأصم أن المراد كل واحد منهما مهما كان كاللباس الساتر للآخر في ذلك المحظور الذي يفعلونه ، وهذا ضعيف لأنه تعالىٰ أورد هذا الوصف علىٰ طريق الإنعام علينا ، فكيف يحمل علىٰ التستر بهن في المحظور ؟[1] .

إنه من التيسير من الله والتخفيف ، لذلك سُمح بالمباشرة بين الرجال والنساء ـ الأزواج ـ والأكل والشرب . . . جميع ساعات الليل ـ من أذان المغرب حتىٰ أذان الفجر ـ ثم يأتي الأدب القرآني ليلفت الانتباه إلىٰ قضية رائعة وهي عدم المباشرة بين الأزواج في المساجد ، ثم يختم الآية بقوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ أي لا تتجاوزوها ، كما في قوله تعالىٰ ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ .

---

(١) للتوسع يراجع التفسير الكبير : ٥/ ٨٨ـ٩٩ .

ـ ثم يذكر الله تعالىٰ العلاقة بين المشركين والمسلمين فيما يختص بالزواج فيقول :

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ ﴾

[البقرة : ٢٢١] .

إنه توجيه إلهي إلىٰ المؤمنين بأن لا يتزوجوا من المشركات والوثنيات ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ولا من الكتابيات ، وعلىٰ المؤمنين أن لا ينخدعوا بالجمال والحسن ، لأن القضية والميزان هي الإيمان والتقىٰ ، لذلك فالأفضلُ للمؤمن أن يتزوج من مؤمنة ولو كانت أمَةً غير جميلة ، من أن يتزوج من مشركة حرة جميلة . . .

كذلك ، يا أيها المؤمنون لا تزوجوا مشركاً من مؤمنة حتىٰ يعلن إسلامه ، ولا يغرنكم المال والجاه والجمال و . . . لأن العبد المؤمن خير عند الله وأفضل للمؤمنة من المشرك الحر الغني الجميل . ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ ﴾ ، وأما السبب في هذا النهي فيقول الإمام القرطبي في ذلك : وأجمعت الأمة علىٰ أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجهٍ ، لما في ذلك من الغضاضة علىٰ الإسلام . . .[(١)] .

ثم تتحدث الآيات القرآنية حول موضوع الحيض . . . فيقول الله تعالىٰ في ذلك :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا

(١) للتوسع يراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٣/ ٧٠ـ٨٤ .

﴿... تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢ـ٢٢٣] .

كان أهل الجاهلية يعتزلون النساء في فترة المحيض : لا يجلسون معهن في إناءٍ واحد ، ولا يؤاكلهن من طعامهن ، ولا ينامون معهن في بيت واحد ، ولا يأكلون معهن في فراش واحد ، وكأن المرأة في هذه الفترة نجسة نجاسة مغلّظة ! !

لكن القرآن الكريم أمر باعتزال النساء وقت المحيض ، فقط من ناحية الجماع في الفرج ، وما عدا ذلك فمباح للرجل أن يأكل معها ، وينام معها ، و . . . فإذا انتهت مدة حيضها رُفع الحرج والتحريم . .

ثم بعد ذلك يحدد القرآن ـ بدقة وتفصيل ـ حدود العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة بما يدل علىٰ طهارة الإسلام ونقائه . . . ولهذا الأمر تفصيلات كثيرة(١) .

ـ ثم تتحدث السورة عن مواضيع نسائية مهمة مثل : الإيلاء وهو أن يحلف الرجل أن لا يطأ امرأته أكثر من أربعة أشهر . . . ، ومثل عدة المطلقات ، ومثل عدة الطلاق الذي تثبت فيه العدة للأزواج وهو مرتان ـ طلاق رجعي ـ ، ومثل كيفية ترجيع المرأة بعد طلاقها ثلاثاً وذلك بأن تتزوج رجلاً آخر ، ومثل مدة الرضاعة ، ومثل عدة المتوفي عنها زوجها ، ومثل طلاق المرأة التي لم يمسّها الرجل ، وكلها أحكام هامة تهتم بموضوع النساء ، ولا مجال للتوسع في ذلك لكني سأشير فقط إلىٰ أماكن تفسيرها من التفاسير المعتمدة ، يقول الله تعالىٰ :

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري : ٢/ ٣٨٠ـ٣٩٩ .

۞ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ
عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا
يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ
بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن
تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ
ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا
تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ
لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ
لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا
وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا
فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ
أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا۟
عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ

فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1] .

[البقرة : ٢٢٦ـ٢٣٧] .

ـ ثم يأتي الحديث القرآني عن شهادة المرأة ، وذلك في قوله تعالىٰ في أطول آية قرآنية ، وهي آية الدّين المشهورة ؛ وفيها :

﴿ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ . . . ﴾

[البقرة : ٢٨٢] .

وعلّق القاضي أبو بكر ابن العربي (ت ٥٤٣ هـ) علىٰ ذلك بقوله :

(رتّب الله الشهادات بحكمته في الحقوق المالية والبدنية والحدود ؛ فجعلها في كل فنّ شهيدين ، إلا في الزنا فإنه قرن ثبوتها بأربعة شهداء ، تأكيداً في الستر .

والمقصود بقوله تعالىٰ ﴿مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾ أي البالغون من ذكوركم المسلمون ؛ لأن الطفل لا يُقال له رجل ، وكذا المرأة لا يُقال لها رجل . . . .) واشترط البيان الإلهي في حال عدم وجود رجلين أن تكون امرأتان مع رجل ، وعلل ذلك بقوله ﴿ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ ﴾ أي تذكر الذاكرة الغافلة . . . والحكمة من ذلك أن الرجل

---

(١) لبيان تفسير هذه الآيات يراجع : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٣/١٠٦ـ٢٠٧ ، والتفسير الكبير للرازي : ٦/٦٩ـ١٢٤ ، وأحكام القرآن لابن العربي : ١/٢٤٢ـ٢٩٧ ، وتفسير الطبري : ٢/٤١٧ـ٥٥٣ . .

يقضي غالبية أوقاته في السوق والعمل و . . . أساليب المعيشة ، لذا يكون الأمر عليه سهل ، لكن المرأة تقضي غالبية وقتها في البيت : مع الأولاد ومشاكلهم ، مع تهيئة الطعام . . وترتيب المنزل و . . . لذلك تكون أقرب إلىٰ النسيان لتلك الأمور المادية ونحوه أكثر من الرجل ـ وسبحان من قسّم ذلك ووزعه بإتقان ودقة ـ[1] .

* * *

وفي سورة آل عمران

حديث طويل عن سيدنا عيسىٰ ـ عليه السلام ـ ويبدأ الحديث عن كيفية نذر جدته (حنة) بأن تجعل الولد الذي تحمله في بطنها خادماً للكنيسة ، لكن إرادة الله شاءت أن يكون الولد أنثىٰ ـ وهي مريم ـ ، ثم يتحدث البيان الإلهي عن كيفية كفل سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ لمريم ، وعن كيفية عبادتها وإخلاصها لله تعالىٰ ، وعن كيفية دخول سيدنا زكريا عليها ليجد عندها العجب العُجاب ، فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٥ـ٣٧] .

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع أحكام القرآن : ١/ ٣٣٢ـ٣٤٠ .

ولتبيان تفسير هذه الآيات وشرحها يراجع التفاسير التالية[1] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ قضية اصطفاء مريم وأمرها بالعبادة ، من ركوع وسجود وقنوت بين يدي الله ، فيقول تعالىٰ :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

[آل عمران : ٤٢ـ٤٣] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ القضية الكبرىٰ ، وهي قضية حمل مريم من دون أن يقربها رجل ، وهذا أمر غيبي لا دخل للمخلوقات فيه ، لذلك نراها تستغرب ذلك ، ويُنكره عليها قومها و . . . لكنها إرادة الله وقدرته ﴿كن فيكون﴾ .

وفي ذلك يقول الله تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

[آل عمران : ٤٥ـ٤٧] .

ـ وفي السورة نفسها يحدثنا البيان الإلهي عن قصة سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ وكيف كان شيخاً كبيراً تجاوز ـ علىٰ بعض الروايات ـ المائة والعشرين سنة ، وكانت زوجته قد تجاوزت التسعين سنة وكانت عاقراً لا تلد ، لكن النبي زكريا كان يكثر الدعاء أن يرزقه الله بولد ، وذات يوم وهو في صلاته أتته الملائكة بالبشارة بأن الله تعالىٰ أراد له أن ينجب

---

(١) تفسير القرطبي : ٤/ ٦٩ـ٩٨ ، وتفسير الطبري : ٣/ ٢٣٤ـ٢٨١ ، وأحكام القرآن لابن العربي : ١/ ٣٥٢ـ٣٥٩ ، وتفسير الرازي : ٨/ ٢١ـ٤٧ .

ولداً ، لكن كيف وهو الكبير ، وزوجه الكبيرة العاقر ؟! إنها إرادة الله وقدرته[1] ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران : ٣٨ـ٤١] .

ـ وفي أواخر السورة يضع أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ميزان العدل الذي يساوي من خلاله بين الرجل والمرأة في الثواب والعمل فيقول تعالىٰ :

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

ويعلّق الإمام القرطبي علىٰ هذه الآية بقوله :

روىٰ الحاكم أبو عبد الله في صحيحه عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ألا أسمع الله ذَكَرَ النساء في الهجرة بشيء ؟

فأنزل الله تعالىٰ : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ وأخرجه الترمذي . . ، وأما قوله تعالىٰ ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي دينكم واحد ، وقيل : بعضكم من بعض في الثواب والأحكام

---

(١) يراجع تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) : ٢/ ٣٣ـ٣٥ .

والنصرة وشبه ذلك . وقال الضّحاك : رجالكم شكل نسائكم في الطاعة ، ونساؤكم شكل رجالكم في الطاعة ، نظيرها قوله عز وجل : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٧١] .

ويقال : فلان منّي ، أي علىٰ مذهبي وخلقي .

وأما قوله تعالىٰ : ﴿فالذين هاجروا﴾ أي هجروا أوطانهم وساروا إلىٰ المدينة ، في طاعة الله عز وجل ، و﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ أي وقاتلوا أعدائي وقتلوا في سبيلي . ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم﴾ أي لأسترنّها عليهم في الآخرة ، فلا أوبخهم بها ولا أعاقبهم عليها . . . ولأثيبنهم ثواباً و﴿الله عنده حسن الثواب﴾ أي حسن الجزاء ، وهو ما يرجع علىٰ العامل من جراء عمله . . .(١) .

* * *

وفي سورة النساء

نجد في افتتاحية السورة ذكر النساء إلىٰ جانب الرجال ، وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

(توحي ـ هذه الآية ـ إلىٰ أن البشرية التي صدرت من إرادة واحدة ، تتصل في رحم واحدة . وتلتقي في وشيجة واحدة ، وتنبثق من أصل واحد ، وتنتسب إلىٰ نسب واحد ، ولو تذكر الناس هذه الحقيقة لتضاءلت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٤/ ٣٢٧ـ٣٢٨ ، وفي تفسير الطبري : ٤/ ٢١٥ـ٢١٧ ، وفي تفسير ابن كثير : ٢/ ١٨٢ـ١٨٣ .

في حسهم كل الفروق الطائلة ، التي نشأت في حياتهم متأخرة ، ففرقت بين أبناء النفس الواحدة ، ومزقت وشائج الرحم الواحدة ، وكلها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغىٰ علىٰ مودة الرحم وحقها في الرعاية . وصلة النفس وحقها في المودة . وصلة الربوبية وحقها في التقوىٰ .

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلاً لذلك باستبعاد الاستعباد الطبقي السائد في وثنية الهند والصراع الطبقي ، الذي تسيل فيه الدماء أنهاراً ، في الدول الشيوعية ، والذي ما تزال الجاهلية الحديثة تعتبره قاعدة فلسفتها المذهبية . ونقطة انطلاقها إلىٰ تحطيم الطبقات كلها ، لتسويد طبقة واحدة . ناسية النفس الواحدة التي انبثق منها الجميع . والربوبية الواحدة التي يرجع إليها الجميع!

والحقيقة الأخرىٰ التي تتضمنها الإشارة إلىٰ أنه من النفس الواحدة ﴿خلق منها زوجها﴾ كانت كفيلة ـ لو أدركتها البشرية ـ أن توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة ، التي تردت فيها ، وهي تتصور في المرأة شتىٰ التصورات السخيفة ، وتراها منبع الرجس والنجاسة ، وأصل الشر والبلاء . . وهي من النفس الأولىٰ فطرة وطبعاً خلقها الله لتكون لها زوجاً ، وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، فلا فارق في الأصل والفطرة . إنما الفارق في الاستعداد والوظيفة .

ولقد خبطت البشرية في هذا التيه طويلاً ، فجرّدن المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها فترة من الزمان . تحت تأثير تصور سخيف لا أصل له ، فلما أن أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الأخرىٰ . وأطلقت للمرأة العنان ، ونسيت أنها إنسان خلقت لإنسان . ونفس خلقت لنفس . وشطر مكمل لشطر ، وأنهما ليسا فردين متماثلين . وإنما هما زوجان متكاملان .

والمنهج الرباني القويم يرد البشرية إلىٰ هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد . كذلك توحي الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة ، فقد شاء الله أن تبدأ هذه النبتة في الأرض بأسرة واحدة ، فتخلق ابتداءً نفساً واحدة ، وخلق منها زوجها ، فكانت أسرة من زوجين ﴿وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾ ولو شاء لخلق ـ في أول النشأة ـ رجالاً كثيراً ونساءً ، وزوجهم ، فكانوا أسراً شتىٰ من أول الطريق ، لا رحم بينهما من مبدأ الأمر ، ولا رابطة تربطها إلا صدورها عن إرادة الخالق الواحد ، وهي الوشيجة الأولىٰ ، ولكنه ـ سبحانه ـ شاء لأمر علمه ولحكمة يقصدها ، أن يضاعف الوشائج ، فيبدأ بها من وشيجة الربوبية ـ وهي أصل وأول الوشائج ـ ثم يثني بوشيجة الرحم ، فتقوم الأسرة الأولىٰ من ذكر وأنثىٰ ـ هما من نفس واحدة وفطرة واحدة ـ ومن هذه الأسرة الأولىٰ يبث رجالاً كثيراً ونساء ، كلهم يرجعون ابتداءً إلىٰ وشيجة الربوبية ، ثم يرجعون بعدها إلىٰ وشيجة الأسرة ، التي يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني بعد قيامه علىٰ أساس العقيدة)[1] .

ـ وبعد قليل يأتي الحديث في السورة عن تعدد الزوجات والعدل بين النساء ، وعن المهر ، فيقول الله تعالىٰ :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ [النساء : ٣ـ٤] .

ـ وبعد قليل يكون الحديث عن نصيب النساء مما ترك الوالدان ، فيقول تعالىٰ :

---

(١) في ظلال القرآن : المجلد الرابع ص٥٧٣ـ٥٧٥ ، وللتوسع أكثر يراجع الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي : ٥/ ٣ـ٧ .

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء : ٧] .

وعلق القرطبي علىٰ ذلك بقوله :

لما ذكر الله تعالىٰ أمر اليتامىٰ وصله بذكر المواريث ، ونزلت الآية في أوس بن ثابت الأنصاري ، توفي وترك امرأة يقال لها : أم كُجَّة وثلاث بنات له منها ، فقام رجلان هم ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما : سُويد وعرفجة ، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً ، وكانوا في الجاهلية لا يورّثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً ، ويقولون : لا يُعطىٰ إلا من قاتل علىٰ ظهور الخيل ، وطاعن الرمح ، وضارب بالسيف ، وحازا الغنيمة ، فذكرت أم كُجَّة ذلك لرسول الله ﷺ فدعاهما ، فقالا : يا رسول الله ، ولدها لا يركب فرساً ، ولا يحمل كلاً ولا ينكأ عدوّاً ، فقال عليه السلام : « انصرف حتىٰ أنظر ما يحدث الله لي فيهن » فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليهم ، وإبطالاً لقولهم وتصرفهم بجهلهم ، فإن الورثة الصغار كان ينبغي أن يكونوا أحق بالمال من الكبار ، لعدم تصرفهم والنظر في مصالحهم ، فعكسوا الحكم ، وأبطلوا الحكمة فضلوا بأهوائهم ، وأخطؤوا في رائهم وتصرفاتهم[١] .

ـ ثم يأتي الحديث عن نصيب النساء من الميراث بشكل تفصيلي وذلك في الآيتين /١١ ـ ١٢/ وللتفصيل عنها يراجع الجامع لأحكام القرآن : ٥/ ٣٨ ـ ٤٢ .

ـ يتبع ذلك ، الحديث عن النساء اللاتي يرتكبن الزنىٰ ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٥/ ٣١ .

﴿ وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٥] .

إنه الحديث عن عقوبة الزنىٰ ، وكيف يجب أن تثبت الجريمة بأربعة شهود ذكور مسلمين ـ وهذا أمر خاص للتغليظ علىٰ المدّعي وستراً علىٰ العباد ـ وهنا تتحدث الآية عن العقوبة المفروضة في أول الأمر وهي الحبس في البيوت حتىٰ الوفاة ، لكن الآية منسوخة وذلك بعد أن توطدت دعائم الحكومة الإسلامية واستقر المجتمع وأعلنت الأحكام الإسلامية .

« خذوا عني قد جعل الله لهنّ سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عامٍ والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » وسنرىٰ ذلك في سورة النور ـ إنْ شاء الله تعالىٰ ـ .

وبعد قليل تتحدث السورة عن موضوع النهي عن نكاح نساء الآباء ، وعن المحرمات علىٰ الرجال ، فيقول تعالىٰ :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم

بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1] [النساء : ٢٢-٢٤] .

- ثم يحدثنا عن قضية طالما جلجل وطنطن لها الأعداء والمستشرقون ألا وهي قوامة الرجل علىٰ المرأة ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء : ٣٤-٣٥] .

(إن الأسرة هي المؤسسة الأولىٰ في حياة الأنسانية ، الأولىٰ من ناحية أنها نقطة البدء التي تؤثر في كل مراحل الطريق ، والأولىٰ من ناحية الأهمية لأنها تزاول إنشاء وتنشئة العنصر الإنساني ، وهو أكرم عناصر هذا الكون ، في التصوير الإسلامي ، وإذا كانت المؤسسات الأخرىٰ الأقل شأناً ، والأرخص سعراً : كالمؤسسات المالية والصناعية والتجارية . . وما إليها . . . لا يوكل أمرها - عادةً - إلا لأكفأ المرشحين لها ، ممن تخصصوا في هذا الفرع علمياً ، ودربوا عليه عملياً ، فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعية للإرادة والقوامة ، إذا كان هذا هو الشأن في المؤسسات الأقل شأناً والأرخص سعراً ، فأولىٰ أن تتبع هذه القاعدة في مؤسسة الأسرة التي تنشىء أثمن عناصر الكون . . العنصر الإنساني .

والمنهج الرباني يراعي هذا ، ويراعي به الفطرة ، والاستعدادات الموهوبة لشطري النفس لأداء الوظائف المنوطة بكل منهما وفق هذه

(١) ولبيان المراد من هذه الآيات يراجع تفسير الإمام القرطبي : ٥/ ٦٨ - ٨٩ ، وفي ظلال القرآن للسيد قطب : ١/ ٥٩٧ - ٦١١ ، و٢/ ٦١٥ - ٦٢٢ .

الاستعدادات . كما يراعي به العادلة في توزيع الأعباء علىٰ شطري النفس الواحدة . والعدالة في اختصاص كل منهما بنوع الأعباء المهيأ لها ، المعان عليها من فطرته واستعداداته المتميزة المتفردة .

والمسلَّم به ابتداءً أن الرجل والمرأة كلاهما من خلق الله . وأن الله ـ سبحانه ـ لا يريد أن يظلم أحداً من خلقه . وهو يهيئهُ ويعده لوظيفة خاصة ، ويمنحه الاستعدادت اللازمة لإحسان هذه الوظيفة!

وقد خلق الله الناس ذكراً وأنثىٰ ، زوجين علىٰ أساس القاعدة الكلية في بناء هذا الكون ، وجعل من وظائف المرأة أن تحمل وترضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل . وهي وظائف ضخمة أولاً وخطيرة ثانياً ، وليست هينة ولا يسيرة ، بحيث تؤدَّىٰ بدون إعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الأنثىٰ : فكان عدلاً كذلك أن ينوط بالشَّطر الثاني ـ الرجل ـ توفير الحاجات الضرورية ، وتوفير الحماية كذلك للأنثىٰ . كي تتفرغ لوظيفتها الخطيرة ، ولا يحمل عليها أن تحمل وتضع وتكفل ، ثم تعمل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها في آن واحد! وكان عدلاً كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينه علىٰ أداء وظائفه هذه ، وأن تمنح المرأة في تكوينها العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينها علىٰ أداء وظيفتها تلك ، وكان هذا فعلاً . . ولا يظلم ربك أحداً .

ومن ثم زُوّدت المرأة ـ فيما زودت به من الخصائص ـ بالرقة والعطف . وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة ـ بغير وعي ولا سابق تفكير ـ لأن الضروريات الإنسانية العميقة كلها ـ حتىٰ في الفرد الواحد ـ لم تترك لأرجحة الوعي والتفكير وبطئه ، بل جعلت الاستجابة لها غير إرادية! لتسهيل تلبيتها فوراً وفيما يشبه أن يكون قسراً ،

ولكنه قسر داخلي غير مفروض من الخارج ، ولذيذ ومستحب في معظم الأحيان كذلك ، لتكون الاستجابة سريعة من جهة ومريحة من جهة أخرىٰ ، مهما يكن فيها من المشقة والتضحية! صنع الله الذي أتقن كل شيء .

وهذه الخصائص ليست سطحية ، بل هي غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة ، بل يقول كبار العلماء المختصين : إنها غائرة في تكوين كل خلية ، لأنها عميقة في تكوين الخلية الأولىٰ ، التي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين ، بكل خصائصه الأساسية!

وكذلك زود الرجل ـ فيما زود به من الخصائص ـ بالخشونة والصلابة ، وبطء الانفعال والاستجابة ، لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذي كان يمارسه في أول عهده بالحياة إلىٰ القتال الذي يمارسه دائماً لحماية الزوج والأطفال إلىٰ تدبير المعاش ، إلىٰ سائر تكاليفه في الحياة ، لأن وظائفه كلها تحتاج إلىٰ قدر من التروّي قبل الإقدام ، وإعمال الفكر ، والبطء في الاستجابة بوجه عام! وكلها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها ، وهذه الخصائص تجعله أقدر علىٰ القوامة ، وأفضل في مجالها ، كما أن تكليفه بالإنفاق ـ وهو فرع من توزيع الاختصاصات ـ يجعله بدوره أولىٰ بالقوامة ، لأن تدبير المعاش للمؤسسة ومن فيها داخل في هذه القوامة ، والإشراف علىٰ تصريف المال فيها أقرب إلىٰ طبيعة وظيفته فيها .

وهذا العنصران اللذان أبرزهما النص القرآني ، وهو يقرر قوامة الرجال علىٰ النساء في المجتمع الإسلامي ، قوامة لها أسبابها من التكوين والاستعداد ، ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات ، ولها أسبابها من العلة في التوزيع من ناحية ، وتكليف كل شطر ـ في هذا

التوزيع ـ بالجانب الميسر له ، والذي هو معان عليه من الفطرة .

وأفضليته في مكانها ، في الاستعداد للقوامة والدربة عليها ، والنهوض بها بأسبابها ، لأن المؤسسة لا تسير بلا قوامة ـ كسائر المؤسسات الأقل شأناً والأرخص سعراً ، ولأن أحد شطري النفس البشرية مهيأ لها ، معان عليها ، مكلف تكاليفها ، وأحد الشطرين غير مهيأ لها ، ولا معان عليها ، ومن الظلم أن يحملها ويحمل تكاليفها إلىٰ جانب أعبائه الأخرىٰ ، وإذا هو هيء لها بالاستعدادات الكامنة ، ودرب عليها بالتدريب العملي والعلمي ، فسد استعداده للقيام بالوظيفة الأخرىٰ ، وظيفة الأمومة ، لأن لها هي الأخرىٰ مقتضياتها واستعدادتها ، وفي مقدمتها سرعة الانفعال ، وقرب الاستجابة ، فوق الاستعدادات الغائرة في التكوين العضوي والعصبي ، وآثارها في السلوك والاستجابة!

إنها مسائل خطيرة أخطر من أن تتحكم فيها أهواء البشر ، وأخطر من أن تتركهم يخبطون فيها خبط عشواء ، وحين تركت لهم ولأهوائهم في الجاهليات القديمة والجاهليات الحديثة ، هددت البشرية تهديداً خطيراً في وجودها ذاته ، وفي بقاء الخصائص الإنسانية ، التي تقوم بها الحياة الإنسانية وتتميز .

ولعل من الدلائل التي تشير بها الفطرة إلىٰ وجودها وتحكمها ، ووجود قوانينها المتحكمة في بني الإنسان ، حتىٰ وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها .

لعل من هذه الدلائل ما أصاب الحياة البشرية من تخبط وفساد ، ومن تدهور وانهيار ، ومن تهديد بالدمار والبوار ، في كل مرة خالفت فيها هذه القاعدة ، فاهتزت سلطة القوامة في الأسرة ، أو اختلطت معالمها ، أو شذت عن قاعدتها الفطرية الأصلية .

ولعل من هذه الدلائل توقان نفس المرأة ذاتها إلىٰ قيام هذه القوامة علىٰ أصلها الفطري في الأسرة ، وشعورها بالحرمان والنقص والقلق وقلة السعادة ، عندما تعيش مع رجل لا يزاول مهام القوامة ، وتنقصه صفاتها اللازمة ، فيكل إليها هي القوامة! وهي حقيقة ملحوظة تسلم بها حتىٰ المنحرفات الخابطات في الظلام!

ولعل من هذه الدلائل أن الأطفال ـ الذين ينشأون في مؤسسة عائلية القوامة فيها ليست للأب ، إما لأنه ضعيف الشخصية ، بحيث تبرز عليه شخصية الأم وتسيطر ، وإما لأنه مفقود : لوفاته ـ أو لعدم وجود أب شرعي! قلّما ينشأون أسوياء ، وقل ألا ينحرفوا إلىٰ شذوذ ما ، في تكوينهم العصبي والنفسي ، وفي سلوكهم العملي والخلقي . .

فهذه كلها بعض الدلائل ، التي تشير بها الفطرة إلىٰ وجودها وتحكمها ، ووجود قوانينها المتحكمة في بني الإنسان ، حتىٰ وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها!) .

ثم ينقلنا صاحب الظلال إلىٰ طبيعة المرأة المؤمنة الصالحة وسلوكها فيقول :

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ ﴾ فمن طبيعة المؤمنة الصالحة ومن صفاتها الملازمة لها ، بحكم إيمانها وصلاحها ، أن تكون قانتة ، مطيعة ، والقنوت : الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة ، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومعاظلة!

ومن ثم قال : قانتات ، ولم يقل طائعات ، لأن مدلول اللفظ الأول نفسي ، وظلاله رخية ندية ، وهذا هو الذي يليق بالسكن والستر والصيانة بين شطري النفس الواحدة ، في المحضن الذي يرعىٰ الناشئة ، ويطبعهم بجوه وأناسه وظلاله وإيقاعاته! ومن طبيعة المؤمنة الصالحة ، ومن

صفاتها الملازمة لها ، بحكم إيمانها وصلاحها كذلك ، أن تكون حافظة لحرمة رباط المقدس بينها وبين زوجها في غيبته ـ وبالأولىٰ في حضوره ـ فلا تبيح من نفسها في نظرة أو نبرة ـ ما لا يباح إلا له هو ـ بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحد .

وما لا يباح ، لا تقرره هي ، ولا يقرره هو : إنما يقرره الله سبحانه ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ . .

فليس الأمر أمر إرضاء الزوج أن تبيح زوجته من نفسها ـ في غيبته أو في حضوره ـ ما لا يغضب هو له ، أو ما يمليه عليه وعليها المجتمع! إذا انحرف المجتمع عن منهج الله . . . إن هنالك حكماً واحداً في حدود هذا الحفظ ، فعليها أن تحفظ نفسها ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ والتعبير القرآني لا يقول هذا بصيغة الأمر ، بل بما هو أعمق وأشد توكيداً من الأمر ، إنه يقول : إن هذا الحفظ بما حفظ الله ، هو من طبيعة الصالحات ، ومن مقتضىٰ صلاحهن! عندئذ تتهاوىٰ كل أعذار المهزومين والمهزومات من المسلمين والمسلمات ، أمام ضغط المجتمع المنحرف ، وتبرز حدود ما تحفظه الصالحات بالغيب ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ مع القنوت الطائع الراضي الودود .

فأما غير الصالحات ، فهن الناشزات (من الوقوف علىٰ النشز وهو المرتفع البارز من الأرض) وهي صورة حسية للتعبير عن حالة نفسية ، فالناشز تبرز وتستعلي بالعصيان والتمرد[١] .

ثم يستطرد الشهيد ـ رحمه الله ـ في شرح الإجراءات التي يجب أن

---

(١) من الملاحظ أننا نقلنا تحليل سيد رحمه الله تعالىٰ كاملاً لموضوع القوامة ، وذلك لما لهذا الموضوع من أهمية ، ولأنه أحد الاتهامات التي يوجهها الأعداء إلىٰ الإسلام ، ولمزيد من الشرح يراجع : في ظلال القرآن : ٢/ ٦٤٧ـ٦٥٧٨ .

تُتخذ في حال نشوز المرأة ، وهذا أمر حساس ودقيق ، منضبط وغير متروك لأهواء الرجال ، حيث يحدثنا عن المرحلة الأولىٰ وهي الموعظة ، ثم إن لم تنفع معها هذه الوسيلة ، ينتقل إلىٰ الوسيلة الأخرىٰ وهي الهجران في المضاجع ، فإن لم يتحرك إحساسها ولم تعد إلىٰ جادة الصواب ، ولم تلتزم بقوامة الرجل ، عندها لا بد من القناعة بأن هذه المرأة مصابة بمرض نفسي لا يجدي معه إلا المرحلة الثالثة وهي الضرب غير المبرّح .

فإن تحققت الغاية تقف الوسيلة ، فالغاية هي الطاعة ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ .

ـ ثم يؤكد البيان الإلهي علىٰ الميزان الدقيق العادل ، والذي قرره ـ كما رأينا من قبل ـ في سورة آل عمران ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٤] .

وبعد قليل يعيد إلىٰ الأذهان موضوع ميراث المرأة فيقول تعالىٰ :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٢٧] .

وبعدها يأتي الحديث القرآني عن كيفية مصالحة المرأة للزوج عند خوف النشوز ، ثم عن الإرشادات لمن كان في عصمته أكثر من امرأة ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ

كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾[١] [النساء : ١٢٨ـ١٣٠] .

* * *

في سورة المائدة

يأتي الحديث في بداياتها عن الزواج من عفيفات أهل الكتاب ومن المؤمنين ويكون الشرط في الرجال العفة وعدم المجاهرة بالزنا وعدم اتخاذ معشوقات ، والشرط في النساء أن يكن محصنات ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة : ٥] .

وقد تقدم شرح ذلك في سورة النساء ، ولمزيد من الإيضاح حول ما ترشد إليه هذه الآيات يراجع كتب التفسير التالية[٢] .

ـ ثم يأتي الحديث عن السرقة ليبيّن الله تعالىٰ من خلاله المساواة بين

---

(١) للتوسع في بيان أحكام هذه الآيات وما ترشد إليه يراجع :
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٥/ ٤٠٣ـ٤٠٧ ، وأحكام القرآن لابن العربي : ١/ ٦٣٢ـ٦٣٤ ، وجامع البيان عن تأويل القرآن للطبري : ٥/ ٣٠٥ـ٣١٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي : ٢/ ٣٨ـ٤٩ ، وتفسير الطبري : ٦/ ١٠٠ ، وتفسير القرطبي : ٦/ ٧٨ـ٨٢/ .

الرجل والمرأة ـ في العفو والحدود ـ فيقول تعالىٰ :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨ـ٣٩] .

وللموضوع تشعبات فقهية كثيرة ، أوصلها ابن العربي إلىٰ تسعاً وعشرين مسألةً وذلك في كتابه أحكام القرآن : ٢/ ١٠٢ ـ ١٢١ .

ـ ثم يحكم الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بالكفر علىٰ من يجعل من السيد المسيح إلهاً ، ويعتبر ذلك إشراكاً ، ويهدد بأن مصيره نار جهنم ، بعد ذلك القول الصريح يبيّن الله سبحانه حقيقة عيسىٰ ـ عليه السلام ـ وحقيقة أمه مريم ، ويمدحها ويثني عليها ويصفها بالصدّيقة ، وفي ذلك فخر للنساء جميعاً ، فيقول تعالىٰ :

﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٥] .

* * *

في سورة الأعراف

يتحدّث البيان الإلهي عن قصة آدم ـ عليه السلام ـ وحواء ، وكيف استغربت حواء حين حملت وتغير وضعها ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ

عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف : ١٩ـ٢٣] .

ثم يقول الله تعالىٰ في أواخر هذه السورة :

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٩ـ١٩٠] .

ـ ثم يتحدث البيان الإلهي عن فعلة ابتدعها قوم لوط ـ عليه السلام ـ حيث تركوا التمتع بالنساء حسب ما تقتضيه الفطرة والأمر الإلهي ، وراحوا يجامعون الرجال!! ثم كيف نصحهم سيدنا لوط ، وكيف ردُّوا عليه ، وكيف كانت عاقبتهم .

وسنبسط القول في ذلك فيما بعد ، يقول تعالىٰ :

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

[الأعراف : ٨٠ـ٨٤] .

* * *

في سورة التوبة

وفي أماكن متفرقة ، يتحدث البيان الإلهي عن تعذيب المنافقات كما المنافقين ، وعن العلاقة الحميمة بين المؤمنين والمؤمنات ، وكيف أن الله سيرحم المؤمنين والمؤمنات جميعاً ، ثم عن وعد الله للمؤمنين والمؤمنات بالجنات والنعيم الخالد ، يقول الله تعالىٰ في المنافقات وعلاقتهم بالمنافقين :

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٧-٦٨] .

(إن المنافقين والمنافقات كالشيء الواحد في الخروج عن الدين ، وإنهم ليسوا من المؤمنين ـ ولو حلفوا بذلك ـ ولكن بعضهم من بعض ، أي متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وقبض أيديهم عبارة عن ترك الجهاد ، وفيما يجب عليهم من حق ، والنسيان هنا أي الترك : أي تركوا ما أمرهم الله به فتركهم في الشك ، وقيل : إنهم تركوا أمره حتىٰ صار كالمنسيّ مصيرهم بعزلة المنسيّ من ثوابه .

وقال قتادة : نسيهم أي من الخير ، فأما من الشر فلم ينسهم ، والفسق : الخروج عن الطاعة والدين ، إنه وعد الله لهم بأن يصلوا نار جهنم ، وهذا جزاء ووفاء لعملهم في الدنيا ، وأما اللعن فهو البعد ، أي من رحمة الله ، ولهم عذاب واصب دائم)[1] .

---

(١) (بتصرف) من تفسير القرطبي ، وللتوسع يراجع جامع البيان عن تأويل آي القرآن =

وأما الحديث عن المؤمنين والمؤمنات ، فيقول الله تعالىٰ فيه :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٧١ـ٧٢] .

ويعلِّق الإمام الطبري علىٰ هذه الآيات بقوله : يقول تعالىٰ ذكره : وأما المؤمنون والمؤمنات ، وهم المصدقون بالله ورسوله ، وآيات كتابه ، فإن صفتهم أن بعضهم أنصار بعض وأعوانهم ﴿يأمرون بالمعروف﴾ أي يأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله ، وبما جاء من عند الله ﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي يؤدّون الصلاة المفروضة و﴿يؤتون الزكاة﴾ أي ويعطون الزكاة المفروضة أهلها ﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ فيأتمرون لأمر الله ورسوله وينتهون عما نهيناهم عنه ، ﴿أولئك يرحمهم الله﴾ أي هؤلاء الذي هذه صفتهم الذي سيرحمهم الله ، فينقذهم من عذابه ، ويدخلهم جنته ، لا أهل النفاق والتكذيب بالله ورسوله ، الناهون عن المعروف ، الآمرون بالمنكر ، القابضون أيديهم عن أداء حق قوله لله من أموالهم ، وعد الله الذين صدقوا الله ورسوله ، وأقرّوا به ، وبما جاء من عند الله من الرجال والنساء ، جنات تجري من تحتها الأنهار ، أي بساتين و. . .[1] .

* * *

= للطبري : ١٠/ ١٢١ .

(١) بتصرف واختصار من تفسير الطبري : ١٠/ ١٧٨ .

وفي سورة هود

يتحدث البيان الإلهي عن قصة قوم لوط ـ عليه السلام ـ ، وعن حواره معهم من أجل ترك تلك الرذيلة والعودة إلىٰ فطرة الله ، ثم عن كيفية تدمير أولئك القوم بما فيهم امرأة سيدنا لوط ـ عليه السلام ـ فيقول الله تعالىٰ :

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود : ٧٨ـ٨١] .

ولتفصيل أحداث هذه القصة يراجع كتاب قصص الأنبياء للإمام ابن كثير : ١/ ٢٦٨ ـ ٢٨٦ .

ـ ثم يحدثنا القرآن في السورة نفسها عن قصة امرأة خليل الرحمن سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهي سارة ، وكيف أنها كانت كبيرة في السن ، ولما سمعت الملائكة تبشّر زوجها بالولد إسحاق ـ عليه السلام ـ ، تعجبت من ذلك وقالت : ﴿يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾ لكن الله إذا أراد كان المراد ، لقد عاشت حتىٰ رزقت به ثم حتىٰ رأت ولده أيضاً وهو يعقوب بن إسحاق ـ عليهما السلام ـ .

ثم كيف تكون خاتمة القصة بقوله تعالىٰ : ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ وهذا تكريم للنساء جميعاً ، فالمرأة تعتبر من أهل بيت الزوج . . . وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ

بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[1] [هود : ٦٩ـ٧٣] .

* * *

في سورة يوسف

تأتي قصة نبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ بشكل طويل وتفصيلي ، وما يهمنا هنا هو الإغراء الذي تعرض له من قبل امرأة عزيز مصر ـ وهي زليخا ـ ، ثم كيف رفض ذلك والتجأ إلىٰ الله ـ سبحانه ـ ، ثم كيف أعادت المحاولة مرة ومرة ، ثم كيف أغلقت الأبواب وكيف حاول الهرب وكيف مزقت قميصه حين كانت تجذبه إليها ، وكيف شاع الخبر بين النساء عند مراودة زليخا لسيدنا يوسف ، ثم كيف فعلت ، وبالتالي اعترافها بخطئها . والقصة قد فصلها ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء : ١/ ٣١٧ ، والطبري في تفسيره : ١٢/ ١٥٠ ، والقرطبي في تفسيره أيضاً : ٩/ ١٢٢ . . . ، وأما الآيات فهي قوله تعالىٰ : ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ

---

(١) تفصيل أحداث هذه القصة يراجع التفاسير التالية :
تفسير الطبري : ١٢/ ٦٨ـ٧٧ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٩/ ٦٥
وقصص الأنبياء لابن كثير : ١/ ٢٣٦ . . .

وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا
إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ
إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ
مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن
كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ
كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن
نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ
وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى
لُمْتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ
ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ
أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف : ٢٣ـ٣٣] .

وبعد عدة آيات تنكشف الحقيقة وتعترف زليخا بما فعلت ـ من مراودتها لسيدنا يوسف ـ وتعلن أنه بريء من ذلك ، عندها يخرج من السجن ويتولىٰ إدارة الدولة من الناحية المالية ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ
ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ
عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ
ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف : ٥٠ـ٥٢] .

* * *

في سورة الرعد

يرد الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ من أنكر علىٰ سيدنا رسول الله ﷺ تزوجه بالنساء ، ليقول لهم : الزواج بين الأنبياء وزوجاتهم شأن المرسلين من قبل النبي ﷺ ، فلماذا تنكرون عليه ما كانوا عليه ؟!

لقد كان للرسل زوجات وأولاد ، وكذلك حدث لخاتمهم عليه الصلاة والسلام .

وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : ٣٨] .

ـ ثم يقرر البيان الإلهي حقيقةً فيها الردُّ علىٰ كل من يحاول أن ينسب إلىٰ القرآن انتقاصه للمرأة ، فيقرر أن الذين يوفون بعهد الله ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل والذين يخافون الله ويخافون من حسابه ، والذين صبروا وأقاموا الصلاة وأنفقوا ، كل أولئك سيدخلون الجنة ، هم ومن كان صالحاً من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنه لا فرق في الجزاء بين الرجال والنساء ، فدخول الجنة ليس حكراً علىٰ الرجال ، ودخول النار ليس من اختصاص النساء!!

إنما كلٌّ علىٰ حسب عمله ، فإن كان خيراً فالجزاء الجنة ـ سواءً أكان رجلاً أم امرأة ـ وإن كان العمل سيئاً ، فالجزاء النار ـ سواءً أكان رجلاً أم امرأة ـ وهذه اللافتة التي أعلنها القرآن الكريم منذ خمسة عشر قرناً ـ عندما كانت المرأة تُباع وتشترىٰ في سوق النخاسة و. . . ـ وقد أوضحنا القول في ذلك ـ إنما هي دليل علىٰ الحضارة والرقي والمساواة في الشريعة الإسلامية بين الرجل والمرأة ، وهذا الأمر ليس من قبيل الدعاوي التي

لا أدلة عليها ، إنما هي حقائق رُسمت في القرآن وشرحها سيد الأنام ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسار على ذلك الخلفاء الراشدون ومن بعدهم . . . وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٠ـ٢٤] .

* * *

في سورة النحل

يندِّد البيان الإلهي بعادةٍ سيئةٍ كانت في الجاهلية وهي تضايقهم من الأنثىٰ عند ولادتها ، ثم يرسم القرآن تعبيرات وجوههم وانفعالاتهم وحيرتهم في أمر هذا المولود! أيضعه في التراب ؟ أم يتركه علىٰ قيد الحياة ويتحمّل وزره ؟!!

وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(1)

[النحل : ٥٨ـ٥٩] .

ـ ثم يؤكد البيان الإلهي حقيقةً رائعةً : أزواجكم خُلقوا منكم ـ فحواء

---

(١) وقد فصّل القول في ذلك الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب : ٢٠/ ٤٤ ـ ٤٥ ـ

من ضلع آدم ـ والحكمة من ذلك : هو أن الجنس يأنس لجنسه ويستوحش من غير جنسه ، ثم امتن الله تعالىٰ علىٰ البشرية بأن جعل من الأزواج والزوجات بنين وأحفاداً ـ من ذكور وإناث ـ وهذا الأمر لو تفكر الإنسان به لما وسعه إلا السجود للمنظم المبدع المكون الخالق ـ سبحانه ـ إنها علاقة حميمة بين الرجل والمرأة ثم بين الرجل وزوجه مع أولادهما ، ثم بينهم وبين الحفدة ـ أولاد الأولاد ـ

تُرىٰ هل في هذه العلاقة من تمييز بين رجل وامرأة ؟ بين ذكر وأنثىٰ ؟!

إنه كلام عربي فصيح واضح ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾(١) .

ـ ثم يعود البيان الإلهي إلىٰ التأكيد علىٰ حقيقة المساواة في الجزاء ـ بين الرجل والمرأة ـ ، فمن يعمل العمل الصالح وهو مؤمن فسيرزقه الله بالحلال في الدنيا ، ويضع في قلبه القناعة والسعادة من خلال معرفة الله وطاعته والتسليم لقضائه وقدره ، ويُبعد عنه عذاب القبر وما بعده . . كل هذا يتم للإنسان سواءً كان رجلاً أو امرأة ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٢) [النحل : ٩٧] .

* * *

---

(١) يراجع في ظلال القرآن : ٤/ ٢١٧٥ .

(٢) ولتسليط الأضواء علىٰ هذه الآية يراجع التفاسير الآتية : الدر المنثور للسيوطي : ٤/ ١٣٠ ، وفتح القدير للشوكاني : ٣/ ٢٧٣ ، وتفسير ابن كثير : ٤/ ٥٢١ ، وتفسير الطبري : ١٤/ ١١٥ ، وتفسير القرطبي : ١٠/ ١٨٣ والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي : ٥/ ٥٣٤ .

في سورة الإسراء

يأتي الحديث عن فاحشة الزنا من خلال نهي الله عنها وذلك بقوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] .

وهذا النهي يتعلق بالرجال والنساء ، وسنفصل القول في ذلك ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ ويأتي في السورة نفسها حديث عن أدبٍ رفيع وفضيلة وخلق سامٍ ، ألا وهو الإحسان إلىٰ الوالدين ، وذلك في قوله تعالىٰ :

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣ـ٢٤] .

وقد جاءت السنة النبوية شارحة ومفسرة ومؤكدة لهذا الأدب الرفيع ، وقد فصّلت القول في ذلك لمن أراد الاطلاع والاستزادة(١) .

* * *

في سورة مريم

يفصّل الله تعالىٰ قصة مريم وابنها عيسىٰ ـ عليه السلام ـ ضمن أسلوب قصصي رائع فيقول تعالىٰ :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ

(١) وذلك في كتابي : الأخلاق الإسلامية ، باب بر الوالدين : ١/ ١٤١ـ١٦٠ .

مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ
أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ
هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ
فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ
هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ
سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي
عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ
إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ
هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن
كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي
مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ
يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾
ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم : ١٥-٣٤] .

وقد فصل القول في ذلك العلامة ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء : ٢/ ٣٧٠ ، والإمام الرازي في تفسيره الكبير « مفاتيح الغيب » : ٢١/ ١٧٧

* * *

في سورة طه

تتحدث الآيات عن قصة سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ وكيف أوحىٰ الله إلىٰ أمه ـ لما أراد فرعون قتل جميع الذكور في بلده ـ أن اقذفيه في صندوق وضعي الصندوق في نهر النيل ، ثم كيف أرسلت أمه شقيقةً له اسمها مريم لتتبع أخباره وبالتالي فقد كان قوم فرعون قد أخذوا الصندوق إلىٰ القصر

الفرعوني ـ ويشاء الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن يكون ذلك تحدياً لفرعون ، ففي قصره سيتربىٰ ألدَّ أعدائه رغم القرار الذي اتخذه هو بقتل الذكور . وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ . . . ﴾ [طه : ٣٧ـ٤٠] .

إنها قصة سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ ويظهر من خلالها دور المرأة ، المرأة الأم الحنون الرحيمة الخائفة علىٰ ولدها ، والتي لا تقر لها حال ، ولا تغمض لها عين ، والمرأة الأخت التي راحت تتبع الأخبار عن أخيها ، ثم أنها نصحتهم علىٰ من يكفله . .

ثم وفي نفس السورة ، وفي نفس القصة يظهر دور المرأة ، إنها المرأة الزوجة ، ابنة سيدنا شعيب والتي تزوجها سيدنا موسىٰ . . كل ذلك ليؤكد القرآن الكريم علىٰ حقيقة دور المرأة : سواءً كانت زوجاً ، أو أختاً ، أو أماً ، أو ابنتةً . . إنها الشق الثاني في الحياة ، وهي تكمل الشق الأول وهو الرجل ، ولا تعارضه ، ولا تتسلط عليه ، ولا تريد أن تحتل دوره ومكانته ومكانه ، إن الحياة رُسمت وقسمت علىٰ شكل أدوار ، وهُيء كلٌ لما يوافق دوره ، فالرجل له دور خاص ، والمرأة لها دور خاص ، وكلٌ منهما قد ركب الله عقله وعاطفته وإحساسه وشعوره وجسده و . . علىٰ ما يناسب ذاك الدور ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ .

ولو أراد أياً من النوعين أن يضع نفسه في مكان النوع الآخر ، لحدث خلل له أول وليس له آخر ، ونعود إلىٰ قصة سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ ولنستمع إلىٰ البيان الإلهي في ذلك :

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ٩ـ١٠] .

ولمزيد من البيان والإيضاح عن قصة سيدنا موسىٰ ـ مع زوجه ، وفي المهد و . . يراجع كتاب قصص الأنبياء لابن كثير : ٢/ ٣ ـ ٢٥ ، وتفسير الرازي : ٢٢/ ١٣ ـ ٥٠ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١١/ ١٧٩ ـ ٢١١

* * *

في سورة المؤمنون

يعدّ الله سبحانه وتعالىٰ مريم وابنها سيدنا عيسىٰ آية ، حيث ولدته من غير أب ، وخُلق من غير نطفة ، أليس ذلك دليل علىٰ عظمة وقدرة وبديع خلق الله تعالىٰ ؟! إنها امرأة وهو رجل ولا فرق في ذلك فهو آية ، وهي آية أيضاً ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالىٰ :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

[المؤمنون : ٥٠] .

* * *

في سورة النور

تتحدث غالبية السورة عن أحكام تتعلق بالنساء ، أو عن أحكام مشتركة بين الرجل والمرأة ، ولن نذكر الآيات فهي كثيرة ، إنما نذكر أهم المواضيع ونحيل علىٰ المصادر والمراجع الموسوعية وخاصة في كتب التفاسير .

تحدثت السورة عن موضوع جريمة الزنا ، وذكرت عقوبة الزاني والزانية مائة جلدة وذلك إن لم يكونا متزوجين ، ثم يأتي الحديث عن نكاح المشركات ، وعن نكاح الزانية والزاني / الآية : ٣/ ، ثم عن رمي المحصنات وخاصة إن لم يأتوا بأربعة شهداء فعقوبتهم الجلد ثمانين جلدة / الآية : ٤ ـ ٥/

وإن رمىٰ الزوج زوجته بالزنىٰ ولم يكن معه شهداء فلا بد من الملاعنة بين الزوج والزوجة / الآيات : ٦ـ٩/ ، ثم هناك عرض تفصيلي لموضوع الإفك والذي اتهمت فيه أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، ثم كيف برأها الله من فوق سبع سماوات : / الآيات : ١١ ـ ١٢ و٢٣/ .

ثم عن التجانس بين الطيبين والطيبات ، وبين الخبيثين والخبيثات : / الآية : / ٢٦/ ثم تحديد موضوع الزينة للمرأة ، وأين يحق لها أن تظهر الزينة ، وأمام من عليها أن تخفيها : الآية / ٣١/ ، ثم عن نكاح الأيامىٰ ـ الرجال والنساء الذين ليس لهم أزواج ـ الآية/ ٣٢/ ، ثم النهي عن إكراه الفتيات علىٰ البغاء / الآية : ٣٣/

ثم أدب الاستئذان للدخول علىٰ النساء : / الآية : ٥٨/ ، ثم عن حكم الدخول علىٰ العجائز من النساء : / الآية : ٦٠/ ، ثم عن السماح بالأكل من بيوت القريبات والأقارب من آباء وأمهات ، أعمام وعمات ، أخوال وخالات . . .

وللتفصيل وبيان ما يدور حول تلك الأحكام والآداب و . . . تراجع التفاسير التالية[1] :

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٣/ ٣٣١ـ٤٣٢ ، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري : ١٨/ ٥٨ ، وتفسير ابن كثير : ٦/ ١٨ ، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي : ٦/ ٤٣١ ، وتفسير القرطبي : ١٢/ ١٦٤ـ٣٢٠ . . . =

في سورة الفرقان

يحدثنا البيان الإلهي عن تقسيم البشر إلىٰ قسمين : قسم من جهة الذكور ينسب إليهم ، فيقال : فلان ابن فلان ، وفلانة بنت فلان ، وقسم آخر من جهة الإناث يصاهرون بهم ، القسم الأول لا يحل نكاحه ، والقسم الثاني : ما يحل نكاحه . . .

كل ذلك خلقه الله تعالىٰ من أصل واحد وهو الماء ، سواءً قلنا إن الماء الذي خلق منه أصول الحيوان ، كما في قوله تعالىٰ

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾[النور: ٤٥] .

وسواءً قلنا إنه النطفة ، كما في قول الله تعالىٰ :

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق: ٥-٦] .

المهم في الأمر أن ينتبه الإنسان للقضية الجوهرية ، وهي أن الذكورة ليست درجة يستعلي بها الذكر على الأنثىٰ ، والأنوثة ليست درجة تستغلها الأنثىٰ للوصول إلىٰ أمور بعيدة عن فطرة الله التي فطر الناس عليها . . .

إنما أصل الذكر والأنثىٰ واحد ، فلا فرق بينهما في الأصل أبداً ، والذي قرر ذلك هو علام الغيوب ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ويشاء الله تعالىٰ أن يُطلعَ عباده في القرن العشرين عن طريق العلوم التجريبية والمخبرية والطبية و . . علىٰ أن الأصل للذكر والأنثىٰ واحد ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

= ولا بدّ من ملاحظة أن سورة النور يجب تعليمها للنساء ، خاصة الفتيات ، وذلك لما فيها من أحكام العفاف والسّتر ، وقد ورد أن الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ أرسل إلىٰ أهل الكوفة يقول : علموا نساءكم سورة النور : [ذكره الشوكاني في فتح القدير : ٣/ ٥] وهناك أحاديث تدل علىٰ ذلك .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

[الفرقان : ٥٤] .

وبعد هذه الحقيقة الواضحة ـ والتي غفل عنها كثير من البشر ـ جاء البيان الإلهي ليقرر أن هذا الأمر سهل علىٰ الله ، ولو شاء الله ـ سبحانه ـ لكان غير ذلك ، ولا اعتراض علىٰ حكم الخالق الصانع المبدع ، فقال تعالىٰ : ﴿وكان ربك قديراً﴾ قديراً حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر ذكوراً وإناثاً ، فلماذا حولتم ذلك إلىٰ تميز بين الذكورة والأنوثة ؟!

ـ ثم يختم البيان الإلهي هذه السورة بصورة رائعة ، وهي تحلل صفات عباد الرحمن ، وذلك بقوله تعالىٰ :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

ومن صفاتهم : أنهم يطلبون من الله أن يجعل من أزواجهم وذرياتهم قرة أعين ، وأن يجعلهم للمتقين إماماً ، وفي ذلك يقول الإمام الرازي :

إنهم ـ عباد الرحمن ـ سألوا أزواجاً وذرية في الدنيا يشاركونهم ، فأحبوا أن يكونوا معهم في التمسك بطاعة الله تعالىٰ ، فيقوىٰ طمعهم في أن يحصلوا معهم في الجنة فيتكامل سرورهم في الدنيا بهذا الطمع ، وفي الآخرة عند حصول الثواب .

أو أنهم طلبوا من الله تعالىٰ أن يلحق أزواجهم وذرياتهم بهم في الجنة ليتمّ سرورهم بهم . . .[(١)] .

إنه ارتباط وثيق بين الرجل وزوجته وذريته ـ ذكوراً وإناثاً ـ في الدنيا ،

---

(١) التفسير الكبير (بتصرف واختصار) : ٢٤/١٠١ .

ويمتد ذلك الارتباط إلىٰ الآخرة ، وهل هناك شيء أجمل من أن يرىٰ الإنسان المؤمن زوجته وأولاده وأحفاده معه في الجنة ؟! إنها أمنية يحلم المسلم أن يرضىٰ الله عنه وأن يحقق له تلك الأمنية . نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا من هؤلاء في الدنيا والآخرة. . .

إنه الدعاء الذي ينساب من أعماق النفس المؤمنة الراضية بما عند الله ، الواثقة بوعده ، والموقنة بإحسانه وجوده :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

* * *

في سورة النمل

يحدثنا البيان الإلهي عن جانب من قصة سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ ذلك أنه جمع ذات يوم الطير والوحوش والجن والإنس وسار في موكب فخم . ولما وصل أحد الأودية ، سمع نملة تأمر النمل وتحذرهم وتعتذر عن سليمان ـ عليه السلام ـ وجنوده بعدم الشعور . عند ذلك تبسم من قولها ، وتذكّر النعمة الكبيرة التي منحها الله له ـ من فهم ما تقوله النمل وغيرهم ـ فرفع يديه بالدعاء ، أن يلهمه الله شكر النعم الكثيرة التي منحها له ولولده داود ـ عليه السلام ـ ولوالدته الصالحة المؤمنة ، تلك المرأة التي كانت توصي ابنها فتقول : يا بني لا تُكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة .

إنه الأدب مع الوالدين ـ ذكراً أو أنثىٰ ـ وليس هناك تفريق في ذلك أبداً ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ

وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النمل : ١٩] .

بعد ذلك يحدثنا البيان الإلهي عن قصة بلقيس :

حيث تفقّد سليمان ـ عليه السلام ـ الطير ذات يوم فلم يجد الهدهد ، فهددّ وتوعّد ، حتىٰ إذا عاد الهدهد أخبره أنه رأىٰ امرأة تملك شعباً بأسره ، ولها عرش عظيم وبيدها كل شيء ، وتملك كل شيء و . . . وأبدىٰ الهدهد استغرابه لأنه رآها وقومها يسجدون للشمس ، وهو الطير الذي يعلم أن السجود لا يكون إلا لله الخالق الرازق ، فأرسل سليمان ـ عليه السلام ـ لها رسالة مع الهدهد ، وأمرها أن تمتثل لأوامره وتطيعه وأن تأتيه طائعة مستسلمة .

وعندما وصلها الكتاب جمعت وزراءها وأمراءها وأكابر دولتها ، وشاورتهم بالأمر ، لكنها مع ذلك قالت : سنرسل له بهدية ونرىٰ ماذا يفعل .

ولما وصل ذلك إلىٰ سليمان ـ عليه السلام ـ اشتاط غضباً لفعلتها ، وهدد بإرسال جيش جرار لا تستطيع هي ولا مملكتها الوقوف أمامه .

وعندما وصلها الخبر ، أعلنت إسلامها ، وانقادت لأوامر سليمان ـ عليه السلام ـ وتنتهي القصة بأن يتزوجها سليمان ويقرّها ملكة علىٰ اليمن ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ . . . وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل : ٢٢ـ٢٥] .

﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

[النمل : ٢٩ـ٣٥] .

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (١) [النمل : ٤٢ـ٤٤] .

* * *

في سورة القصص

يبرز دور المرأة واضحاً في حياة واحد من الرسل ، بل ومن أولي العزم ـ عليهم جميعاً الصلاة والسلام ـ إنه سيدنا موسىٰ ، حيث المرأة الأم يبرز دورها في إلهام الله لها أن ترضعه ثم تلقيه في النيل ، ويربط علىٰ قلبها بأنه ـ سبحانه ـ سيرد ولدها عليها ، فما عليها إلا أن تنفذ الأمر ولا تخاف ولا تحزن .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] .

ثم يبرز دور المرأة الزوجة ـ زوجة فرعون ـ والتي استطاعت أن تخرق

(١) وللتوسع في قصة بلقيس مع سيدنا سليمان يراجع كتاب قصص الأنبياء للعلامة ابن كثير : ٢/ ٢٧٦ـ٢٨٤ .

القرار الذي اتخذه المجرم فرعون ، وذلك بقتل كل طفل ذكر ، ثم أقنعته بأن يترك لها هذا الغلام لتربيه وتقرَّ به عينها .

ثم المرأة الأم وكيف خافت علىٰ وليدها لولا عناية الله ولطفه به وبها ، ثم المرأة الأخت وكيف ذهبت تتجسس وتراقب لترىٰ ماذا حدث لأخيها :

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص : ٩-١٢] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ مرحلة شبابه ، وكيف هرب من فرعون ، فلما وصل إلىٰ ماء مدين وجد زحاماً عليها ، ثم رأىٰ فتاتين تنتظران ، وتقدّم موسىٰ ـ عليه السلام ـ فسقىٰ لهما ، وبعد قليل أتته إحداهما وطلبت منه أن يقابل والدها ، وهو سيدنا شعيب ـ عليه السلام ـ عندها طمأنه بأن ذلك هو الوحي فلا تخاف من أحد :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾

[القصص : ٢٣-٢٦] .

ثم يحدثنا البيان الإلهي عن اتفاق موسىٰ وشعيب ـ عليهما السلام ـ علىٰ المهر للزواج من ابنة شعيب ـ عليه السلام ـ فيقول تعالىٰ :

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾[1] [القصص : ٢٧ـ٢٨] .

* * *

في سورة الروم

يعود البيان الإلهي ليؤكد حقيقة الأصل الواحد للبشرية ، وأن ذلك الأمر إنما هو من آيات الله ونعمه ، فالذكر والأنثىٰ أصلهما واحد ، وحواء خلقت من آدم ، وبنات حواء جميعاً خُلقن وسيخلقن من أصلاب الرجال وترائب النساء ، وبالتالي فالهدف من ذلك الترابط كله هو التآلف بين الأزواج ، والوداد والتراحم بينهم ، والعطف والوآم والسكينة بينهم ، ويتوج ذلك إنجاب الأولاد حتىٰ تشيع أجواء الحب والمودة والرحمة :

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] .

* * *

في سورة لقمان

يؤكد البيان الإلهي علىٰ الأدب الرفيع ، وهو الأدب مع الوالدين ، ويذكّر الابن بموضوعٍ طالما يغفل الإنسان عنه ، خاصةً عندما يصبح شاباً مفتول العضلات ، ويصير له مركزاً مرموقاً بين الناس ، وتصبح الأموال

---

(١) ولشرح هذه الآيات يراجع : الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي : ١٣/ ٢٧٧ .

لديه كثيرة و. . . إنه موضوع الحمل ، وكم فيه من متاعب وصعوبات ، ولو أردنا أن نستعرض ما قاله الأطباء عن ذلك لرأينا العجب العجاب ، وحبذا لو اطلع المسلم علىٰ بعض المراجع ومنها علىٰ سبيل المثال لا الحصر[1] .

إنه تعب الحمل ، يليه تعب في الطَلْق ، يليه التعب الأكبر عند الوضع ، يلي ذلك كله تعب في مدة الرضاعة. . . وهل يستطيع الإنسان أن يوفيّ والديه حقهما ؟! أبداً ، خاصة الأم التي تعاني وتعاني ، وحين يكبر الأولاد ، وتصبح هي عاجزة كبيرة ، يلقيها بعضهم خارج البيت الفاخر!! أو يضعها في أماكن إيواء العجّز!! أهذا هو الوفاء ؟ أهذه هي النخوة ؟! هل جزاء الإحسان الإساءة ؟! لكن مع كل ما في الأمر من توجيه إلىٰ سماع رأي الوالدين. . . لا بدّ من التنبيه إلىٰ أن ذلك يتم ما لم يتعارض مع خط الله تعالىٰ ، فإن طالباه بأن يعبد غير الله ، ويشرك به ، فلا طاعة لهما حيث لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، لكن ومع ذلك فلا بدّ من برهما وصلتهما و. . .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان : ١٤ـ١٥] .

* * *

(١) القرار المكين للدكتور مأمون شقفة ، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للدكتور محمد علي البار ، تفكّر ساعة للمؤلف : باب التفكر في الإنسان ، والطب في محراب الإيمان للدكتور خالص جلبي ، ومع الطب في القرآن : عبد الحميد دياب وأحمد قزموز .

في سورة الأحزاب

فيها حديث يطول حول النساء ، وهي تشبه إلىٰ حد ما سورة النور وسورة النساء ، لذلك سنقتصر علىٰ ذكر الآيات مع الدلالة علىٰ مصادر شرحها وتفسيرها ، حيث يطالعنا البيان الإلهي في أولها عن موضوع الظهار ـ وهو أن يقول الرجل لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي ـ ويبيّن كم عليه من كفارة ، فيقول تعالىٰ :

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[1] [الأحزاب : ٤] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ الحديث عن أمهات المؤمنين ـ أزواج النبي ﷺ ـ وكيف أن حكم الزواج منهن كحكم الزواج من الأم ، وهذا التحريم مؤبد ويدخل في باب تعظيم النبي ﷺ واحترامه وتقديره ، فيقول تعالىٰ : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾[2] [الأحزاب : ٦] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ الحديث عن تخيير سيدنا رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأزواجه ، وذلك حينما سألنه شيئاً من عرض الدنيا ، وطلبن منه الزيادة في النفقة ، فما كان منه إلا أن خيّرهن بين الدنيا وزينتها ثم الطلاق ، أو بين الآخرة التي تأتي من رضىٰ الله ، ورضىٰ الرسول ، وحينها الأجر الكبير لمن أطاع واتبع :

---

(١) ولمزيدٍ من شرح هذه الآية يراجع التفسير الكبير « مفاتيح الغيب » للرازي : ٢٥/١٦٦-١٦٧ .

(٢) ولمزيد من تسليط الأضواء علىٰ معانيها يراجع : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الألوسي : ٢١/ ١٧١ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] [الأحزاب : ٢٨ـ٢٩] .

بعد ذلك يطالعنا البيان الإلهي بموضوع مضاعفة العذاب لنساء النبي ﷺ إن أتين بعمل غير صالح « من نشوز وعقوق زوج وفساد عشرته و . . . وذلك بسبب مكانتهن وارتفاع منزلتهن .

وكذلك فلهن ضعف الأجر إن أتين من الطاعات أي شيء :

﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾[2] [الأحزاب : ٣٠ـ٣١] .

ثم يذكر الله تعالىٰ توجيهات لأزواج النبي ﷺ ويحضهنّ علىٰ العلم والعمل ، ثم يبين مكانتهن ، وذلك في تطهير الله لهن و . . . ، ثم يطالبهن بأن يذكرن موضع النعمة التي أنعمها عليهم ، حيث صيرهن في بيوت يتلىٰ فيها القرآن والسنة :

﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾

[الأحزاب : ٣٢ـ٣٤] .

---

(١) ولبيان أحكام هذه الآية يراجع :
تفسير الإمام الطبري : ٢١/١٥٦ .

(٢) ولمعرفة تفسير هذه الآية يراجع : الجامع لأحكام القرآن « للقرطبي : ١٤/١٦٩ .

ثم يعود البيان الإلهي ليؤكد علىٰ فكرة المساواة بين الذكر والأنثىٰ ، إنها مساواة في الجزاء ، ويكرر بصيغة الرجولة وصيغة الأنوثة ويضرب الأمثلة الكثيرة علىٰ ذلك ـ الإسلام ، والإيمان ، والقنوت ، والصدق ، والصبر والخشوع ، والإنفاق ، والصوم ، وحفظ الفرج ، وذكر الله ـ هذه الأعمال والصفات إن عملتها الأنثىٰ أو عملها الذكر فالجزاء مغفرةٌ من الله للذنوب التي ارتكبوها يناولون أجراً عظيماً يختمها الله بإدخالهم الجنة : وقد ذكر الإمام أحمد والنسائي والطبراني : أن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت : يا رسول الله ، فما لنا لا نُذكر في القرآن كما تُذكر الرجال ، فأنزل الله تعالىٰ قوله :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾(1) [الأحزاب : ٣٥] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ قصة زيد بن حارثة مع زينب ، ثم كيف طلقها وتزوجها رسول الله ﷺ ، وأن الحكمة من ذلك إلغاء فكرة التبنّي التي كانت سائدة في الجاهلية .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

---

(١) ولمعرفة تفسير هذه الآية يراجع : في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٥/ ٢٨٥٣ .

ولشرح هذه الآية ، ومعرفة حقيقة هذه القصة ، وما دار حولها يراجع[1] .

ثم تنقلنا السورة إلىٰ قضية أخرىٰ هي : أن لا عدة في الطلاق قبل المسيس ، أي قبل أن يتم الجماع بين الرجل والمرأة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾

[الأحزاب : ٤٩] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ موضوع لباس المرأة وحجابها والتحدّث معها ، وذلك من خلال الحديث عن حجاب أمهات المؤمنين ، وعن أحكام خاصة بهن :

﴿ . . . وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾[2] [الأحزاب : ٥٣] .

ثم بعد ذلك يأتي التوجيه إلىٰ موضوع اللباس للمرأة لما في ذلك من أخطار علىٰ المجتمع ، وذلك إذا شرّع المجتمع لنسائه لباساً يوافق الرغبات والأهواء و . . . !!

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥/ ١٨٣ ، والدر المنثور للسيوطي : ٥/ ٢٠٢ ، وتفسير الطبري : ٢٢/ ١١ ، وأحكام القرآن لابن العربي : ٤/ ١٥٤٤ ، وفتح القدير للشوكاني : ٤/ ٤٠١ ، وصحيح البخاري : ٩/ ١٥٢ ، وسنن الترمذي : / ٣٥٤ ، ودلائل البيهقي : ٣/ ٤٦ ، وطبقات ابن سعد : ٨/ ١١٤ ، وسيرة ابن هشام : ٤/ ٣٢٢ ومسند الإمام أحمد : ٣/ ١٦٣ ، وسيرة سيد الأنام ـ عليه الصلاة والسلام ـ للمؤلف : ٣/ ١٤٥ .

(٢) ولمزيد من معرفة تفسير هذه الآية يراجع : تفسير ابن كثير : ٣/ ٥٠٦ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾(1) [الأحزاب : ٥٩] .

ثم يؤكد حقيقة المساوة بين الرجل والمرأة إنها المساواة في العذاب ، كما المساواة في التوبة والغفران ، فيقول الله تعالىٰ في ختام السورة :

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴾(2) [الأحزاب : ٧٣] .

* * *

في سورة الزمر

يعيد الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ الأذهان حقيقة خلق آدم ـ عليه السلام ـ ليقرر من خلال ذلك أن الأصل واحد ، ومن كان أصلهما واحد فلا يحق لأحدهما أن يرتفع عن الآخر ويستعلي عليه، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾(3) [الزمر : ٦] .

* * *

---

(١) ولبيان أحكامها يراجع : البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي : ٧/ ٢٥١ ، وأسباب النزول للواحدي : ٢٧٣ .

(٢) يراجع تفسير الدر المنثور للسيوطي : ٥/ ٢٥٥ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٤/ ٢٤٥ ، وفتح القدير للشوكاني : ٣/ ٤٣٤ .

(٣) لمزيد من الإيضاحات حول هذا التطور في الخلق يراجع : التفسير الكبير للرزي : ٢٦/ ٢١٢ـ٢١٤ .

في سورة غافر ـ المؤمن ـ

يحدثنا البيان الإلهي عن دعاء حملة العرش وغيرهم من الملائكة للمؤمنين والمؤمنات ، وهذا إقرار علوي بالمساواة بين الرجل والمرأة :

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

[غافر : ٧ـ٩] .

ثم يؤكد علىٰ حقيقة المساواة في الجزاء ، إن كان العمل صالحاً فالجنة ونعيمها ـ سواءً كان ذلك صادراً عن رجل أو امرأة ـ وإن كان العمل سيئاً فالنار وعذابها ـ سواءً كان ذلك صادراً عن رجل أو امرأة ـ :

﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾

[غافر : ٤٠] .

* * *

في سورة الشورىٰ

يبين الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ كيفية انتشار الذكور والإناث ، وكيفية أمور يعجز العقل عندها : فهذا رجل يأتيه جميع الأولاد ذكور ، وذلك رجل يكون أولاده جميعهم إناث ، وذاك آخر يكون أولاده أكثرهم ذكور ، وذاك الآخر يكون إناثه أكثر ، وذاك رجل لا يأتيه أولاد أبداً ، فمن الذي نظّم ذلك كله ؟!

حتىٰ الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فإبراهيم كانت ذريته كلها ذكوراً ، ولوط وشعيب كانت ذريتهما إناثاً ، وعيسىٰ ويحيىٰ لم يكن لهما ذرية ، وسيدنا رسول الله ﷺ كانت ذريته أكثرها بنات ـ رقية وأم كلثوم وفاطمة وزينب : إناث ، والقاسم وعبد الله وإبراهيم : ذكور ـ .

إذن : لا دخل للأنثىٰ بتحديد نوع الجنين ، كما لا دخل للرجل في ذلك ، إنما مصدر ذلك كله من بيده كل شيء ـ إنه الله سبحانه ـ مالك الملك ، والعالم القدير .

لذلك قرر الله ـ سبحانه ـ في أول الآية بأنه مالك الملك ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فهل بعد ذلك يحتج إنسان علىٰ امرأته ويغضب ويهدد ويطلّق و . . إذا رُزق بمولود أنثىٰ ؟!

ما دخل المرأة بذلك ؟ بل ما دخل الرجل بذلك ؟ والله يقول :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾(١) [الشورى : ٤٩ـ٥٠] .

يخلق هو ، ويهب الإناث هو ، ويهب الذكور هو ، ويهب الذكور والإناث هو ، ويحرم من الذكور والإناث هو ، فمن عنده اعتراض علىٰ من بيده كل شيء ؟!

* * *

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع : أحكام القرآن لابن العربي : ٤/ ١٦٧٣ .

في سورة محمد

يأتي التوجيه إلىٰ رسول الله ﷺ بأن يستغفر الله ليعصمه الله من الذنوب ، وبأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وذلك بأن يكون شفيعهم في الآخرة ، وفي ذلك يقول الله :

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد : ١٩] .

* * *

في سورة الفتح

يعود إلىٰ تقرير حقيقة المساواة بين الذكر والأنثىٰ ، فالمؤمنون والمؤمنات يدخلون الجنة وتُغفر ذنوبهم ويفوزون بالمقام الرفيع عند الله .

والمنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات يدخلون نار جهنم وبئس المصير ، وينالون غضب الله عليهم ، ولهم العذاب الكبير في الدنيا والآخرة :

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح : ٥-٦] .

* * *

في سورة الحجرات

يتحدث البيان الإلهي عن موضوع الأدب بين أفراد المجتمع ، وعن الأخلاق السامية التي يجب أن تشيع بين الأفراد ، فيندد بظاهرة السخرية بين الأفراد ، ويتحدث عن اللمز والألقاب السيئة ، ثم يهدد من لم يتب من ذلك بالنار ولا يفرّق بين الرجال والنساء في ذلك ، فيقول تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٞ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرٗا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرٗا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١] .

وبعد هذه التوجيهات يقرر حقيقة المساواة ـ بين الذكور والإناث ـ ويُعيد إلىٰ الأذهان أن الأصل واحد ، وأن الهدف من إيجاد الناس شعوباً وقبائل إنما كان من أجل أن يتعارفوا ، فيصل كل واحد رحمه ، لا أن يتفاخر بنسبه ، لينادي هذا من هناك : أن الشعب الألماني تجري في عروقه الدماء الصافية! فيردّ عليه آخر بأن الشعب اليهودي هو شعب الله المختار ، ليقول آخرون : نحن أبناء الله وأحباؤه! وهكذا ينسىٰ الناس الأصل الواحد ، والهدف من الإيجاد شعوباً وقبائل علىٰ هذا النحو .

إن ميزان الله لا ينظر إلىٰ الأجساد والألوان ولا إلىٰ الصور والألقاب والشعارات ، إنما ينظر إلىٰ التقوىٰ ، من زاد فيها فليفتخر لأنها أشرف شيء عند الله ، ولو أن البشر وعَوا هذ الحقيقة ، وتذكروا دائماً أنهم يتصلون بنسب واحد ، ولهم أب واحد وأم واحدة ، وأن الكل سواء ، ولا مفاضلة إلا بالتقوىٰ . . . لو أنهم تذكروا ذلك لما رأينا الحروب التي بينهم ، ولما رأينا إنساناً يموت من الجوع والفقر والحرمان وقلة الرعاية

الصحية ، إلىٰ جانب إنسان آخر يموت من التخمة وأمراض السمنة والتشحّم!![1].

وقد أحسن العلامة الألوسي حين نقل في تفسير هذه الآية قول سيدنا رسول الله ﷺ وهو يخطب في منىٰ : « يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي علىٰ عجمي ، ولا عجمي علىٰ عربي ، ولا أسود علىٰ أحمر ، ولا لأحمر علىٰ أسود ، إلا بالتقوىٰ ، ألا هل بلغت » .

وما أجمل قول الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في ذلك :

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدمٌ والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة ... وأعظمٌ خُلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهُم من أصلهم حسبٌ ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ ... علىٰ الهدىٰ لمن استهدىٰ أدلّاء
وقدْرُ كل امرىء ما كان يجهله ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

ولنستمع إلىٰ كلام الله تعالىٰ في ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

* * *

في سورة الحديد

ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ يوم المرور علىٰ الصراط ، إنه يوم عصيب يحتاج فيه الإنسان لمن يدله علىٰ الصراط ويأخذ بيده إلىٰ أن يتجاوزه ،

---

(١) للتوسع في هذا التفاوت ، وكيف ردم الإنسان هذه الهوّة بينهما يراجع كتاب : الفقراء والأغنياء في ميزان الشريعة الإسلامية للمؤلف : ٢٨٨ـ٣١٩ .

لكن المؤمنين والمؤمنات يعطيهم الله ـ سبحانه ـ نوراً ينبثق من توحيدهم لله وطاعتهم له في الدنيا ، فيضيء لهم الصراط ويُطرد الظلام من أمامهم ، ثم تتلقاهم الملائكة بالترحاب والتسليم والبشارة برضىٰ الله والفوز في الجنة .

وأما المنافقون والمنافقات فيطلبون من المؤمنين والمؤمنات أن يدلوهم علىٰ المكان الذي أتوا منه بها النور! وهل القضية بيع وشراء ؟! فيرد عليهم المؤمنون والمؤمنات رداً فيه تهكم وسخرية : عودوا إلىٰ الدنيا واعملوا صالحاً فستعطون نوراً كالذي معنا!! لكن أنّىٰ لهم ذلك ؟

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٢-١٣] .

وبعد قليل يعود البيان الإلهي إلىٰ تأكيد حقيقة المساواة بين الرجل والمرأة ، فالمصدّق والمصدّقة ، ومن ينفق ومن تنفق في سبيل الله ، سيجزيهم الله أضعاف ذلك من الحسنات والأجر العظيم ، ثم سيكون المآل هو الجنة :

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد : ١٨] .

* * *

في سورة المجادلة

يحدثنا الله تعالىٰ عن قصة خولة بنت ثعلبة مع زوجها أوس بن الصامت ، ذلك أن أوساً كان شيخاً كبيراً ، فدخل علىٰ خولة ذات يومٍ

فراجعته بشيء فغضب ، فقال لها : أنت عليّ كظهر أمي ، وبعد قليل عاد إليها يمازحها ويرادوها عن نفسها ، فأبت وقالت : والله لا يحدث ذلك حتىٰ ينزل الله فينا قرآناً ، ثم ذهبت إلىٰ رسول الله ﷺ وحكت له حكايتهما ، وبعد قليل نزل جبريل بقول الله تعالىٰ :

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] [المجادلة : ١ـ٤] .

* * *

في سورة الممتحنة

حديث طويل عن قضية بيعة النساء ، وعن قصة امتحان المسلمات المهاجرات ، وذلك بأن يحلفن أنهن مسلمات حقيقة ، وكان ذلك في يوم الحديبية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ

---

(١) للتوسع يراجع : تفسير القرطبي : ٢٥٨/١٧ ، وتفسير الكشاف للزمخشري : ٧١/٤ ، وسنن ابن ماجه رقم (١٨٨) وسنن أبي داود رقم (١٧) وسنن الترمذي : ٤٠٦/٥ .

أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[الممتحنة : ١٠-١٢] .

* * *

في سورة الطلاق

حديث طويل عن جانب مهم يتعلق بالحياة الزوجية بين الرجل والمرأة ، إنه موضوع الطلاق ، ففصل البيان الإلهي موضوع عدة المطلقة ، وأين تسكن وقت طلاقها ، ومن سيُنفق عليها وعلىٰ من تُرضع و . . . وهناك تفصيلات أخرىٰ في هذه السورة تراجع في كتب التفسير التالية :

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٨/ ١٤٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي : ٤/ ١٨٢٦ ، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٢٨/ ٨٩ ، والدر المنثور للسيوطي : ٦/ ٢٣٢ ، وتفسير ابن كثير : ٤/ ٣٧٨ ، وفتح القدير للشوكاني : ٥/ ٣٤٥ ، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي : ٨/ ٢٨٥ ، وتفسير الرازي : ٣٠/ ٢٧

* * *

في سورة التحريم

نقلة نوعية إلىٰ داخل بيت رسول الله ﷺ ، لتصور لنا حقيقة علاقته مع زوجاته ، وعلاقتهن ببعضهن :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

[التحريم : ١] .

ثم يقول تعالىٰ :

﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ﴾ [التحريم : ٣ـ٥] .

ثم يأتي التوجيه إلىٰ المؤمنين بأن يبعدوا أهليهم وأنفسهم عن النار ، وذلك من خلال إطعامهم اللقمة الحلال ، وإكسائهم الثوب من الحلال ، وتثبيت العقيدة في نفوسهم ، وأن يسيروا علىٰ خطىٰ أزواج رسول الله ﷺ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

وبعد قليل يحدثنا بيان الله عن نموذجين من عالم النساء :

النموذج الأول :

وهما زوج سيدنا نوح ، وزوج سيدنا لوط ـ عليهم السلام ـ هاتان المرأتان عاشتا في بيت نبوي ، ولكنهما بقيتا كافرتين ، فهل شفع لهما أنهما زوجتا نبيين(١) ؟! أبداً ، فالمسألة ليست بالأحساب والأنساب ،

(١) للتفصيل يراجع قصص الأنبياء لابن كثير : ١/ ٢٨٢ ، والدر المنثور للسيوطي : ٢/ ١٨٥ .

إنما القضية فيها فصل واضح حاسم : فإما إيمان تكون نتيجته الجنة ، وإما كفر وتمرد وعصيان تكون نتيجته النيران .

والنموذج الثاني :

يضمُّ امرأة فرعون ، إنها آسية بنت مزاحم ، آمنت بموسىٰ ـ عليه السلام ـ ورأت النور بعيني رأسها وقلبها ، لكن ذلك جرَّ عليها المتاعب ، فعذبها فرعون ، وربطها بالأوتاد في رابعة الشمس الحارة ، لكنها صبرت وتعلقت بالله ، وناجته ودعته فاستجاب الله لدعائها[1] .

وإلىٰ جانبها ـ في المثال ـ مريم بنت عمران ، تلك المرأة الطاهرة العفيفة ، والتي اعتصمت بالقيم والمبادىء الفاضلة ، يقول تعالىٰ :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾ [التحريم : ١٠ـ١٢] .

* * *

في سورة المعارج

يؤكد حقيقة ذكرها في سورة المؤمنون وهي حفظ الفروج ، وأن من لم يتقيد بذلك فهو متجاوز إلىٰ الحرام ، يقول تعالىٰ :

---

(١) يراجع تفسير القرطبي : ١٨/ ١٩٤ ، والبحر المحيط : ٨/ ٢٩٥ .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج : ٢٩ـ٣٠] .

* * *

في سورة القيامة

وبعد أن حدثنا عن قصة أبي جهل وسخريته من الرسول وما أتىٰ به ، وخاصةً الحديث عن يوم القيامة وما جاء فيه عن نار جهنم وخزنتها .

بعدها جاء التذكير بأصل الإنسان : إنك نطفة من أبيك ، قُذفت في رحم أمك ، ثم أصبحت النطفة علقة ، ثم كونها البارىء المصور بشراً مستقلاً ، ومن خلال ذلك عاد هذا الإنسان ليعطي نطافاً فيها الذكور والإناث ـ أصلهما ـ وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾(١)

[القيامة : ٣٦ـ٤٠] .

* * *

في سورة عبس

يحدثنا القرآن عن النفخة الثانية والتي يكون معها البعث ، وحينها يهرب الإنسان من أقرب الناس إليه وأحبهم إلىٰ قلبه ، إنه يفر من أولئك الناس الذين كان يفرّ إليهم ويستجير بهم في دار الدنيا ، يهرب منهم وهم

---

(١) لمزيد من شرح هذه الآيات يراجع التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي : ٢٩/ ٢٦٩ـ٢٧٨ .

خاصته ، ومن يجب عليه أن يعطف عليهم ويرأف بحالهم ـ وكذلك هم ـ كل ذلك من هول يوم القيامة ، لذلك يفر الإنسان من أخيه ، وأمه ، وأبيه ، وزوجته ، وبنيه ، لماذا يحدث هذا الفرار ؟ لأن كل إنسان مشغول بنفسه ، فهو يخاف أن يطلب منه أقرباؤه وأحبابه شيئاً ما ، وذلك كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج : ١٠] .

وقد روىٰ الترمذي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ـ عن أهل يوم القيامة ـ « يحشرون حفاة عُراة غُرلاً »(١) فقالت امرأة : أينظر بعضنا ، أو يرىٰ بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يا فلانة ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ »(٢) .

يقول الله تعالىٰ في ذلك :

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس : ٣٤ـ٣٧] .

* * *

في سورة البروج

يذكر القرآن قصة ذلك الملك المشرك ، وهو آخر ملوك حمير واسمه ذو نواس ـ وقيل زُرعة بن تُبّان الحميري ـ وأنه حين بلغه أن قوماً من رعيته قد دانوا بالنصرانية ، فسار إليهم بجيش جرار وحفر لهم الخنادق ، وأمر بإشعال النيران فيها ، ثم ألقاهم بها .

وفي هذه القصة يأتي القرآن بعبارة ﴿فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾

---

(١) أي غير مختونين .

(٢) وفي رواية مسلم أن السائلة هي السيدة عائشة رضي الله عنها .

ليؤكد علىٰ حقيقةٍ ترددت كثيراً في القرآن ـ إنها قضية المساواة بينهما ، لذلك فالذين أُحرقوا بالنار المؤمنين والمؤمنات ، ولم يتركوهم أحراراً في دينهم ، وبعد ذلك لم يعلنوا توبتهم من صنعهم القبيح هذا ، فلهم عذاب في قاع جهنم من نفس العذاب الذي عذبوا فيه المؤمنين والمؤمنات ، مع الفرق الكبير بين الإحراق هنا والإحراق في نار جهنم ـ وفي ذلك يقول المولىٰ ـ سبحانه وتعالىٰ ـ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ (1) [البروج : ١٠] .

* * *

في سورة المسد

تأتي سورة المسد لتؤكد حقيقة المساواة ـ بين الذكر والأنثىٰ ـ في الجزاء ، وتعرض علينا نموذجاً مصغراً من شرائح الناس ، إنها قصة أبي لهب وزوجه أم جميل ـ أخت أبي سفيان ـ فقد أخذا علىٰ عاتقهما مهمة الصدّ عن دعوة التوحيد ، وتوّجا ذلك بإيذاء المصطفىٰ صلوات الله عليه ، فهذا أبو لهب يردد بين الناس وهو يسير وراء رسول الله : لا تصدقوه ، إنه كذاب ! ! وتلك أم جميل تقول الشعر وهي تهجو رسول الله :

مـــــذممـــــاً عصينـــــا   وأمـــــره أبينـــــا

ودينـــــه قلينـــــا ! !

---

(١) لتفصيل عن أحداث قصة أصحاب الأخدود يراجع :
تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٩٢ ، وأحكام القرآن لابن العربي : ٤/ ١٩١٦ ، وتفسير الطبري : ٣٠/ ٨٥ ، وتفسير الكشاف للزمخشري : ٤/ ٢٠١ ، وتفسير الإمام القرطبي : ١٩/ ٢٧٥ ، وصحيح مسلم : ٤/ ٢٣٠١ .

هذا أبو لهب يرمي رسول الله ﷺ بالحجارة والشوك والعظام حتىٰ سال الدم من قدميه الشريفتين!

وتلك أم جميل تعيّرُ النبي ﷺ بالفقر ، وتسير في النميمة ، وتصدُّ الناس عن دعوة الإسلام!!

وهذا أبو لهب يعذب الضعفاء من المسلمين ، ويكيل للفقراء منهم العذاب الأليم!

وتلك أم جميل قد أخذت العهد علىٰ نفسها بأن تأتي كل يوم بحملٍ من الشوك والحطب والحسك لتضعه في طريق المسلمين!

فماذا كان الجزاء ـ للذكر والأنثىٰ ـ لأبي لهب وأم جميل ؟! هل هناك من فارق بينهما ؟ أبداً وحاشا لله وهل يظلم ربك أحداً[1] ؟!

سطر البيان الإلهي قصتهما في القرآن الخالد ، وستقرأ الأجيال إلىٰ يوم القيامة عملهما الخسيس هذا ، وقد نالا جزاءهما في الدنيا ، ويوم القيامة سيكون المآل إلىٰ جهنم ساءت مستقراً :

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد : ١ـ٥] .

* * *

وهكذا عشنا مع الآيات التي ورد فيها ذكر النساء في القرآن مع ملاحظة أنا لم نوردها كلها ، إنما عرضنا الأمور الأصلية ، وحذفنا الآيات المكررة ـ سواءً في نفس الموضوع أو قريباً منه ـ علماً أن الآيات التي أوردت ذكر النساء وما يتعلق بهن تزيد عن (١٩٠) مائة وتسعين

---

(١) للتوسع يراجع كتاب : المنهج القرآني في دحض افتراءات ومزاعم المشركين ، للمؤلف : ١٦٠ـ١٩٠ .

موضعاً ، وكل موضع فيه آية أو آيات . وكل هذا يدلنا علىٰ مدىٰ اهتمام القرآن الموحىٰ من عند الله ، المنزل علىٰ قلب سيدنا رسول الله ﷺ بموضوع النساء وما يدور حولهن ، سائلين الله تعالىٰ أن يفتح علينا بسبب بركة كتابه وإكراماً لحبيبه المصطفىٰ والحمد لله رب العالمين .

* * *

الباب الثالث

نظرات في حقوق المرأة في الإسلام

تمهيد

عندما يكون الإنسان ـ الرجل ـ وحيداً يطلق عليه كلمة (فرد) ، وحين يرتبط بالإنسان الآخر ـ المرأة ـ يتغير من (فرد) إلىٰ (زوج)!!

لماذا حدث ذلك ؟ مع العلم أنه ما زال هو هو ، فكيف انتقل من فرد إلىٰ زوج ؟ إنه ـ سواءً الرجل أو المرأة ـ أصبح يمثل الشق الآخر : يحمل آلامه ، ويشاركه طموحاته وآماله ، يحزن لحزنه ، ويفرح لفرحه ، بل وقد يبكي لبكائه و . . .

ولن أجد تعبيراً أدق من تعبير القرآن الكريم ، وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

إنها رائحة الستر والحنان والعطف وتحقيق الأمان والمشاركة والاندماج و. . . تنبعث من حنايا هذه الآية ، لتعطي للرجل والمرأة دروساً ومواعظ ونصائح أهمها : أن عليكما أن تتعاونا في سبيل التغلب علىٰ متاعب هذه الحياة القصيرة لتصلا في النهاية إلىٰ خالق السماوات والأرض ـ سبحانه وتعالىٰ ـ .

لذلك جاءت العلاقة بينهما مرسومة ومضبوطة ، ولن تترك الشريعة الإسلامية ـ الرجل والمرأة ـ يعيشان الحياة خبط عشواء ، إنما هناك واجبات تقابلها حقوق ، ويتخلل ذلك اعتراف واضح ببعض الفروق بينهما .

وفوق ذلك وبعده ترتفع رايات المساواة بينهما لتطبق في المجتمع

الإسلامي ، فيعيش الرجل في موقعه ، وتعيش المرأة في موقعها ، ولن يتدخل ـ أو يحاول أن يخترق حدودها ـ ولن تخترق حدوده ، وبذلك تشيع بينهما أجواء السعادة ، وبالتالي يتحقق المقصد الإلهي من خلق الجنسين :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وكلمة ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ﴾ تضم تحتها عدداً كبيراً من المعاني السامية الحميدة ، من هنا كان لا بد من استعراضٍ ـ ولو كان سريعاً ـ لمجمل نظرة الإسلام إلىٰ المرأة ، وحقوقها وواجباتها ، وإلىٰ الفرق بينها وبين الرجل ، ومن أراد التوسُّع فليرجع إلىٰ المصادر والمراجع التي كتبت في ذلك بشكل تفصيلي .

* * *

الفصل الأول

تفرقة الإسلام بين الرجل والمرأة!!

اعترف الإسلام ببعض الأمور التي يختلف فيها الرجل عن المرأة ، وهذا أمر نابع من فطرة الخلق ، وليس ذلك نقصا أو عيباً ، أو ثغرةً توجه ضد الإسلام ، ومثال ذلك :

١ ـ في الميراث :

جاء البيان الإلهي ليؤكد هذه الحقيقة ، وذلك في قوله تعالىٰ :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء : ١١] .

وعندما قرأ هذه الآية أعداء الإسلام ، ومن يرددون وراءهم كالببغاوات صفقوا وهلَّلوا وظنوا أنهم وصلوا إلىٰ مكانٍ يستطيعون منه توجيه الضربة القاضية ضد الإسلام!!

وراحوا ينادون : الإسلام ظلم المرأة! الإسلام يقف دائماً مع الرجل!!

لكن علماءنا ـ جزاهم الله كل خير ـ ردُّوا علىٰ ذلك بقولهم :

الشريعة الإسلامية لا تطالب المرأة بشيء من المهر ـ عند الزواج ـ ولا بشيءٍ من الإنفاق بعد الزواج ـ ولا بشيءٍ أثناء الشقاق ـ إن حدث طلاق ـ فالرجل وحده مطالب بأن يدفع المهر كله ـ ومهما بلغ ـ وذلك بأمرٍ من الله :

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء : ٤] .

ولو نظرنا إلىٰ هذا الأمر بعين المتفحّص ، أو حسب إسقاطات أهل الاقتصاد والإحصاء لرأينا شيئاً يُتعب الرجل فعلاً ، فالشاب المتعلم مثلاً ، بعد أن يجتاز مرحلة الجامعة ويلتحق بخدمة العلم ، ويبدأ حياته الإنتاجية ، يكون عمره قد تجاوز (٢٥) الخامسة والعشرين ، ووقتها يكون في أقوىٰ مراحل الشهوة الجنسية ، وما عليه إلا أن يستر نفسه ويتعفف ، هنا يقول له الإسلام : عليك أن تدفع للفتاة التي تشاركك حياتك مهراً ـ آجلاً وعاجلاً ـ وأما الفتاة فما عليها إلا أن تتدلل وتطلب ! !

وهذا المهر حق خالصٌ لها ، لا دخل للأب ولا للزوج ولا للأولاد به أبداً ، فهيَ تستطيع أن تنفقه ، أو تتبرع به ، أو تتاجر به ، أو . . . .

ومن جانب آخر : الرجل مطالب بالإنفاق عليها وعلىٰ الأولاد ، وذاك أمرٌ غير يسير ، وأما هي فليست مكلفة بذلك أبداً ، حتىٰ ولو كان لها دخل كبير ، وحتىٰ ولو كانت غنية ! !

والأجمل من ذلك أن الرجل مطالب بالإنفاق علىٰ أبيه وأمه وإخوته ـ وذلك في حال العجز والوفاة والإعسار ـ وهي غير مكلفة بذلك كله . . .

والشيء الآخر : في حال حدوث طلاق ، فعلىٰ الرجل أن يدفع النفقة ـ نفقة العدة ونفقة المتعة ـ وهذا الأمر مفصَّل في بطون أمهات الكتب الفقهية . . وكما قال تعالىٰ :

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤١] .

إذن :

لو جاز للاقتصاديين أن يحسبوا كم يدفع الرجل ـ للمهر والإنفاق و . . . ـ لحدثتنا لغة الإحصاء أنه يدفع أضعاف أضعاف ما تدفعه المرأة ،

من هنا جاءت حكمة الشارع بأن يكون للرجل من الميراث الضعف(١) .

وليس في ذلك أي ظلم لها ولا حيف ، إنما لها الراحة من حسابات الصّرف والإنفاق والتجهيز وما إلىٰ ذلك . . .

٢ـ في القوامة :

عندما قرأ الحاقدون علىٰ الإسلام قول الله تعالىٰ :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

وقوله تعالىٰ :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ ﴾ [النساء : ٣٤] .

وقوله تعالىٰ :

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾(٢) [النساء : ٣٢] .

صاحوا : لقد عثرنا علىٰ الكنز ، تعالوا وانظروا إلىٰ ظلم الإسلام للمرأة ، تعالوا انظروا إلىٰ مدىٰ وقوف الإسلام مع الرجل ! ! !

---

(١) ويضاف إلىٰ ذلك أشياء كثيرة منها : إنفاق الوالد عليها وهي فتاة قبل أن تتزوج ، أو إنفاق أخيها عليها ـ في حال إعسار أو وفاة الأب ـ ويدخل في ذلك : الإنفاق علىٰ الأكل ، واللباس ، والتعليم ، والصحة والدواء و . . . . ! !

إذاً : ليس لنا إلا أن نردد القاعدة الشرعية : الغُنْم بالغُرم ، أو الغُرم بالغنم ؟ !

(٢) وتعني كلمة فضّل هنا أي ميّز ، وهو أسلوب عربي معهود للكلام ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ ﴾ [الرعد : ٤] وفسر العلماء (التفضيل) بالتنوع والتباين ـ أي كل فاكهة لها ميزة لا توجد في غيرها ـ والله أعلم .

فما حقيقة هذا الافتراء والدّجل ؟

لو نظرنا إلىٰ قضية القوامة ، مع عدم نسيان المنهاج المتكامل للإسلام لرأينا أمرين اثنين :

أولهما : تكوين المرأة الجسدي والفيزيولوجي يؤكد أن العاطفة فيها قوية جداً ، فهي مرهفة وهي سريعة الانفعال ، وعاطفتها تتغلب في كثير من الأحيان علىٰ عقلها . . . .

وهذا الأمر لم يأت عبثاً ، فالخالق سبحانه وتعالىٰ ـ وهو العالم بالخلق ـ كوّن المرأة علىٰ هذا الأساس ليناسب وضعها في الحمل والولادة والحضانة والأمومة ، وبالتالي فعاطفتها القوية ليست دليلاً علىٰ ضعفها ، كما أن رجحان عقل الرجل ليس دليلاً علىٰ قوته .

إذن :

الصفات الراجحة عند الرجل هي الإدارك والتفكر والتأمل ، وهذه متطلبات الرئاسة والإشراف ـ القوامة ـ بينما الصفات الراجحة عند المرأة هي العاطفة القوية والوجدان الرقيق ، وهذه أمور تحتاج إلىٰ مشرف عليها ، لذلك كانت قوامة الرجل في البيت . . .

والشيء الثاني : أن الرجل ـ أباً أو أخاً أو ابناً ـ مكلفٌ بالإنفاق علىٰ المرأة ، وخاصة في البيت ، لذلك ليس من العدل أن ينفق الرجل ثم تكون المرأة في البيت مشرفةً عليه ، وهذه توافق مبادىء الديمقراطيات الحديثة ، حيث الشعب يدفع الضرائب وينفق علىٰ مرافق الدولة ، ولذلك كان له الحق في وضع التشريعات ومراقبتها ، فكان نظام البرلمانات والاستفتاء العام ، وهذا ما يُعبر عنه القانونيين بقولهم : (من يُنفق يُشرف) أو (من يدفع يراقب) .

وهذان الأمران لخصهما الله تعالىٰ بقوله :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [النساء : ٣٤] .

﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ و﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ .

مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذا الإشراف وهذه الرياسة ليست إلا للحفظ والصون والرعاية والحماية ورفع التكاليف عنها ، ها هو يرعاها وهو أب وهي له بنت : يصونها ، يربّيها ، يعلمها ، يحميها ، ينفق عليها ، يعطف عليها ، يداويها . . .

وحينما تصبح الفتاة في سن الزواج ، فليس له الحق في أن يجبرها علىٰ الزواج إلا برضاها واختيارها ، وكتب الأحاديث والفقه والتفسير تعرَّضت لهذا الأمر وشرحته جيداً ، وبعد الزواج لا تنتقص من أهليتها المدنية ، ولا من شخصيتها ، بل تبقىٰ محتفظة باسمها واسم أسرتها وكامل حقوقها وأهليتها ـ من بيع وشراء ووصية ووقف ونحو ذلك ـ ولها الحق الكامل في التملك ، ولها الحق الكامل في كل أمورها ، إذاً أين رياسة الرجل في بيت الزوجية ؟

فقط في تدبير سياسة البيت وذلك بالتعاون معها ، تطيعه من جانب لينفق عليها من جانب ، تحترمه ليحترمها ، له عليها حقوق ولها عليه حقوق أيضاً ، مع مراعاة العدل والإنصاف . . ، ولنستمع إلىٰ بيان الله تعالىٰ :

﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

أرأيت إلىٰ هذا التهديد والوعيد من الخالق البارىء ـ سبحانه ـ ؟! إنها حدود الله فمن تعداها فهو من الظالمين . . .

٣ـ في الشهادة :

نتيجة ظروف تحيط بالمرأة ، ونتيجة تكوينها الفطري ، ونتيجة مرورها بأمور لا توجد عند الرجل ، كالدروة الشهرية ، والحمل ، والولادة ، كانت عاطفتها أقوىٰ من الرجل ، وكان وضعها الجسدي والنفسي مضطرب ، لذلك أعفاها الإسلام من بعض الأمور ، كالشهادة في جريمة الزنا ، أو اعتبر شهادة امرأتين تقابل شهادة رجل واحد .

وهذا الأمر أثبته العلم الحديث نتيجة دراسات وأبحاث وتحاليل ، لكن القرآن قد سبق هؤلاء بقرونٍ عديدة ، فقرر ذلك :

﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا . . ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

إذن التعليل واضح : ليس من اختصاص المرأة أن تدخل في تعقيدات الأمور المالية وأمور السوق ونحوها ، لذلك فهي ضعيفة في هذا المجال ، وليس عندها خبرة كبيرة في ذلك ، بينما هي متفوقة في أمور التربية وتدبير المنزل والزينة ونحوها ، إذاً فهي متفوقة عليه في هذه ، وهو متفوّق عليها في ذلك .

كذلك لا بدّ من التذكير بأن شهادة المرأة الواحدة تكفي في الأمور التي تختص بالنساء كإثبات البكارة ، والولادة ، والحمل .

إذن : هل الحق مع الإسلام في هذه الأمور ، أم الحق مع أعداء الإسلام ؟!

إنهم والحالة هذه ، ليسوا إلا كقطيع من الكلاب ترفع رؤوسها نحو السماء وتنبح وتنبح مع تحريك ذيولها ، فهل يؤثر ذلك النباح علىٰ السماء ؟!

الإسلام دين الله ، فطرة الله ، والإنسان خلق من مخلوقات الله ، والذي فصل هذا الثوب ـ الإسلام ـ لهذا المخلوق ـ وهو الإنسان ـ إنما هو الخالق البارىء ـ سبحانه ـ فهل من أحدٍ يعرف ماذا يناسب هذا المخلوق أكثر من الخالق ؟!

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

ولنستمع إلىٰ هذه الحادثة التي يرويها الإمام أحمد بالسند المتصل إلىٰ عقبة بن الحارث أنه قال : تزوجتُ ابنة أبي إهاب ، فجاءت امرأة سوداء ، فذكرت أنها أرضعتْنا ، فأتيتُ رسول الله ﷺ فقمت بين يديه ، فكلمته ، فأعرض عني ، فقمت عن يمينه ، فأعرض عني ، فقلت : يا رسول الله إنما هي سوداء! ؟ قال : « كيف وقد قيل ؟! »[(١)] .

إنه قبول شهادة المرأة الواحدة ، وعلىٰ هذا سار الخلفاء الراشدون ومن بعدهم[(٢)] .

٤ـ في الأعباء الاقتصادية :

نظراً للمنهج الإسلامي المتكامل ، فقد أعفاها الإسلام من كثيرٍ من الأعباء الاقتصادية ، مراعياً في ذلك جانب الضعف الجسدي فيها ، ثم تعرُّضها بين الحين والآخر لأمور تمنعها من ذلك ـ كالدورة الشهرية والحمل والولادة ـ ومن ثم كفل لها الإسلام من أسباب الرزق ما يكفيها ويحميها من شرور الكدح في سبيل الحصول علىٰ لقمة العيش ، وأسند

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/ ٧ .

(٢) مع الأخذ بعين الاعتبار أن الشهادة ـ في المنظور الإسلامي ـ عبءٌ ثقيلٌ يهرب الناس منه ، ولذلك نهىٰ القرآن عن التهرب منها : ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

هذا الأمر إلىٰ الرجل : فهو أبٌ مسؤولٌ عنها قبل أن تتزوج ، وجميع أنواع نفقاتها واجبة عليه ، فإن مات أو عسر الأب فالأخ مسؤولٌ عنها وهكذا . . . حتىٰ إن لم يبق لها معيل فبيت المال مكلف بالإنفاق عليها .

ويتبع ذلك مرحلة الإعداد للزواج ، فهي ليست مسؤولة عن أي شيء من أمور المهر أو إعداد البيت أو حفلة الزفاف وما إلىٰ ذلك .

وفي مرحلة ما بعد ذلك ـ مرحلة الزواج ـ هي معفاة من كل الأعباء الاقتصادية ، وليس لذلك الحمل الثقيل إلا الرجل ، حتىٰ ولو كانت غنية أو وارثة من أهلها أو . . . فهي ليست مسؤولة عن الإنفاق في البيت .

ولو حدث الطلاق بينها وبين زوجها ، فالمسؤول عن جميع الأعباء الاقتصادية إنما هو الرجل فقط ، كالمؤخر للصداق ، والنفقة الكاملة لها ـ من مأكل وملبس ومشرب ومسكن ما دامت في العدة ـ كذلك فعليه وحده أجر الحضانة وتربية الأولاد ، وهذا مصداق قول الله تعالىٰ :

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ [الطلاق : ٦] .

٥ـ في بعض التكاليف الدينية :

من باب التيسير والتخفيف علىٰ المرأة وصيانته ، راعت الشريعة الإسلامية أحوال المرأة الجسمية ، فأسقطت عنها كثيراً من التكاليف الشرعية ، وألزمت الرجل بها نظراً لعدم مروره في تلك الحالات ، ومن ذلك مثلاً :

يجب علىٰ المرأة أن تفطر في رمضان في حالة حيضها ونفاسها ، وإن قرر طبيب موثوق به بأن صومها في رمضان يضرُّ بها أو بجنينها فيحق لها

الإفطار مدة حملها ومدة إرضاعها ، ومن ثمّ عليها قضاء تلك الأيام التي أفطرتها عندما تعود إلىٰ وضعها الطبيعي ، وفي ذلك تيسير عليها ورحمة .

وفي الحج لا تلبس ملابس الإحرام ، وذلك من باب صيانة المرأة وعدم تعرُّضها لكشف أعضاء من جسمها .

وكذلك فقد أعفاها الإسلام من الصلاة عندما تمرُّ في مرحلة الحيض والنفاس ، ولم يأمرها بقضاء تلك الصلاة ، بل أسقطها عنها ، نظراً لما في ذلك الأمر ـ قضاء الصلاة ـ من مشقة وتعسير ، أي أن الإسلام راعىٰ كثيراً من أحوالها ، هادفاً إلىٰ التخفيف عنها والتيسير وعدم التعسير .

وفي حضور الجمعة ، لها حق الخيار في حضورها ، علماً أنها فرض عين كل بالغ من الرجال ، وهذا صريح في كلام سيدنا رسول الله ﷺ : « الجمعة حق واجب علىٰ كل مسلم في جماعة إلا أربعة : عبداً ملوكاً ، أو امرأةً ، أو صبياً ، أو مريضاً »[1] .

فالجمعة غير واجبة علىٰ المرأة ، وهذا أمرٌ فيه خلاف بين الفقهاء فمثلاً الإمام النووي ـ رحمه الله ـ قال : ولا تجب علىٰ امرأة بالإجماع[2] .

بعد هذا كله نسأل ما هو رأي العلم التجريبي في ذلك ؟

يجيبنا الدكتور الكسيس كاريل ـ الحائز علىٰ شهادة نوبل ـ فيقول :

---

(١) رواه أبو داود برقم (١٠٦٧) ، والبيهقي : ٣/ ١٧٢ ، والحاكم : ١/ ٢٨٨ .

(٢) للتفصيل في ذلك ينظر شرح المهذب علىٰ المجموع : ٤/ ٣٥٢ ، ولكن وقائع السيرة النبوية تؤكد علىٰ حضور النساء الجمعة والجماعة في المسجد النبوي ، حتىٰ قال العلماء : إن النساء صلّين وراء رسول الله ﷺ ما لا يقلّ عن (١٧٠٠) سبعة عشر ألف صلاة ـ أي جماعة في المسجد ـ وهكذا أُطلق علىٰ أحد أبواب المسجد النبوي : باب النساء ، وبقي الأمر كذلك في العهد الراشدي كله . . .

الفروق التي توجد بين الرجل والمرأة لا ترجع فقط إلىٰ الاختلاف في هيئة الأعضاء التناسلية ، ووجود الرحم ، وعوارض الحمل ، أو أسلوب التعليم ، بل هي تعود إلىٰ طبيعة أكثر أساسية ، فالتباين بينهما ناتج عن تكون الأنسجة نفسها ، وعن تشرب النظام الجسماني كله بمواد كيماوية معينة تخرج من المبيض ، وقد أدىٰ الجهل بهذه الحقائق الأساسية بأنصار حركة تحرر المرأة إلىٰ الاعتقاد بضرورة التماثل في التعليم ، والسلطة ، والمسؤولية بين الجنسين ، مع أن الحقيقة هي أن المرأة تختلف عن الرجل اختلافاً عميقاً .

فكل خلية من خلاياها تحمل بصمات الأنوثة ، ونفس الأمر ينطبق علىٰ أعضاء جسدها أيضاً ، بل وفوق ذلك ينطبق هذا الأمر علىٰ نظامها العصبي نفسه .

إن القوانين الفسيولوجية ـ أي الخاصة بوظائف الأعضاء ـ صلبة كالقوانين التي تتحكم في حركة النجوم ، ولا يمكن تبديلها برغبات البشر ، فعلينا أن نقبلها كما هي ، وينبغي علىٰ النساء تنمية قدراتهن انسجاماً مع الإطار الذي وفرته لهن الطبيعة بدون محاولة تقليد الرجال .

إن مساهمتهن في تقدم الحضارة البشرية أكبر بكثير من الرجال ، وينبغي ألا يتخلين عن أدوارهن المتميزة(١) .

٦ـ في تولِّي منصب رئاسة الدولة :

لعلَّ الحديث عن هذه الفقرة سيأتي مفصلاً عندما نتحدث عن كونها قاضية ، أو وزيرة ، أو في مجلس النواب ونحو ذلك ، وهنا ننقل ما ذكره الدكتور المرحوم مصطفىٰ السباعي ، وباختصار :

---

(١) الإنسان ذلك المجهول : ١٩ـ٢٠ .

(ليست الولاية ممنوعة علىٰ المرأة إطلاقاً ، بدليل اتفاق الفقهاء قاطبة علىٰ جواز أن تكون المرأة وصية علىٰ الصغار وناقصي الأهلية ، وأن تكون وكيلة لأية جماعة من الناس في تصريف أموالهم وإدارة مزارعهم ، وأن تكون شاهدة ، والشهادة ولاية كما نصَّ الفقهاء علىٰ ذلك .

وإن رئيس الدولة في الإسلام ليس صورة رمزية للزينة والتوقيع ، وإنما هو قائد المجتمع ورأسه المفكر ، ووجهه البارز ، ولسانه الناطق وله صلاحيات واسعة خطيرة الآثار والنتائج :

فهو الذي يعلن الحرب علىٰ الأعداء ، ويقود جيش الأمة في ميادين الكفاح ، ويقرر السلم والمهادنة ، إن كانت المصلحة فيهما ، أو الحرب والاستمرار فيها إن كانت المصلحة تقتضيها ، وطبيعي أن يكون ذلك كله بعد استشارة أهل الحلّ والعقد في الأمة ، عملاً بقوله تعالىٰ :

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ولكنه يعلن قرارهم ، ويرجح ما اختلفوا فيه ، عملاً بقوله تعالىٰ بعد ذلك :

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ورئيس الدولة في الإسلام يتولىٰ خطابة الجمعة في المسجد الجامع ، وإمامة الناس في الصلوات ، والقضاء بين الناس في الخصومات ، إذا اتسع وقته لذلك ، ومما لا ينكر أن هذه الوظائف الخطيرة لا تتفق مع تكوين المرأة النفسي والعاطفي ، وبخاصة ما يتعلق بالحروب وقيادة الجيوش ، فإن ذلك يقتضي من قوة الأعصاب وتغليب العقل علىٰ العاطفة ، والشجاعة في خوض المعامع ، ورؤية الدماء ، ما نحمد الله علىٰ أن المرأة ليست كذلك ، وإلا فقدت الحياة أجمل ما فيها من رحمة ووداعة وحنان .

وكل ما يقال غير هذا لا يخلو من مكابرة بالأمر المحسوس . وإذا وجدت في التاريخ نساء قُدن الجيوش ، وخُضن المعارك ، فإنهنّ من الندرة والقلة بجانب الرجال ما لا يصح أن يتناسىٰ معه طبيعة الجمهرة الغالبة من النساء في جميع عصور التاريخ وفي جميع الشعوب ، ونحن حتىٰ الآن لم نر في أكثر الدول تطرفاً في دفع المرأة إلىٰ كل ميادين الحياة من رضيت أن تتولىٰ امرأة من نسائها وزارة الدفاع ، أو رئاسة الأركان العامة لجيوشها ، أو قيادة فيلق من فيالقها ، أو قطع حربية من قطعاتها .

وليس ذلك مما يضير المرأة في شيء ، فالحياة لا تقوم كلها علىٰ نمط واحد من العبوس والقوة والقسوة والغلظة . ولو كانت كذلك لكانت جحيماً لا تطاق . ومن رحمة الله أن مزج قوة الرجل بحنان المرأة ، وقسوته برحمتها ، وشدته بلينها ، وفي حنانها ورحمتها وأنوثتها سرّ بقائها وسرّ سعادتها وسعادتنا)[1] .

* * *

(١) باختصار وتصرف من كتاب الفقه والقانون : ٣٩ـ٤٢ .

الفصل الثاني

نظرات في حقوق المرأة

١ـ هل هنّ ناقصات عقلٍ ودين؟!

قبل أن ندخل إلىٰ بعض تفصيلات هذا الموضوع ، نقول : لقد حاول الأعداء والمبشرون النيل من الإسلام من خلال توجيه التهم إليه ، وخاصة فيما يتعلق بنقصان عقل المرأة ، ونقصان دينها!!

والمؤسف أكثر ، أن كثيراً من المسلمين ، بل وممن يلبسون الزيَّ الديني ، قد ساهموا ـ وما زالوا ـ في تكريس هذا الأمر .

ذلك أن المبشرين قالوا : لقد حكم الإسلام علىٰ المرأة بأنها ناقصة عقل وناقصة دين ، وبذلك أهانها إهانة كبيرة ، ووضعها في مكانةٍ أدنىٰ من مكانة الرجل!!

وراحوا ينسجون من أخيلتهم قصصاً وأحداثاً يؤكدون من خلالها علىٰ هذا القول .

لكن كل ما لفَّقوه ضد الإسلام رُدَّ عليه ، وفنِّدت أكاذيبهم ومزاعمهم ودُحضت جميعاً ، وبقي الإسلام هو الإسلام ، واضح المعالم ، مضيء الطريق .

لكن الذي يُخاف منه على الإسلام هو زلل بعض دعاته والمنتمين إليه ، وهؤلاء المنتمون ظنوا أن الإسلام يؤخذ هكذا ، دون تمحيص

وتدقيق.. فراحوا ينقلون في دروسهم وخُطبهم ما يهيِّج العواطف والمشاعر ، ويحمِّس الشباب والشيب ، ظانين أنهم يحسنون صنعاً!!

لقد شاع في عهود الانحطاط والبعد عن الشريعة أن المرأة ناقصة عقل ودين ، واعتُمد علىٰ آثارٍ مروية هنا وهناك ، ثم تناقل الناس ذلك واعتبروه شيئاً مقدساً لا يجوز مساسه أو التفحص فيه .

إذن ما حقيقة ذلك كله ؟!

إن أيَّ أمر يجب أن يؤخذ من مصادره الأصلية ، ومصادر الإسلام هي كتاب الله تعالىٰ ، فإن لم نجد فمن سنة سيدنا رسول الله ﷺ إن وُجد ، وإلا فمن إجماع المسلمين ، ومن ثم القياس علىٰ أمر منصوص عليه .

ولو تتبعنا ما قاله المستشرقون وأعداء الإسلام ، ومن ثم ما ردده بعض المنتمين إلىٰ الإسلام لرأينا أنهم اعتمدوا علىٰ السنة النبوية ، لأنه ـ كما قيل ـ لا يفلُّ الحديد إلا الحديد!!

لقد قالوا إنَّ نبيكم محمداً ـ صلوات الله عليه ـ حكم علىٰ النساء بأنهن ناقصات عقل ودين ، لكن لو عدنا إلىٰ أقوال النبي المصطفىٰ لوجدنا عكس ذلك تماماً!!

قال أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ : خرج رسول الله ﷺ في أضحىٰ ـ أو فطرٍ ـ إلىٰ المصلىٰ ، فمرّ علىٰ النساء ، فقال : « يا معشر النساء ، تصدّقنَ ، فإني أُريتكُنَّ أكثر أهل النار » ، فقلن : لم يا رسول الله ؟ قال : « تكثرنَ اللعنَ ، وتُكفرنَ العشير ، وما رأيت من ناقصات عقل ودينٍ أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكنّ » .

قلنَ : وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله ؟

قال : « أليس شهادة المرأة منكنَّ نصف شهادة الرجل ؟ » .

قلنَ : بلىٰ .

قال : « أليست إذا حاضت لم تُصلِّ ولم تصم ؟ » .

قلن : بلىٰ .

قال : « وذلك من نُقصان دينها »[1] .

وفي رواية عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : « ما رأيت من ناقصات عقلٍ ولا دين أغلب لذي لُبٍّ منكن » .

قالت : وما نقصانُ العقل والدين ؟

قال : « أما نقصان العقل : فشهادة امرأتين بشهادة رجل ، وأما نقصان الدين : فإن إحداكنَّ تُفطر في رمضان ، وتقيم أياماً لا تصلي »[2] .

قال شرَّاح الحديث : معنىٰ تكفرن العشير أي المعاشر ، والمراد به : الزوج ، وكفرهنَّ إياه : جحدهنَّ إحسانه إليهن .

ومعنىٰ (اللبّ) : العقل .

ومعنىٰ (الحازم) : العاقل المتحرزُ في الأمور المستظهر فيها .

هذه بعض الأحاديث التي تتحدث في هذه المشكلة ، وهي كما يرىٰ

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٣٧٤) في العيدين ، باب الخروج إلىٰ المصلىٰ بغير منبر ، وفي الحيض ، باب ترك الصوم ، وفي الزكاة ، باب الزكاة علىٰ الأقارب ، وفي الصوم ، باب الحائض تترك الصوم والصلاة ، وفي الشهادات ، باب شهادة النساء .
ومسلم رقم (٨٨٩) في العيدين في فاتحته ، والنسائي (٣/ ١٨٧) في العيدين ، باب استقبال الإمام الناس بوجهه في الخطبة .

(٢) رواه أبو داود رقم (٤٦٧٩) في السنة ، باب الدليل علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه ، وهو جزء من حديث رواه مسلم رقم (٧٩) في الإيمان ، ورواه أيضا ابن ماجه رقم (٤٠٠٣) في الفتن ، باب فتنة النساء : [جامع الأصول رقم (٤٢٤٢) و(٤٧٢٥)] .

المتأمل : مدحاً للمرأة ، لا إهانةً لها ، لكن ـ وللأسف ـ لم يُحفظ من هذه الأحاديث إلا نقصان العقل والدين!!

ومع الزمن حُذف كل شيء ـ من هذه الأحاديث ـ وحوِّر الأمر إلىٰ أن أصبح الحديث النبوي الذي تلوكه الألسن علىٰ الشكل التالي : (النساء ناقصات عقل ودين!!) .

وتبجَّح بعضهم ففسر نقصان العقل بالحماقة ، أي إن المرأة حمقاء غير عاقلة ، وفسر نقصان الدين بالمعصية ، وزاد الطين بلة فقالوا : الأنوثة ترادف الخسَّة والهوان ، ثم ربطوا كل ذلك بقصة أبي البشر آدم ـ عليه السلام ـ مع أمهم حواء ، ليستنبطوا من تلك القصة أن الذي أخرج آدم من الجنة إنما هي حواء!!!

إن النبي الأكرم ﷺ أوصىٰ ببرِّ الأم أكثر من برّ الأب ، فكيف يكون ذلك وهي ناقصة عقل ودين ؟!

والنبي ﷺ يقول : « حُبّب إليّ : الطّيبُ ، والنساء ، وجُعل قرّة عيني في الصلاة »[1] .

فكيف يقول ذلك وهنَّ ناقصات عقل ودين ؟!

هل من المعقول أن يكنَّ هذا الحب وهذا الاحترام لنقصان عقلهن ودينهنَّ ؟! أبداً ، فأولئك الناس أخذوا من الحديث جزءاً منه ، وكانوا بذلك متبعين منهج الشيطان الرجيم حينما قال : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ فظن الساذج أن المصلين سيدخلون نار جهنم!! وحذف الآيات المتعلقة بذلك ، والتي تكمل المنهج القويم ، وهي قوله تعالىٰ :

---

(١) رواه النسائي (٧/ ٦١) في عشرة النساء ، باب حب النساء ، ورواه أيضاً أحمد في المسند (٣/ ١٢٨ ، ١٩٩ ، و٢٨٥) وإسناده حسن : [جامع الأصول : رقم (٩١٣)] .

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون : ٤ـ٧] .

إنه امتداد لتذكير الجاهليين قبل الإسلام ، الذين كانوا يرون في المرأة عار وشرّ يجب التخلص منه ، فما كان منهم إلا ابتداع قضية وأد البنات!! لكن وجهة النظر الإسلامية تختلف عن ذلك تماماً ، وفي ذلك يقول الشيخ محمد الغزالي : قد يخطىء الرجل ، وكل بني آدم خطاء ، وينبغي أن تتجاوز المرأة هذا الخطأ العارض ، وربما كان الخطأ من وجهة نظرها هي . . ولكنها بدل ذلك تغضب غضباً طائشاً ، وتنسىٰ في ثورتها كل شيء ، وتزعم أنها ما رأت خيراً قط ، وقد تلعن نفسها وحظها وما حدث أو يحدث له!! أليس من حق النبي ﷺ أن يحذر من هذا المسلك ، وأن يذكر لصاحباته أنهنّ إن أصررن عليه يكنّ من أهل النار ؟ ؟

ثم يستطرد الحديث : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لُبٍّ منكن » والعبارة متصلة بالجملة قبلها ، فإن الرجل قد يستكين لامرأته والحق معه ، حتىٰ يوفر الهدوء في بيته! ويمنع اللجاجة والخصام! وقد يلغي فكره الصائب من أجل ذلك الهدف ، مما قد يدفع بالمرأة المغرورة إلىٰ مزيد من العنت!! وهذه هزيمة ذي اللب ـ كما عبر الحديث ـ أو أولي الألباب ، كما نرىٰ في مجتمعات كثيرة تنتصر فيها رغبات النساء علىٰ عزائم الرجال .

والمرأة ـ علىٰ ضعفها ـ تحب أن تغلب غيرها وتفرض نفسها! قد تقول : وما هذا الضعف ؟ والجواب في تكوينها الخِلقي ، فإنها تضحىٰ عليلة أو شبه عليلة خلال الدورة الشهرية التي تعتادها ، وتؤثر في أعصابها وأفكارها ، وقد عذرها الله من أجل ذلك ، وأعفاها من بعض الفروض .

إن نفراً من المتحدثين في الدين شاء أن يفهم من هذا الحديث أموراً

لا علاقة لها به ، فصاغ قاعدة كلية نشرها في طول الأمة وعرضها مفادها (النساء ناقصات عقل ودين) ، وسواء كانت (الـ) للجنس أو الاستغراق ، فهذه الكلية الشائعة بهذا الفهم التعميمي الصارم فاسدة ، من ناحيتي العقل والنقل ، فقد اكتملت قديماً وحديثاً نسوة أرضين الله ورسوله ، وخدمن الدين والأمة خدمات جليلة .

وهذه الكلية المزعومة تناقض الآيات القرآنية التي قررت أن النساء والرجال بعضهم من بعض ، وتناقض الأحاديث التي جعلت النساء شقائق الرجال[1]!!

إذن : القضية هي ما يقدمة الإنسان من عمل صالح ، سواءً كان رجلاً أو امرأةً ، فلا دخل للذكورة والأنوثة بذلك ، لأنه قد يسبق الرجل ، وقد يسبق المرأة ، والمهم هي النتيجة ، وهذا شعار يرفعه الإسلام ، ويُسكت به كل من يريد الطعن به :

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

٢ـ حقيقة مساواة الرجل بالمرأة :

البحث هنا طويل ومتشعب ، لكن سنختصر الحديث حول أمور ثلاثة وهي :

أ ـ المساواة في العمل الصالح وفي جزائه :

والقرآن الكريم خير دليل علىٰ ما نقول ، والآيات الصريحة كثيرة في

(١) باختصار من كتاب : صيحة تحذير من دعاة التنصير : ١٢٩ـ١٣١ .

ذلك ، منها قول الله تعالىٰ ، وهو يحدثنا عن الأصل الواحد :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء : ١] .

ثم يوضِّح القرآن حقيقة المساواة في الجزاء ، حيث الجنة أعدّت للمؤمنين والمؤمنات علىٰ السواء ، وفوق ذلك رضوان من الله تعالىٰ :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٧٢] .

ثم يؤكد القرآن هذه الحقيقة مرة أخرىٰ ، وليبين أن من عمل الصالحات فستكون نتيجته حسنة ، وستكون حياته طيبة ؛ وهذا الأمر سواء عمله ذكر أو أنثىٰ :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

ثم أورد البيان الإلهي نماذج مشتركة بين الرجل والمرأة ، وبيَّن المساواة بينهما ، وختم المشهد القرآني بالمساواة في الجزاء ، فقال الله تعالىٰ :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

وفي سورة الفتح يشرح الموضوع ـ المساواة ـ أكثر ، ليبين أن المؤمنين والمؤمنات سينالون الفوز العظيم ، مع تكفير السيئات عنهم . . .

بينما المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات سينالون الغضب واللعنة وجهنم .

﴿ لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح : ٥ـ٦] .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن المساواة في العمل الصالح وفي الجزاء .

ب ـ المساواة في الولاء والمناصرة :

يحدثنا القرآن الكريم عن المساواة في الولاء والمناصرة في مواضع كثيرة ، ليبين من خلالها أنه لا فرق بين الرجل والمرأة ، ومن ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء : ٣٢] .

ثم يبيِّن القرآن حقيقة الولاء في المجتمع المسلم ، ويؤكد علىٰ مدىٰ التلاحم بين أفراد المجتمع ، بحيث يشيع بينهم ـ أي بين أفراده ـ الأمر بالمعروف ، والنصيحة ، والأعمال الخيرية ، ثم يختم المشهد بنتيجة الرجال والنساء المسلمين فيقول تعالىٰ :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] .

ثم يحدثنا البيان الإلهي عن الفئة المؤمنة والتي استجابت لنداء الله ، واتصفت بالصفات الحسنة (كالوفاء بالعهد ، ووصل الرحم ، وخشية الله والخوف من الحساب ، والصبر ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق في سبيل الله) ، ثم تكون النتيجة جناتٍ من تحتها الأنهار ، لهم ولأزواجهم ليبيّن لنا حقيقة المساواة بين الرجل والمرأة ، فيقول الله تعالىٰ :

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ١٨ـ٢٤] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ مشهدٍ من مشاهد القيامة ، حيث الأنوار الساطعة التي تنير الدرب للمؤمنين والمؤمنات ، ثم البشارات بالفوز العظيم والرضوان ، بينما المنافقون والمنافقات يطلبون من المؤمنين والمؤمنات أن يساعدوهم علىٰ تلمس الطريق بواسطة الأنوار الإيمانية ، كل هذا ليبيِّن لنا حقيقة المساواة بين الرجل والمرأة ـ في الولاء والمناصرة والجزاء ـ فيقول تعالىٰ :

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد : ١٢ـ١٤] .

ج ـ المساواة في المعصية والعقوبة :

كما يبين القرآن الكريم حقيقة المساواة في العمل الصالح والجزاء بين المرأة والرجل ـ كذلك يؤكد حقيقة المساواة بينهما في المعصية والعقاب ، فيقول تعالىٰ :

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة : ٦٧ـ٦٨] .

ثم يؤكد مرةً أخرىٰ نتيجة الظالمين والظالمات فيقول الله تعالىٰ :

﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات : ٢٢ـ٢٤] .

وفي سورة المسد تأكيد علىٰ حقيقة المساواة بين الرجل والمرأة ، حيث أبو لهب ـ عم سيدنا محمد ﷺ ـ وزوجه أم جميل ، كانا يعذبان المصطفىٰ وأتباعه : يضعان القاذورات في طريقه ، يستهزئان به ، يتهمانه بالاتهامات الكثيرة ، فكانت النتيجة أنهما ماتا علىٰ الكفر والعناد ، وسيكون مآلهما إلىٰ جهنم وساءت مصيراً ، لقد أنزل فيهما قرآناً إلىٰ يوم القيامة :

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾

[المسد : ١ـ٥] .

الفصل الثالث

النساء نعمة أم نقمة ؟!

ضمن المنهج الإسلامي المتكامل نجد الشارع الحكيم يعتبر إنجاب البنات نعمة من نعم الله تعالىٰ ، وهذا ليس كلاماً عاطفياً يُراد به ضم أصوات النساء لحزب إسلامي يخوض انتخابات ما ، إنما هو حقيقة نلمسها في ثنايا كتاب الله تعالىٰ ، من ذلك مثلاً قوله تعالىٰ :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورىٰ : ٤٩ـ٥٠] .

إنها قضية محسومة ، فكل شيء ملك لله ، وهو الذي يخلق ما يشاء ، وبالتالي فهو الذي يتفضل وينعم ويتكرم علىٰ من يشاء بأن يهب له أولاداً إناثاً ، أو يهب له أولاداً ذكوراً ، ولقد قدّم البنات علىٰ الذكور ليدلنا علىٰ رفض الإسلام الرفض القاطع للعادات الجاهلية إذ كانوا يتضايقون عندما يُبشر أحدهم بأنثىٰ . . . !!

وفي السنة المطهرة أحاديث كثيرة تبيِّن أن إنجاب البنات نعمة من نعم الله تعالىٰ ، من ذلك ما رواه ابن ماجه والحاكم وابن حبان بالسند المتصل إلىٰ سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه أو صحبهما إلا وأدخلتاه الجنة » .

ولذلك كله اعتبر الإسلام المرأة ـ أماً أو بنتاً أو زوجةً ـ كنز من كنوز الدنيا بل أحسنها ، حيث تُساعد الرجل علىٰ تخطي مصاعب الحياة الدنيا ، وبالتالي تكون نتيجتهما جنة ورضوان ومغفرة كما في قوله تعالىٰ :

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [غافر : ٨] .

ثم يؤكد هذه الحقيقة وفي نفس السورة ، فيقول الله تعالىٰ :

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠] .

إنه الدعاء الخالد ، والذي لا يختص بالرجال وحدهم ، إنما يتساوىٰ فيه الرجال مع النساء ، كما في قول الله تعالىٰ :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤ـ٧٦] .

من هنا نفهم لماذا أوصىٰ سيدنا رسول الله ﷺ بالمرأة! ؟

لقد أوصىٰ بها وهي بنت :

فلقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت : دخلت عليّ امرأة ومعها ابنتان لها ، تسأل ، فلم تجد عندي شيئاً ، غير تمرةٍ واحدةٍ ، فأعطيتها إياها ، فقسمتها بين ابنتيها ، ولم تأكل منها ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبي ﷺ ، فأخبرته ، فقال النبي ﷺ : « من ابتُلي من هذه البنات بشيءٍ ، فأحسن إليهنّ ، كنّ له ستراً من النار »[1] .

---

(١) رواه البخاري : ٤/٢٦ في الزكاة ، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة ، وأخرجه مسلم=

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من عال جاريتين حتىٰ تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو ، وضمَّ أصابعه »[(١)] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان له ثلاث بناتٍ ، أو ثلاث أخواتٍ ، أو بنتان ، أو أختان ، فأحسن صُحبتهنّ ، واتقىٰ الله فيهن ، فله الجنة »[(٢)] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له أنثىٰ ، فلم يئدها ولم يُهنها ، ولم يُؤثر ولده ، يعني : الذكور عليها ، أدخله الله الجنة »[(٣)] .

كل هذا جاء من توجيهات القرآن الكريم ، حيث فضح نظرة الجاهليين إلىٰ البنات ، وذلك بقوله تعالىٰ :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٧ـ٥٩] .

ثم كرر الأمر مرةً أخرىٰ ، ليبين هذه الجريمة البشعة ، وهي وأد البنات ، فيقول الله تعالىٰ :

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : ٨ـ٩] .

= رقم (٢٦٢٩) في البر والصلة ، باب فضل الإحسان إلىٰ البنات ، والترمذي رقم (١٩١٦) في البر والصلة ، باب ما جاء في النفقة علىٰ البنات .

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٣١) في البر والصلة ، باب فضل الإحسان إلىٰ البنات ، والترمذي (١٩١٧) في البر والصلة ، باب النفقة علىٰ البنات .

(٢) رواه أبو داود رقم (٥١٤٧) في الأدب ، والترمذي رقم (١٩١٣) في البر والصلة ، والبخاري في الأدب المفرد : ١/ ١٦٢ ، وابن حبان في صحيحه رقم (٢٠٤٤) .

(٣) رواه أبو داود رقم (٥١٤٦) في الأدب ، باب فضل من عال يتيماً : [جامع الأصول : ١/ ٤١١] .

وأوصىٰ الإسلام بالمرأة زوجة :

كما روت السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت : قال النبي ﷺ : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهله ، وإذا مات صاحبكم فدَعُوهُ »[1] .

حتىٰ في آخر حياته ـ صلوات الله عليه ـ وذلك في موقف جامع حاسم ، إنها حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة ، حيث اجتمعت ألوف كثيرة من المسلمين يوم عرفة ليقف رسول الله ﷺ بينهم ، ليبيّن لهم الخطوط العريضة ، والمنهج القويم و . . . فكان مما قاله عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الله في النساء ، فإنكم إنما أخذتموهنّ بأمان الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله ، إن لكم عليهنّ حقاً ولهنّ عليكم حقاً : لكم عليهنّ أن لا يوطِئْن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضرباً غير مبرِّح ، ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف »[2] .

إنه سيد الخلائق ﷺ يعلم الأجيال إلىٰ قيام الساعة ، أنه لا نظام وضعي ، ولا قانون أرضي ، ولا نظريات جوفاء ، ولا شعارات برّاقة ، ولا . . . ولا أي شيء آخر يعطي المرأة حقها مثل دين الإسلام ، ها هو يقول عن زوجاته رضوان الله ﷺ ، كما يروي أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول : قال رسول الله ﷺ : « حسبك من نساء العالمين : مريم بنت

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣٨٩٢) في المناقب ، باب في فضل أزواج النبي ﷺ ، وأخرجه الدارمي : ٢٩٢ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، ومعنىٰ (فدعوه) أي : اتركوا ذكر مساوئه : [جامع الأصول : ١/ ٤١٧] .

(٢) خطبة الوداع من رواية سيدنا جابر في صحيح مسلم : ٤/ ٣٧ ، وللتوسع في ذلك يراجع فتح الباري : ٨/ ٧٤ .

عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ ، وآسية امرأة فرعون »[1] .

وكما في رواية أنس أيضاً أن النبي ﷺ قال : « فضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام »[2] .

وهو القائل في زوجه صفية بنت حيي رضي الله عنها حينما عيرتها بعض النساء ، بأنها يهودية ابنة يهودي :

روىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بلغ صفية أن حفصة قالت : بنت يهودي ، فبكت ، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي ، فقال : « ما يبكيك ؟ » قالت : قالت لي حفصة : أنت ابنة يهودي ، فقال النبي ﷺ : « إنك لابنة نبي ، وإن عمك لنبي ، وإنك لتحت نبي ، فبم تفخر عليك ؟ ثم اتق الله يا حفصة »[3] .

وأوصىٰ الإسلام بالمرأة أماً :

كما في قول الله تعالىٰ :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان : ١٤] .

وكما في قوله تعالىٰ أيضاً :

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣٨٨٨) في المناقب ، باب مناقب خديجة أم المؤمنين ، ورواه أيضاً أحمد في المسند ، وابن حبان رقم (٢٢٢٢) ، والحاكم ٣/ ١٥٧ ، وصححه ووافقه الذهبي ، وقال الترمذي : هذا حديث صحيح .

(٢) رواه البخاري ٧/ ٧٣ ، والترمذي رقم (٣٨٨١) ، والترمذي ٧/ ٦٨ ، ومسلم رقم (٢٤٤٦) : [جامع الأصول : ٩/ ١٣٤] .

(٣) رواه الترمذي رقم(٣٨٩١) في المناقب ، باب مناقب أزواج النبي ﷺ ، ورواه أحمد في المسند رقم ٣/ ١٣٦ وإسناده صحيح : [جامع الأصول : ٩/ ١٤٤] .

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣-٢٤] .

وعندما جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فسأله : من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ قال : « أمك » ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك ، ثم أدناك فأدناك »[1] .

* * *

(١) حديث متفق عليه ، وللتوسع في الحديث عن فضل الأم يراجع كتاب الأخلاق الإسلامية : ١/ ١٤٠-١٦٢ للمؤلف .

الفصل الرابع

شيئاً من حقوق المرأة في الإسلام

الحديث عن هذا الموضوع واسع ومتشعِّب ، ولقد كُتبت فيه كتب ومجلدات ، لكن ما يهمنا هو استعراض بعض تلك الحقوق علىٰ سبيل الذكر لا الحصر :

١ ـ هنالك حقوق إنسانية ـ عامة :

حيث جعلت الشريعة الإسلامية الرجل والمرأة علىٰ السواء فيها ، وأهمها :

١ ـ حق الحياة : بحيث وُضعت ضوابط وحدود ترعىٰ حق حياة الرجل والمرأة ، ولا نرىٰ تمايزاً في هذا الأمر ، مثال ذلك القصاص لمن قتل عمداً سواءً كان المقتول امرأة أو رجلاً ، بل ذهب الفقهاء إلىٰ القول : أن من قتل نفساً ـ أي نفسٍ ـ حتىٰ لو كانت بنتاً ، وحتىٰ لو وأد ابنته الصغيرة ، فعليه القصاص ، أي يُقتل الأب إذا قتل ابنته تحت أي تبرير لذلك[1]!!

٢ ـ حق الحرية : والمقصود بذلك حرية التفكير ، والحرية السياسية ، والحرية الدينية ، وحرية العمل و. . . ، وبحيث يحق للمرأة كما للرجل أن تدخل في مجلس الشورىٰ ، وأن تدلي برأيها في المشاكل الكبيرة ،

---

(١) للتوسع يراجع : أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي ١/ ٦٤ .

ولها الحق في أن تشترك في تسيير شؤون الدولة ، بل لها الحق في أن تراقب سير الأمور ، وأن تنتقد. . . !!

بل وذهب السادة الأحناف ـ كما سنفصل أكثر فيما بعد ـ إلىٰ أن المرأة لها أن تتولىٰ القضاء في كل ما يجوز لها أن تشهد فيه(١)!!

ولو تزوج مسلم كتابية وبقيت علىٰ دينها ، فعلىٰ المسلم أن يعطيها حرية ممارسة شعائر دينها ، ولا يحق له أن يكرهها علىٰ الدخول في الإسلام(٢)!!

٣ـ حق الأهلية : أي ممارسة الشؤون المدنية ، كالعقود التجارية ، والوكالة والتوكيل ، وبالتالي فلها ـ كما للرجل ـ حق ممارسة البيع والشراء ، ورفع الدعاوي ، وإبرام العقود وفسخها .

٢ـ هنالك حقوق للمرأة قبل الزواج :

وضع الإسلام حقوقاً للمرأة ، وحذَّر من أن يتعداها الرجال ، وجعل هذه الحقوق خالصةً لها ، وسنستعرض ـ وباختصار ـ أهم هذه الحقوق :

١ـ للمرأة الحق في المطالبة بالزواج : أي إن شعرت الفتاة بالحاجة إلىٰ إحصان نفسها ، فلها الحق الكامل في الزواج ، وليس أدل علىٰ ذلك مما فعلته السيدة خديجة رضي الله عنها حينما طلبت الزواج من سيدنا رسول الله ﷺ . وقد يعتبر هذا الأمر شيئاً عجيباً في مجتمعاتنا ، لكنه الحق الذي أعطاها إياه الإسلام ، ضمن منهج إلهي يعلم حقيقة النفوس وما تخفيه .

---

(١) بدائع الصنائع للكاساني : ٧/ ٥ .

(٢) للتوسع في ذلك يراجع كتب الفقه المعتمدة .

٢ـ للمرأة الحق في أن تطلب من وليِّها البحث لها عن زوج : بحيث عليه أن يعرض فتاته علىٰ الكفء ، وليس في ذلك إهانة لها ، بل علىٰ العكس تماماً ، والتاريخ الإسلامي الناصع خير دليلٍ علىٰ ما نقول :

ها هو الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ يعرض ابنته حفصة علىٰ الصدِّيق أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ثم يعرضها علىٰ عثمان ، ـ رضي الله عنه ـ ولما لم يجد منهما جواباً غضب ، واشتكىٰ إلىٰ سيدنا رسول الله ﷺ ، وكانت النتيجة أن أصبحت حفصة أماً للمؤمنين عندما تزوجها رسول الله ﷺ[1] .

وسيدنا علي بن أبي طالب عرض عمارة بنت حمزة رضي الله عنهم جميعاً علىٰ سيدنا رسول الله ﷺ ، فكان الجواب من النبي : « إنها ابنة أخي من الرضاعة »[2] .

وهذا الأمر هو منهج الأنبياء من قبل ، فهذا سيدنا موسىٰ بعد أن سقىٰ أغنام الفتاتين الماء ، جاءته إحداهما تخبره أن والدها يريده ، فذهب إلىٰ والدها ، فعرض عليه نبي الله شعيب أن يتزوج ابنته علىٰ مهر قدره : أن يعمل سيدنا موسىٰ عنده مدة ثمانية أعوام[3]!!

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ

---

(١) فتح الباري : ٩/ ١٧٤ .
(٢) فتح الباري : ٩/ ١٧٨ .
(٣) للتوسع في هذه القصة يراجع : الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٤٠٥ ، وتفسير الطبري : ٢٠/ ٦٥ ، وصحيح البخاري رقم (٢٦٨٤) ، والهيتمي في مجمع الزوائد : ٧/ ٨٨ ، وقصص الأنبياء لابن كثير : ٣١٦ـ٣٢٣ .

أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص : ٢٣ـ٢٨] .

٣ـ للمرأة الحق في أن تبحث هي ، أو أن تطلب من وليِّها التحري عن أخلاق من أتاها ليخطبها ؛ ذلك لأنها هي التي ستعيش مع هذا الرجل ؛ فإن كانت أخلاقه حسنة عاشت معه العيشة الحسنة الهادئة ، وإلا حوّل حياتها إلىٰ جحيم لا يُطاق ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ﴾

[البقرة : ٢٢١] .

٤ـ للمرأة الحق في أن تُستأذن وأن تُعلم بالزواج : وهذا منهج دقيق يُحسب فيه للأمور المستقبلية كل حساب ، وفي ذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « لا تنكح المرأة حتىٰ تُستأمر ولا تنكح حتىٰ تُستأذن » قالوا : وكيف إذنها ؟ قال : « تسكت »(١) .

وأما الفتاة البالغة التي وليُّها غير الأب فلها الحق الكامل في الموافقة

---

(١) انظر تفصيل ذلك في البخاري مع فتح الباري : ٩/ ٣١٩١ ، ومسلم مع شرح الإمام النووي : ٩/ ٢٠٢ـ٢٠٧ ، وعلىٰ هذا رأي ابن حزم في المحلّىٰ : ٩/ ٥٦٠ ، وقال ابن قدامة المقدسي : وهو قول أحمد بن حنبل في إحدىٰ روايتيه ، والأوزاعي ، والثوري ، وأبي عبيد ، وأبي ثور : (المغني : ٧/ ٤٠) .

أو عدم الموافقة ، كما في قول سيدنا رسول الله ﷺ : « لا تنكح اليتيمة إلا بإذنها »[1] وفي رواية أخرىٰ : « إن الأيّم أولىٰ بنفسها ، واليتيمة تُستأمر في نفسها وإذنها صماتها »[2] .

٥ـ للمرأة الحق في تزويج نفسها ، ولا يحق لوليّها الاعتراض علىٰ ذلك إلا إذا كان الزوج غير كفء ، وهذا الحق لم تصل إليه المرأة في الغرب ولا الشرق ولا حتىٰ في حضارة القرن العشرين ، وذلك لأن الشريعة الإسلامية جاءت لكل الظروف والأحوال والأزمان والأمكنة ؛ لأنها من عند اللطيف الخبير ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وتفصيل ذلك في كتب الفقه الحنفي ، من ذلك قولهم :

إذا زوجت البالغة العاقلة نفسها من كفء ، كان الزواج لازماً ، وليس لوليّها حق الاعتراض وطلب الفسخ ، فإن زوجت نفسها من غير كفء ، كان لوليّها العاصب حق الاعتراض[3] .

وقد زوَّجت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ المنذر بن الزبير من حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ـ وهو أخ لعائشة ـ وكان والدها غائباً في الشام ، وهذا دليل آخر علىٰ حق المرأة في تزويج نفسها أو تزويج غيرها ، أي كالرجل تماماً .

٦ـ للمرأة الحق في أن تشترط أموراً ترىٰ من خلالها منفعةً لها : وقد تحدث الفقهاء بالتفصيل عن ذلك كله ، كأن لا تسافر من بلدها ، وأن

---

(١) رواه الإمام أحمد ، والدارقطني : [نيل الأوطار للشوكاني : ٦/ ١٣٩] .
(٢) رواه الإمام النسائي في سننه : ٦/ ٨٥ .
(٣) للتوسع في رأي السادة الأحناف يراجع : المبسوط للسرخسي ٥/ ١٩٦ ، وفتح القدير : ٢/ ٣٩٣ ، وبدائع الصنائع للكاساني : ٢/ ٣١٧ ، والدر المحتار ورد المختار لابن عابدين : ٢/ ٤٣٦ .

لا يتزوج عليها ، وأن تزور أهلها كل يومين مثلاً[1] .

٧ـ للمرأة الحق في أن تشترط علىٰ زوجها بأن تكون العصمة بيدها : أي أن يكون أمرها بيدها[2] !!

٣ـ هنالك حقوق للمرأة حال قيام الزوجية :

تحدث الفقهاء كثيراً عن حقوقها أثناء قيام الزوجية ، لكن سنختصر ذلك بعدة نقاط فقط :

١ ـ الصّداق ـ المهر ـ :

ودليله الله تعالىٰ :

﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ ﴾ [النساء : ٤] .

وقوله : ﴿ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗ ﴾ [النساء : ٢٤] .

وقول سيدنا رسول الله ﷺ : « التمس ولو خاتماً من حديد »[3] .

وترك الشارع الحكيم مقدار المهر بدون تحديد ـ أي حسب العرف والوضع المادي للزوج ـ والدليل علىٰ ذلك الحادثة التي جرت في زمن الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ حيث غالىٰ الناس في المهور ، فأراد الفاروق عمر أن يحدد المهور ، فصعد المنبر وقال : لا تُغلوا في صداق النساء ، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوىٰ في الآخرة ، كان أولاكم

---

(١) المغني لابن قدامة : ٩/ ٩٣ ، والمحلّىٰ لابن حزم : ٩/ ٦٣١ .

(٢) وهذا رأي الإمام مالك ، وابن حنبل ، ولتفصيل ذلك يراجع فتاوي الإمام ابن تيمية : ٣٢/ ١٧٠ .

(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد : [نيل الأوطار : ٦/ ١٧٠] .

بها رسول الله ﷺ ، وما أصدق قط امرأة من نسائه ولا بناته فوق اثنتي عشر أوقية ـ من الفضة ـ فمن زاد على أربعمائه شيئاً ، جعلت الزيادة في بيت المال ، فقالت له امرأة من قريش بعد نزوله من علىٰ المنبر : ليس ذلك إليك يا عمر ، فقال : ولم ؟ قالت : لأن الله تعالىٰ يقول :

﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ٢٠] .

فقال عمر رضي الله عنه : امرأة أصابت ، ورجل خطأ ، وفي رواية أخرىٰ : اللهم اغفر ، كل الناس أفقه من عمر ! !

ثم صعد المنبر فقال : أيها الناس ، إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن علىٰ أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يُعطي من ماله ما أحبّ[1] .

والمهم في الأمر أن الشريعة الإسلامية شدَّدت علىٰ الرجل في ذلك ، بحيث يجب عليه أن يوفِّيها مهرها كاملاً غير منقوص ، ودليل ذلك أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ ، من ذلك ما رواه أبو هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « حب الأنصار إيمان وبغضهم كفر ، وأيما رجل تزوج امرأة علىٰ صداق ولا يريد أن يعطيها فهو زانٍ »[2] .

وكذلك قوله ﷺ : « أيما رجل تزوج امرأة علىٰ ما قلّ أو كثر ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهو زانٍ »[3] .

وقوله : « من أصدق امرأة صداقاً والله يعلم أنه لا يريد أداءه إليها

---

(١) المجموع للإمام النووي : ١٥/ ٤٨٢ ، مجمع الزوائد للهيثمي : ٤/ ٢٨٣ .
(٢) أخرجه البيهقي : ٧/ ٢٤١ .
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير .

فغرّها بالله واستحلّ فرجها بالباطل لقي الله عز وجل يوم القيامة وهو زانٍ »[1] .

ولموضوع حق المرأة في الصّداق تفصيلات كثيرة ذكرها الفقهاء[2] .

٢ـ الإنفاق عليها بالمعروف :

وهذا الأمر نجده بشكل صريح في السنة المطهرة ، وبالقرآن الكريم ، من ذلك مثلاً : ما رواه عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « كفىٰ بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت »[3] .

وما رواه ابن حبان بالسند المتصل إلىٰ رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله سائل كل راعٍ عما استرعاه حفظ أم ضيّع ، حتىٰ يسأل الرجل عن أهل بيته »

وقال أيضاً : « إذا أنفق الرجل علىٰ أهله يحتسبها فهو له صدقة »[4] .

وقال صلوات الله عليه ـ أيضاً : « إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتىٰ ما تجعل في فيّ امرأتك »[5] .

وقال أيضاً : « كلكم راع وكلكم مسؤول ، فالإمام راع وهو مسؤول ، والرجل راعٍ علىٰ أهله وهو مسؤول ، والمرأة راعية علىٰ بيت زوجها وهي مسؤولة ، والعبد راعٍ علىٰ مال سيده وهو مسؤول ، ألا

---

(١) أخرجه البيهقي : ٧/ ٢٤٣ .
(٢) بدائع الصنائع : ٢/ ٣٠٥ ، الدر المختار ورد المحتار : ٢/ ٤٣ ، فتح القدير : ٢/ ٤٢٤ ، الشرح الكبير : ٢/ ٢٤٩ ، المغني : ٦/ ٤٨٢ ، مغني المحتاج : ٣/ ١٦٤ ، بداية المجتهد : ٢/ ٢٦ ، أحكام القرآن للجصاص : ٢/ ١٤٣ .
(٣) رواه أبو داود رقم (١٦٩٢) .
(٤) رواه البخاري رقم (٥٥) ، ورواه مسلم رقم (١٠٠٢) .
(٥) رواه البخاري رقم(٥٦) ، ورواه مسلم رقم (١٦٢٨) .

فكلكم راعٍ وهو مسؤول »[١] .

ولنصغ إلىٰ بيان الله تعالىٰ وهو يحدد هذا الأمر ويؤكد عليه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

ثم يفصّل الأمر أكثر ، فيقول الله تعالىٰ :

﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴾ [الطلاق : ٧] .

وقد فصّل الفقهاء ما تشمله النفقة علىٰ الزوجة بما يلي :

أ ـ الطعام : بحيث قُدِّر بالكفاية ، أي بما يكفيها من الطعام ونحوه ، والميزان هنا هو حال الزوج ، فإن كان موسراً فعليه الإنفاق أكثر مما لو كان معسراً ، والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ (الآية السابقة في سورة الطلاق) .

ب ـ الكسوة : وذلك حسب العرف السائد وحسب وضع الزوج من الناحية المالية .

ج ـ المسكن : سواءً كان ملكاً أو إيجاراً ، وهذا أيضاً خاضع للوضع المالي ، كما في قول الله تعالىٰ :

﴿ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ ﴾ [الطلاق : ٦] .

وللحديث عن النفقة وأحكامها تفصيلات كثيرة تراجع في كتب الفقه المعتمدة[٢] .

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٨٩٢) .

(٢) ومنها الفقه الإسلامي وأدلته لأستاذنا الدكتور وهبة الزحيلي : ٧/ ٨٠٤ .

٣ـ **معاشرتها بالمعروف** :

ويدخل في ذلك : أن يغار عليها الزوج ـ ضمن منهج معتدل ـ ودليل ذلك قول سيدنا رسول الله ﷺ : « إن من الغيرة غيرة يبغضها الله ، وهي غيرة الرجل علىٰ أهله من غير ريبة »(١) .

ويدخل في ذلك أيضاً : أن يحتمل الأذىٰ منها ، وأن يتغاضىٰ عن بعض أخطائها وهفواتها ، كما في قول الله تعالىٰ :

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ [النساء : ١٩] .

ويدخل في ذلك أيضاً أن يمازحها الزوج ويداعبها ، كما أوصىٰ بذلك سيدنا رسول الله ﷺ بقوله : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله »(٢) .

وأن يكون حسن الخلق معها : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهنّ خُلقن من ضلع ، وإنَّ أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً »(٣) .

وأن يكون كاتماً لسرها ، فلا يفشيه بين الناس ، لأنه بذلك ينتهك أمراً حرمه الله ورسوله : « إن من شرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة ، الرجل يفضي إلىٰ امرأته وتفضي إليه ، ثم ينشر أحدهما سرّ صاحبه »(٤) .

---

(١) رواه أبو داود ، والنسائي .
(٢) رواه الترمذي ، وأبو داود ، عن أبي هريرة .
(٣) رواه البخاري برقم(٢٨٩٠) .
(٤) رواه مسلم ، وأبو داود .

٤ـ لها الحق في موضوع العزل :

وعرَّف الفقهاء العزل : بأنه إلقاء منِّي الرجل خارج رحم المرأة ، وهذا الأمر جائز عند المذاهب الأربعة ، لكن بشرط أن يكون العزل بإذن الزوجة ، لما روي عن سيدنا عمر أنه قال : نهىٰ رسول الله ﷺ أن يُعزل عن الحرة إلا بإذنها[١] .

٥ـ العدل بين النسوة في المبيت :

فمن كان له امرأتان أو أكثر ، فيجب عليه العدل بينهن ، والقسم لهن ، فيجعل لكل واحدة منهن يوماً وليلة ، وذلك طبقاً لما روته سيدتنا عائشة : كان رسول الله ﷺ يقسم لكل امرأة يومها وليلتها[٢] .

٤ ـ هنالك حقوق للمرأة وهي أم :

بعد أن تتزوج الفتاة وتنتقل إلىٰ بيت زوجها ، فإن كان الله قد كتب لهما أن يُنجبان ولداً ، تحولت هذه الفتاة إلىٰ أم ، وهنا وضعت لها الشريعة بعض الحقوق التي تتعلق بالرضاعة ونحوه .

فكفاية الطفل ورعايته ، وأهمها في المرحلة الأولىٰ إرضاعه ، كل ذلك يكون علىٰ نفقة أبيه ، ولا دخل للمرأة في ذلك ! !

حتىٰ لو رفضت الأم إرضاع طفلها ، فعلىٰ الأب استئجار مرضعة لترضعه ! ! بل لو طلبت الأم من زوجها أن يدفع لها ثمن الرضاعة ـ ثمن الحليب ـ لكان لها ذلك ! !

ولو تطوعت الأم فأرضعت ابنها دون أجرة ، فلها الأجر عند الله ،

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع الفقه الإسلامي وأدلته : ٧/ ٣٣١ .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد .

والثناء لدى المجتمع ، ولا يستطيع أحد إلزامها بذلك!!

وهذا الكلام ليس من باب استمالة قلوب النساء.. إنما دستور أنزله الله تعالى منذ خمسة عشر قرناً ، يقول الله فيه :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(1) .

أضف إلى ذلك أن الشريعة الغرَّاء لم تُلزم المرأة خدمة أولادها ، بينما ألزمت الأب بأن يقوم بتدبيرهم ، سواء عن طريق اتخاذ خادمة أو داية أو... وسواء عن طريق مراضاة زوجته بذلك...!!

ومع كل ذلك فقد ركَّز الإسلام على وجوب احترام الأم وتقديرها والعناية بها ، وهذا ما نلمسه واضحاً في كتاب الله تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان : ١٤-١٥] .

إنه بعد أن أجمل الوصية بالوالدين ، أفرد الأم بالذكر ، وبيَّن ما تقاسيه من ضعف على ضعف ، ومن متاعب وآلام أثناء الحمل

---

(١) سورة البقرة : /٢٣٣/ وللتفصيل الفقهي عن ذلك يراجع : أحكام القرآن للجصاص : ١/٤٠٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي ١/٢٠٦ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١/٢٨٤ ، وبدائع الصنائع للكاساني : ٤/٤١ ، ومغني المحتاج : ٣/٤٥٠ ، وفتح القدير : ٣/٣٤٧ ، والدر المختار وحاشية ابن عابدين : ٢/٩٣٠ .

والوضع ، بل وحتىٰ في فترة الفطام . . . كل ذلك ليتذكر الولد دائماً وأبداً ما للأم من حقوق في ذمته ، وأن لا يصير إلىٰ ما صار إليه بعض الناس ، حيث أصبح الرجل شاباً مفتول العضلات ، مالكاً ـ ظاهراً ـ البيوت والسيارات ، لابساً أفخر الألبسة المستودرة من هنا وهناك ، لا يذكر أمه إلا وقت أن يتصل به أخوه ليبلغه أن وقت إقامة أمه عنده قد انتهىٰ ! !

إنهم اتفقوا ـ الأولاد ـ فيما بينهم علىٰ تقاسم إقامة أمهم ، بحيث تُحمل ـ وهي العجوز ـ من بيت ابن إلىٰ بيت الآخر ، كلٌّ منهم عليه أن يتحمّلها شهراً واحداً ، وتعيش تلك المسكينة تحت نظرات زوج ولدها ، و . . . و . . . وتتمنىٰ لو أن ملك الموت أخذ روحها وخلَّصها من هذه العيشة البائسة ! !

هذا الأمر مكرر نراه حيناً ، ونسمع عنه حيناً آخر ، وهو ليس من الإسلام في شيء ، ذلك لأن نبي الإسلام ﷺ قال حينما سأله رجل : ما حق الوالدين علىٰ ولدهما يا رسول الله ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : « هما جنتاك ، ونارك »(١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « رضىٰ الرب في رضىٰ الوالد ، وسخط الرب في سخط الوالد »(٢) ويشمل (الوالد) : الأب والأم .

وقد ورد في الأثر : أن سيدنا موسىٰ كلمه الله بثلاثة آلاف وخمسمائة كلمة ، وكان آخر كلامه ، يا رب أوصني ، قال : أوصيك بأمك حسناً ، قالها سبع مرات ، فقال موسىٰ : حسبي ، ثم قال الله تعالىٰ : يا موسىٰ ، ألا إن رضاها رضاي ، وسخطها سخطي . . .

---

(١) رواه ابن ماجه ، ويُقصد بذلك أن الوالدين إن أرضاهما الإنسان دخل بذلك الجنة ، وإن أغضبهما دخل بذلك النار .

(٢) رواه الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

٥ ـ هنالك حقوق للمرأة وهي مطلقة :

وضعت الشريعة قائمة من الحقوق لتحفظ من خلالها كرامة المرأة المطلقة ، وسنشير إليها إشارات سريعة فقط ، من ذلك :

لها الحق في النفقة أثناء العدة ، ويكلف بذلك الزوج .

ولها الحق في أن تأخذ أجرة الرضاع لولدها ، لأن العلاقة بينها وبين الزوج قد انتهت ، كما في قوله تعالىٰ :

﴿فإن أرضعن﴾ أي المطلقات ﴿لكم﴾ أي لأولادكم منهن ﴿فآتوهن أجورهن﴾ أي أعطوهم أجرة الإرضاع .

ولها الحق في أن يسرحها الزوج بإحسان ، وهذا من حفظ الكرامة لها ، بحيث لا يجوز للرجل أن يأخذ من أمتعتها شيء ، بل الواجب عليه أن يعطيها كامل متاعها ، وذهب الإسلام في ذلك إلىٰ حد أبعد ، فاعتبر الرجل ظالماً إن أشاع علىٰ زوجته أمراً يريد من خلاله الإساءة لها ، مما ينفر الآخرين من التقدُّم للزواج منها .

ولها الحق الكامل في مؤخر صداقها ـ أي المهر المؤجل ـ ، ويعتبر الزوج آثماً إن ماطل في ذلك ، أو رفضت إعطاءهاأو خادع أو. . . ، وذلك انطلاقاً من قوله تعالىٰ :

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

ولها الحق في أن تعتدّ عدة الطلاق في بيت زوجها ، مع وجوب النفقة علىٰ الرجل ، وليس له أن يخرجها من البيت ، بل هو الذي يجب أن يخرج من البيت!!

وهذا مستنبط من بيان الله تعالىٰ :

﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ ﴾ [الطلاق : ١] .

وعدة الطلاق للمرأة التي تحيض : ثلاثة أشهر ، وكذلك عدة الصغيرة التي لم تصل إلىٰ سن الحيض بعد ، وكذلك المرأة التي لا تحيض لكبر سنها ـ سن اليأس ـ وذلك لقوله تعالىٰ :

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ ﴾ [الطلاق : ٤] .

وأما المرأة الحامل فعدتها تتم بوضع الحمل ، ودليل ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ ﴾ [الطلاق : ٤] .

وللمطلقة الحق والحرية الكاملة في الزواج بمن ترضاه ، لكن بشرط انتهاء عدتها .

ولا يحق للزوج أن يمسكها ضراراً ، وإلا اعتبر الإسلام ذلك ظلماً كبيراً ، وذلك من خلال قوله تعالىٰ :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٣١] .

إنه تخيير للرجل ، بين أن يعيدها إليه ، أو يسرحها بإحسان ومعروف ، ومن أبىٰ ذلك فقد ارتكب ظلماً يعرض نفسه من خلاله لعقاب الله .

ثم يأتي السياق القرآني بعد ذلك ليفصل موضوع زواجها من رجل آخر ، فيقول تعالىٰ :

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] [البقرة : ٢٣٢] .

إنها سياسة الشريعة بالقضاء علىٰ كل العادات الظالمة ، التي كانت منتشرة بين العرب في الجاهلية ، ومنها الضرار والعضل ، فهدد البيان الإلهي تارة ، وتوعد أخرىٰ ، ليحفظ الكرامة للمطلقة ، ولتصل إلىٰ حقوقها ولو كانت مطلقة .

ولها الحق ـ كمطلقة ـ أن تحتفظ بولدها لترضعه ، إن اختارت هي ذلك ، ومن ثمَّ تقوم بحضانته ورعايته ، ولا يجوز للرجل أن يأخذ حقها في ذلك ، ومن ثمَّ ينتزع الطفل فيها بحجة ما ، أما إن اختارت ـ هي ـ ترك طفلها ، أجبر الأب علىٰ إيجاد حلٍّ لهذه المشكلة ، سواء بإقناعها أن ترضعه وتأخذ الأجر علىٰ ذلك ، وسواء عن طريق أن يأتي للطفل بمرضعة أخرىٰ !

٦ـ هناك حقوق تختص بالمرأة المتوفىٰ عنها زوجها :

ضمن منهج الإسلام الحكيم في إعطاء المرأة الحق الكامل ، وضعت الشريعة حقوقاً تحفظ للمرأة كرامتها ، ومن ذلك :

أن تقضي المرأة مدة العدة في مكان محترم ، يتأمن فيه كل حاجياتها ، والأفضل أن يكون في بيت زوجها ، والحكمة من كون مدة العدة هنا ـ أربعة أشهر وعشرة أيام ـ التثبت من وجود الحمل أو عدمه ، وذلك كما في قوله تعالىٰ :

---

(١) ولبيان ما تهدف إليه هاتان الآيتان يراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٠٨/٣ ، وفي ظلال القرآن : المجلد الأول : ٢٣٢ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة : ٢٣٤] .

فإن علمت أنها حامل ، تنتظر حتىٰ تضع حملها ، وبهذا تتم عدتها ، وذلك لقوله تعالىٰ :

﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٤] .

وبعد أن تتم عدتها ، لها الحق الكامل في أن تتحلل من الحداد علىٰ زجها ، بحيث تستطيع أن تلبس ما تشاء ، وتتزين ، وتخرج من بيت زوجها ـ الذي كانت معتدة فيه ـ ويحق لها الزواج برجل آخر .

ولا يجوز لأولاد زوجها ، أو لأحد من أقاربه أن يمنعها من الزواج ، فهو حق شرعي كامل لها ، وهذا مستنبط من قول قوله الله تعالىٰ :

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٣٤ـ٢٣٥] .

كل هذا الذي ذكرناه ليس جميع حقوقها ، إنما هو شيء مختصر عن حقوق المرأة في الإسلام ، ومن أراد التوسع فعليه بكتب التفاسير والحديث والفقه ففيها الزاد الكامل لمن أراد .

ولا يفوتنا أن نذكر ، أن الإسلام كما جعل للمرأة حقوقاً ، وضع عليها واجبات أيضاً ، ولا مجال لذكرها كاملةً هنا وشرحها ، ـ فالأمر بحاجة إلىٰ وقفات مطولة ـ لكن سأذكر أهم الواجبات التي تجب علىٰ المرأة :

ـ **الطاعة بالمعروف** : فعلىٰ المرأة أن تطيع زوجها ـ شريطة أن

لا يخالف ذلك أمراً إلهياً ، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك ، منها ما قاله سيدنا رسول الله ﷺ : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة »[1] ومنها قوله صلوات الله عليه : « لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن في بيته »[2] ومنها قوله : « إذا دعا الرجل امرأته إلىٰ فراشه فلم تأت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتىٰ تصبح »[3] .

ـ **التجمل والتزيّن** : ضمن الحدود والآداب التي وُضعت في الشريعة الإسلامية .

ـ **الرعاية التامة** : كأن تحفظ ماله ، وتحسن تربية أولاده ، وذلك كما في قوله ﷺ : « ما استفاد المؤمن بعد تقوىٰ الله عز وجل خيراً له من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرّته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله »[4] .

ـ **القناعة** : وذلك في المسكن والملبس والمأكل ، فلا تطالبه بأمور لا يستطيع أداءها ، لأنها إن فعلت ذلك دفعته إلىٰ الحرام .

* * *

---

(١) رواه الترمذي ، وابن ماجه .

(٢) حديث متفق عليه .

(٣) حديث متفق عليه .

(٤) حديث متفق عليه .

الباب الرابع

المرأة في محراب العبودية لله

الفصل الأول

مدخل إلى مفهوم العبودية

قال الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في تعريف وبيان معنىٰ العبودية :

العبادة : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة .

فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبرُّ الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان للجار واليتيم ، والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء والذكر والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك هي من العبادات لله .

وذلك أن العبادة هي الغاية المحبوبة له ، والمرضية له ، التي خلق الخلق لها ، كما قال تعالىٰ :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوح ـ عليه السلام ـ لقومه :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

وكما في قوله تعالىٰ :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ [النحل : ٣٦] .

وجعل ذلك لازماً لرسوله ﷺ إلىٰ الموت ، كما قال :

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] .

وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه ، فقال تعالىٰ :

﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٩ـ٢٠] .

وذمّ المستكبرين عنها ـ أي عن العبادة ـ بقوله :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

ولما قال الشيطان :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩ـ٤٠] .

قال الله تعالىٰ :

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر : ٤١ـ٤٢] .

وقال تعالىٰ ، وهو يعمّم العبودية علىٰ جميع مخلوقاته :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم : ٨٨-٩٥] .

وقال تعالىٰ عن المسيح ـ عليه السلام ـ الذي ادعيت فيه الإلهية والبنوّة :

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾ [الزخرف : ٥٩] .

وقد نعت الله تعالىٰ نبيه محمداً ﷺ بالعبودية في أكمل أحواله ، فقال تعالىٰ :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء : ١] .

وقال في الإيحاء :

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم : ١٠] .

وقال في الدعوة :

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن : ١٩] .

وقال في التحدي :

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة : ٢٣] .

إذن :

فدين الله : عبادته وطاعته والخضوع له .

وبالتالي ، فكل من استكبر عن عبادة الله ، لا بد أن يعبد غيره ، ويذل له .

وإذا كان عبداً لغير الله كان لا بد مشركاً ، وكل مستكبر فهو مشرك ، لهذا كان فرعون أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله ، وكان مشركاً ، قال تعالىٰ :

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص : ٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٢٣ـ٣٥] .

وقال تعالىٰ في اليهود :

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧] .

وقال تعالىٰ في النصارىٰ :

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

وقال تعالىٰ :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

ولم تفرّق الشريعة الإسلامية بين الرجل والمرأة في مجال العبودية ، ولم تنظر إلىٰ الرجل علىٰ أنه الشخص الذي يستحق العبودية لله أكثر ! ! ولم تؤخر المرأة في هذا المجال ، والأدلة العملية علىٰ ذلك كثيرة ، ولا مجال لحصرها . إنما سنستعرض بعضاً منها ليكون لنا بذلك الدليل الكافي علىٰ نظرة الإسلام للمرأة والرجل علىٰ السواء :

* * *

الفصل الثاني

المرأة.. والمسجد

عندما أورد بيان الله تعالىٰ الحديث عن المساجد ، لم يميز بين أن يكون من روادها الرجال من النساء ، إنما كان الحديث عاماً ، يستوي فيه الرجل والمرأة ، من ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة : ١٨] .

والإيمان بالله واليوم الآخر ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والخشية من الله تعالىٰ ، إنما هي صفات تحملها الأنثىٰ كما يحملها الرجل ، وقد تجد في الحياة نساءً يتمتعن بهذه الصفات أكثر بكثير من رجالٍ ذوي لحىً وشوارب!!

ومن ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

ومن ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] .

وعلىٰ هذه الخطوات سار النبي الأكرم ﷺ ومن معه من الصحابة ، ومن ثم التابعون ومن بعدهم .

وقد ورد في ذلك آثار كثيرة لا مجال لذكرها كلها ، إنما نشير إلىٰ ما يلي :

ـ ورد في صحيح الإمام البخاري ، في باب الجماعة والإمامة :

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ ذهب إلىٰ بني عمرو بن عوف ليُصلح بينهم ، فحانت الصلاة ، فجاء المؤذن إلىٰ أبي بكر ، فقال : أتصلي للناس فأقيم ؟

قال : نعم ، فصلىٰ أبو بكر ، فجاء رسول الله ﷺ والناس في الصلاة ، فتخلّص حتىٰ وقف في الصف ، فصفق الناس ، وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته ، فلما أكثر الناس التصفيق التفت ، فرأىٰ رسول الله ﷺ ، فأشار إليه رسول الله ﷺ : (أن امكث مكانك) ، فرفع أبو بكر رضي الله عنه يديه ، فحمد الله علىٰ ما أمره به رسول الله ﷺ من ذلك ، ثم استأخر أبو بكر حتىٰ استوىٰ في الصف ، وتقدّم رسول الله ﷺ فصلىٰ ، فلما انصرف قال : « يا أبا بكر ، ما منعك أن تثبت إذ أمرتك » فقال أبو بكر : ما كان لابن أبي قحافة أن يصلّي بين يدي رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « ما لي رأيتكم أكثرتم التصفيق ، من رابه[1] شيء في صلاته فليسبِّح ، فإنه إذا سبَّح التُفِت إليه ، وإنما التصفيق للنساء »[2] .

إنه دليل واضح علىٰ حضور النساء في المساجد ، وأنه يتوجب عليهم إذا غلط الإمام أن يصفقن بدل التسبيح .

---

(١) أي : من أصبح في شك ، وفي رواية (من نابه) أي : من أصابه .
(٢) رواه البخاري (٣٨٥) ، ومسلم (٤٢١) .

ـ وهناك أحاديث نبوية شريفة تدلُّ علىٰ حضور النساء في المساجد ، من ذلك قول سيدنا رسول الله ﷺ : « خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها »[1] .

ومنها ما روته أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها : (أن النساء في عهد رسول الله ﷺ كنّ إذا سلمن من المكتوبة ، قمن وثبت رسول الله ومن معه من الرجال ما شاء الله ، فإذا قام رسول الله قام الرجال)[2] .

ومنها ما روته أم عطية رضي الله عنها : (أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرجهن ـ أي النساء ـ في الفطر والأضحىٰ ، العواتق والحيّض وذوات الخدور ، فأما الحيّض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين)[3] .

ومنها ما رواه أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ : (خرج رسول الله ﷺ في أضحىٰ أو فطر إلىٰ المصلىٰ ، فمرّ علىٰ النساء ، فقال : « يا معشر النساء تصدّقن ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار » ، فقلن : وبم يا رسول الله ؟ قال : « تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، وما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين أذهب للُبِّ الرجل من إحداكنّ » .

قلن : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟

قال : « أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل ؟ » .

قلن : بلىٰ .

---

(١) رواه مسلم (٤/١٥٩) ، وأبو داود (٦٧٨) ، والنسائي (٢/٧٣) وأحمد (٢/٤٧) .
(٢) رواه البخاري (٢/٤٩٣) ، وابن ماجه (٩٣٢) ، وأحمد (٦/٣١٠) .
(٣) رواه أبو داود (١١٣٦) ، وابن ماجه (١٣٠٧) .

قال : « فذلك من نقصان عقلها ، أليست إذا حاضت لم تصلِّ ولم تصم ؟ » .

قلن : بلىٰ .

قال : « فذلك من نقصان دينها »[1] .

ومنها ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إذا استأذنتْ أحدكم امرأتُهُ إلىٰ المسجد فلا يمنعها » .

فقال بلال بن عبد الله : والله لنمنعهنّ ! !

فأقبل عليه عبد الله ، فسبَّه سبّاً ما سمعت مثله قط ، وقال : أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول : والله لنمنعهنّ[2] ! !

حتىٰ إن الأمر وصل إلىٰ أبعد من هذا بكثير ، فهذ المسجد النبوي له عدة أبواب ، وكان الرجال والنساء يخرجون من هذه الأبواب سويّة ، ولم يعترض أحد ، حتىٰ قال النبي ﷺ ذات يوم : « لو تركنا هذا الباب للنساء » وأشار بيده الشريفة إلىٰ أحد هذه الأبواب ، عندها التزم الصحابة الأكارم بهذا التوجيه النبوي ، يروي نافع : أن عبد الله بن عمر لم يدخل من هذا الباب حتىٰ مات[3] .

إنها الأواصر المتينة بين المرأة المسلمة وبين المسجد ، تذهب إليه لتعبد فيه الله تعالىٰ ، لتسمع القرآن الكريم ، ولتصغي إلىٰ أحاديث النبي الشريف ، وإلىٰ المواعظ والحكم :

يحدثنا التاريخ عن أم هشام بنت حارثة رضي الله عنها أنها كانت

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤٢١) ، ومسلم (٢/ ٦٧) ، وأحمد (١/ ٤٢٣) .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم (٢/ ٦٧) ، وأحمد (١/ ٤٢٣) .

(٣) وما زال في المسجد النبوي الشريف باب يقال له : باب النساء ، حتىٰ هذه الأيام .

تحضر صلاة الجمعة في المسجد النبوي ، وأنها قالت ذات مرة : ما أخذت ﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ ـ أي ما حفظت هذه السورة ـ إلا من لسان النبي ﷺ يقرأ بها علىٰ المنبر في كل جمعة ! !

وإن لم تجد المرأة ثوباً لتخرج إلىٰ الصلاة في المسجد فما عليها إلا أن تستعير ثوباً تخرج به ، وهذا ليس بدعةً أو مناداةً إلىٰ التحرر ، إنما هو من تعاليم سيدنا محمد ﷺ ! !

نعم ، لقد عنون الإمام البخاري هذا الموضوع بقوله : إذا لم يكن لها جلباب في العيد ، وأورد تحت ذلك رواية عن حفصة بنت سيرين أنها قالت : كنا نمنع جوارينا أن يخرجن يوم العيد ، فجاءت امرأة فنزلت قصر بني خلف ، فأتيتها ، فحدثتني أن زوج أختها غزا مع النبي ﷺ اثنتي عشرة غزوة ، فكانت أختها معه في ست غزوات ، قالت : فكنا نقوم علىٰ المرضىٰ ونداوي الجرحىٰ ، فقالت : يا رسول الله : هل علىٰ إحدانا من بأس إذا لم يكن لها جلباب ألا تخرج إلىٰ العيد ؟ فقال : لتلبسها صاحبتها من جلبابها ، فليشهدن الخير ودعوة المؤمنين .

قالت حفصة : فلما قدمت أم عطية أتيتها فسألتها ، فقالت : أسمعت في كذا وكذا ؟ قالت : بأبي ، قال النبي ﷺ : « ليخرج العواتق وذوات الخدور ، وليعتزل الحيّض المصلىٰ ، وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين » .

إذن :

هذه هي سيرة الأسلاف ، فقد كانت النساء تخرجن إلىٰ المساجد في كل الأحوال ، حتىٰ في حالة العذر ـ كالحيض ونحوه ـ وكنّ يشهدن الخطبة والصلاة والمنافع الكثيرة من جرّاء ذلك .

بل كثيراً ما كان المصطفىٰ صلوات الله عليه يرسل بلالاً إلىٰ النساء .

ليجمع الصدقات منهن ، بعد أن يستمعن إلىٰ وعظ رسول الله وأمره للرجال والنساء بأن يتبرعوا ويتصدقوا .

لكن ماذا حدث بعد ذلك ؟!

بَعُد المسلمون عن دينهم الحنيف ، فآل الأمر بينهم إلىٰ التخلف والانحطاط ، فتركوا القرآن الكريم ، وسنة النبي ﷺ ، وراحوا يأخذون أمورهم من هنا وهناك ، وتحت غطاء الجهل تارة ، والغيرة تارة أخرىٰ ، أفتىٰ بعضهم بتحريم خروج النساء إلىٰ المساجد!!

وتوارث المسلمون ذلك ، إلىٰ أن وصلنا إلىٰ ما نرىٰ!!

حُرمت المرأة من الخروج إلىٰ المسجد ، وأُبعدت عن التعلم والوعظ والنفقة ، ولم تعد تعرف واجبها تجاه خالقها ، وتجاه والديها ، وتجاه زوجها ، وتجاه أولادها ، وتجاه مجتمعها!!

لكن الغريب حقاً أن المرأة في عصرنا خرجت من بيتها ، وذهبت إلىٰ المدرسة ، ذهبت إلىٰ الجامعة ، ذهبت إلىٰ السوق ، ذهبت إلىٰ العمل ، ذهبت إلىٰ السينما! وإلىٰ أماكن شتىٰ... ولكن المكان الوحيد الذي لم تذهب إليه كما ينبغي هو المسجد!

لماذا لا تذهب المرأة إلىٰ المسجد ؟ كل نساء العالم يذهبن إلىٰ معابدهن : النصرانية تذهب إلىٰ الكنيسة ، اليهودية تذهب إلىٰ البيعة ، والهندوسية تذهب إلىٰ المعبد ، كل صاحبة دين تذهب إلىٰ مكان عبادتها ، فلماذا لا تذهب المرأة المسلمة إلىٰ المسجد ؟ لماذا لا تهيأ دروس منتظمة للنساء ؟ لماذا لا تحضر الجمعة والجماعة[1] . ؟!

ثم تعالوا نتساءل : إذا لم تذهب النساء إلىٰ المساجد ، فإلىٰ أين

---

(١) للتوسع يراجع كتاب مسلمة الغد للدكتور يوسف القرضاوي : ١٤ .

يذهبن ؟ ومن أين يتثقفن ؟ ومن أين يستمعن المواعظ والخطب والدروس والأحكام الفقهية والأحاديث النبوية ؟!

أنترك النساء للقيل والقال ؟! أنتركهن لوسائل الإعلام ـ المرئية منها والمسموعة ـ ؟! أنتركهن لوساوس شياطين الإنس والجن ؟!

رحم الله الإمام ابن حزم حينما أراح نفسه وأراح من بعده ، حينما كذَّب أحاديث منع النساء من الصلاة في المساجد ، وعدّها من الباطل!!

إنك لن تجد حديثاً صحيحاً متواتراً يمنع النساء من الحضور إلىٰ المساجد ، فإن سمعت حديثاً في ذلك ، فاعلم أنه يخالف السنة العملية المتواترة والمشهورة ، ثم إنه يخالف ما كان عليه الخلفاء الراشدون ، ومن بعدهم من الصحابة والتابعين .

كم تقرأ في كتب الصحاح والسنن من أحاديث نبوية مشهورة ومتواترة تبيّن أن سيدنا المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام حضّ علىٰ الصلاة في مسجده الشريف ، ولم يخصص ذلك للرجال دون النساء! ؟

وكم تقرأ في كتب الأحاديث والسير من أن النبي ﷺ خفَّف من الصلاة عندما سمع بكاء رضيع مع أمه ، وذلك لكي لا ينشغل قلبها عليه ؟!

وكم سمعنا وقرأنا في سيرة الفاروق عمر رضي الله عنه أنه كان يخطب بالناس ذات يوم ، فاقترح علىٰ الناس أن لا يكثروا من المهور ، فقامت إليه امرأة من المسجد ، وردَّت عليه مستدلةً بآيات من كتاب الله تعالىٰ ، عندها تراجع عمر قائلاً : أمير يخطىء ، وامرأة تصيب ، كل الناس أفقه منك يا عمر!!

هل نأخذ ونقتدي بسنة رسول الله ﷺ ، وسيرة الخلفاء الراشدين ، أم نأخذ بأهواء البعض و . . . ! ؟

لقد سطر تاريخنا السامق أحداثاً ووقائع من سيرة الصحابيات والتابعين

والمؤمنات ، وفي ذلك عبر وعظات لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد :

ـ عن القاسم قال : كنت إذا غدوتُ أبدأ ببيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أُسلِّم عليها ، فغدوت يوماً فإذا هي قائمة تسبّح وتقرأ :

﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور : ٢٧] .

وتدعو ، وتبكي ، وترددّها ، فقمت حتىٰ مللتُ القيام ، فذهبتُ إلىٰ السوق لحاجتي ، ثم رجعتُ فإذا هي قائمة كما هي ، تصلي وتبكي[١] .

أليست السيدة عائشة من النساء ؟ ومن أين تعلمت هذه العبادة لله ؟ وكيف عاشت مع الصلاة والمناجاة إذا لم تحضر مجالس العلم والفقه في المسجد ؟!

ـ وتلكم معاذة العدوية ـ رحمها الله تعالىٰ ـ كانت إذا جاء النهار قالت : هذا يومي الذي أموت فيه ، فما تنام حتىٰ تُمسي!

وإذا جاء الليل قالت : هذه ليلتي التي أموت فيها ، فلا تنام حتىٰ تُصبح!

وإذا جاء البرد ، لبست الرِّقاق حتىٰ يمنعها البرد من النوم! وكانت تحيي الليل صلاةً ، فإذا غلبها النوم ، قامت فجالت في الدار وهي تقول :

يا نفسي! النوم أمامك لو قدمت لطالت رقدتُك في القبر علىٰ حسرةٍ أو سرور ، وبقيت علىٰ ذلك حتىٰ الصباح ، وكانت تصلي في كل يوم وليلة ستمائة ركعة ، وتقرأ جُزءَها من الليل تقوم به ، وكانت تقول : عجبت

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي : ٢/ ٣١ .

لعينٍ تنام وقد عرفت طول الرُّقاد في ظلم القبور[1] .

هل بعد هذا المثال نقول إن المرأة أدنىٰ في نظر الإسلام من الرجل ؟! إنها عرفت فغرفت!! إنها ذاقت حلاوة العبادة لله ، فقهرت نفسها وشهواتها ، وألجمت عواطفها ، وجمدت كل شيء تجاه أن تقف بين يدي الله سبحانه فرحمها الله ورضي عنها .

ـ وتلكم رابعة العدوية ، يحدثنا عنها سجف بن منظور فيقول :

دخلت علىٰ رابعة وهي ساجدة ، فلما أحسَّت بمكاني رفعتْ رأسها ، فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها!

فسلّمت ، فأقبلت عليَّ وقالت : يا بني ، ألك حاجة ؟

فقلت : جئت لأسلّم عليك .

قال : فبكت ، وقالت : سترك اللهم سترك ، ودعت بدعوات ، ثم قامت إلىٰ الصلاة ، وانصرفت[2] .

لو تساءلنا : ما سرُّ بكاء رابعة ، أهو مفارقتها للشهوة ؟ أهو ضياع العشيق والحبيب ؟! أهي الملذات و . . . ؟!

لا ، إنها امرأة عرفت ما تعني العبودية لله ، وأيقنت بلقائه و. . . فبكت خوفاً من الذنوب والآثام. . . فهل فعل ذلك كثير من أصحاب الشوارب واللحىٰ!!

ـ وأما حال (عجردة العميّة) فهو أمر عجيب وغريب!

قال رجاء بن مسلم العبدي : كنا نكون عند عجردة العميّة في الدار ، قال : فكانت تحيي الليل صلاةً ، وربما قال : تقوم من أول الليل إلىٰ

---

(١) صفة الصفوة : ٤/ ٢٢ .
(٢) صفة الصفوة : ٤/٢٨ .

السّحر ، فإذا كان السّحر ، نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دُجىٰ الليالي بتبكير الدلج[١] إلىٰ ظلم الأسحار ، يستبقون إلىٰ رحمتك وفضل مغفرتك ، فبك إلهي لا بغيرك ، أسألك أن تجعلني في أول زُمرة السابقين إليك ، وأن ترفعني إليك في درجة المقربين ، وأن تُلحقني بعبادك الصالحين ، فأنت أكرم الكرماء وأرحم الرحماء ، وأعظم العظماء ، يا كريم .

ثم تخرُّ ساجدة ، فلا تزال تبكي وتدعو في سجودها حتىٰ يطل الفجر[٢]!

ـ وأما (العابدة زَجْلة) فيحدثنا عنها أحمد بن سهل الأزدي فيقول : دخل علىٰ زجلة العابدة نفر من القرّاء فكلموها في الرفق بنفسها ، فقالت :

ما لي وللرفق بها ؟ فإنما هي أيام مبادرة ، فمن فاته اليوم شيءٌ لم يدركه غداً ، والله يا إخوتاه لأصليّن ما أقلّتني جوارحي ، ولأصومن له أيام حياتي ، ولأبكينّ له ما حملتِ الماء عيناي!

ثم قالت : أيّكم يأمر عبده بأمر يحبُّ أن يقصِّر فيه[٣] ؟

وأما عبّاد بن عبّاد أبو عتبة الخواص فيحدثنا عنها ـ أي عن زجلة ـ فيقول :

دخلنا علىٰ زجلة العابدة ، وكانت قد صامت حتىٰ اسودَّت ، وبكت حتىٰ عمشت ، وصلّت حتىٰ أُقعدت ، وكانت صلاتها قاعدة ، فسلّمنا عليها ثم ذكّرناها شيئاً من العفو ، أردنا أن نهوّن عليها الأمر هناك ،

---

(١) أي : لقد قطع العابدون إلىٰ الله ظلمة الليالي بالسير في الليل إلىٰ ظلم الأسحار .

(٢) صفة الصفوة : ٤/ ٣٠ .

(٣) صفوة الصفوة : ٤/ ٤٠ـ٤١ .

فشهقت ثم قالت : علمي بنفسي قرّح فؤداي ، وكَلَم قلبي ، والله لوددتُ أن الله لم يخلقني ، ولم أكُ شيئاً مذكوراً ، ثم أقبلت علىٰ صلاتها ، وتركناها ، فخرجنا من عندها[١] .

ـ وأما (غنضكة العابدة) فيحدثنا عنها الإمام ابن الجوزي فيقول :

كانت امرأة بالبصرة يقال لها غنضكة العابدة ، تصلّي عامة الليل ثم تقول :

أعوذ بالله من ملائكةٍ غلاظٍ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فإذا قضت صلاتها قالت : هذا الجهد مني وعليك التكلان .

ثم يروي لنا ابن الجوزي بالسند إلىٰ أبي الوليد العبدي قوله :

ربما رأيت (غضنة وعالية) تقوم إحداهما من الليل ، فتقرأ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف في ركعة[٢] .

ـ وتلكم هي (منيفة بنت أبي طارق) رحمها الله تعالىٰ :

يحدثنا عنها عامر بن مليك البحراني فيقول : حدثتني أمي فقالت : بتُّ ذات ليلة عند منيفة بنت أبي طارق ، فما زادت علىٰ هذه الآية من أول الليل إلىٰ آخره ، ترددها وتبكي :

---

(١) صفة الصفوة : ٤/ ٤٠ـ٤١ .

(٢) صفة الصفوة : ٤/ ٤١ .

وحبذا لو تأملنا حال هذه العابدة ، ونحن نفتح كتاب الله تعالىٰ ، لنتبين أن هذا المقدار من السور ـ التي قرأتها في ركعة واحدة ـ يساوي (٩) أجزاء أي (١٧٨) صفحة ، أي (١١٥٤) آية !!

فهل فعل ذلك الرجال ؟! لعمري إن المسألة ليست في الذكورة والأنوثة ، إنما المسألة هي بمقدار ما يقدّمه الإنسان من أعمال صالحة .

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران : ١٠١] .

ـ وهذا أبو خالد القرشي يحدثنا عن واحدة من العابدات فيقول :

استأذنا علىٰ (عليلة بنت الكُميت) ، وكانت من العابدات .

قال : وذلك وقت الظهيرة ، فقالوا : هي تصلّي .

فلم نزل ننتظرها إلىٰ العصر ، فلما صلّت العصر ، أذنت لنا ، فدخلنا عليها فقلنا : رحمك الله ، لم نزل قعوداً منذ الظهر ننتظرك .

قالت : سبحان الله ، قعوداً لم تصلوا بين الظهرو العصر(١)!!

ـ ومن هناك يأتينا خبر (أخت الفضيل بن عبد الوهاب) رحمها الله تعالىٰ ، حيث كان أحب شيء إليها التهجد في الليل .

وعندما سألها أخوها عمّا يعينها علىٰ عبادة ربها ، كان جوابها : الآخرة أقرب من الدنيا ، وذلك أن الرجل يهمّ بطلب الدنيا فلعله أن ينشىء لذلك سفراً يكون فيه تعبُ بدنه ، وإنفاق ماله ، ثم لعله أن لا ينال بغيته ، والرجل يطلب الآخرة فمنتهىٰ طلبته في حُسن نيته حيث ما كان من غير أن ينشىء سفراً ، أو ينفق مالاً ، أو يتعب بدناً ، ما هو إلا أن يُجمع علىٰ طاعة الله ، فإذا هو قد أدرك ما عند الله .

إنها امرأة لكنها تساوي الآلاف من الرجال ، تنظر إلىٰ الدنيا نظرة استحقار و . . . لا تبالي إن أتت الدنيا أو ذهبت . إنها تبرر بيعها للدنيا فتقول :

ما بيننا وبين أن نرىٰ السرور ، أو ننادىٰ بالويل والثبور إلا خروج هذه الأرواح من الأبدان ، ، فانظروا أي عبيدٍ تكونون حينئذٍ!!

---

(١) صفة الصفوة : ٤/ ٤٥ .

ـ وأختم الكلام هنا بما قاله سيدنا رسول الله ﷺ :

« لا تمنعوا النساء من الخروج بالليل إلىٰ المساجد »[1] .

وفي الصحاح عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : قال لنا رسول الله ﷺ : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً » .

وعلّق الشيخ محمد الغزالي علىٰ ذلك بقوله : منذ افتتاح المسجد النبوي بعد الهجرة إلىٰ أن لحق النبي عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلىٰ والنساء يصلّين فيه ، والباب المخصص لهن لم يغلق قط! أي أنهن أديّن فيه بين سبعة عشر ألفاً وثمانية عشر ألف صلاة ، وهذا من المتواتر المستيقن الذي تتساقط حوله أخبار الآحاد فلا يُكثرن بها أو يقام لها وزن .

ـ وإن ما وقع علىٰ عهد رسول الله ﷺ امتد أيام الخلافة الراشدة ، وبقي المسجد النبوي معموراً بهن دون نكير ، بل إن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أمر سليمان بن أبي حثمة أن يؤم النساء في مؤخرة المسجد في شهر رمضان!

وروىٰ ابن حزم أن علي بن أبي طالب كان يأمر الناس بالقيام في رمضان ، فيجعل للرجال إماماً وللنساء إماماً ، قال (عرفجة) ـ الراوي ـ فأمرني ، فأممت النساء!

وروىٰ الزهري أن عاتكة بنت زيد زوجة عمر بن الخطاب كانت تشهد الصلاة في المسجد ، وكان عمر يقول لها : والله إنك لتعلمين أني ما أحب هذا!!

فقالت : والله لا أنتهي حتىٰ تنهاني! قال عمر : فإني لا أنهاك!!

---

(١) رواه الإمام مسلم .

ولقد طعن عمر ـ رضي الله عنه ـ يوم طعن ، وإنها لفي المسجد النبوي[1] .

فهل بعد هذه القصص والأحداث والأحاديث والوقائع نصغي إلىٰ من يريد أن يحرِّم علىٰ النساء الخروج إلىٰ المساجد ؟!

اللهم إنَّا نبرأ إليك مما يفعله المغرضون والجاهلون ، ونشهدك أنا سنسير علىٰ خطىٰ سيدنا محمد صلوات الله عليه ، وآله ، وصحبه ، والتابعين ؛ وفي هذا بلاغ ، وذكرىٰ لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد .

* * *

---

(١) بتصرف واختصار من : قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة ص ١٩٦ـ٢٠٠ .

الفصل الثالث

المرأة.. ومناجاة الله تعالىٰ

ونحن نتحدث عن عبادة المرأة لله تعالىٰ ، لا بدّ من التوقف عند ظاهرة الدعاء والمناجاة لله سبحانه .

ذلك لأن القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وحياة الصحابة والتابعين ، ركزت علىٰ المناجاة والدعاء ، لما لها من فوائد للفرد والمجتمع .

وللدعاء فلسفة خاصة به ، تجمعها الآية القرآنية التالية :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٠ـ٤٣] .

ثم يعطينا البيان الإلهي بعض النماذج عن أدعية الأنبياء :

فذاك سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ بعد أن فعل به قومه ما فعلوا من العناد والصدّ والتكذيب يرفع شكواه مالك الملك فيقول :

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنبياء : ٧٦] .

وفي نفس السورة يذكر لنا مثالاً آخر هو سيدنا أيوب ـ عليه السلام ـ ومناجاته لله تعالىٰ :

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣ـ٨٤] .

وأما سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ فيتوجه إلىٰ الباريء المصور قائلاً :

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] .

وكذلك سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ ، فيصفه القرآن :

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

[الأنبياء : ٩٠] .

وعلىٰ هذا المنوال سار جميع الأنبياء ثم من بعدهم الصالحون إلىٰ يوم الدين ، لكن هل هذا الأمر اختص به الرجال دون النساء ؟

أبداً ، فقد سطر التاريخ قصصاً وأحداثاً تبين أن المرأة كان لها الباع الطويل في مجال الدعاء والمناجاة ، مثلها مثل الرجل ، ولن نستطيع حصر هذه الأمور في عدة صفحات ، لكن سنكتفي بسرد بعضها لما فيها من العبر والعظات :

ـ أورد الإمام ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ الكثير الكثير من قصص هؤلاء النساء اللاتي اشتهرن في ميدان المناجاة والدعاء من ذلك :

ما رواه أبو المورق قال حدثني من سمع (نقيش بنت سالم) بمكة وهي تقول :

يا سيّد الأنام ، رحَلت بي الشُّقة ، وهذا مقام العائذ بعفوك من سخطك ، وبرحمتك من غضبك .

يا حبيب الأوّابين ، يا من لا يكديه[1] الإعطاء ، يا ذا المن والآلاء ، زدني بالثقة منك وصْلةً ، واجعل قِراي[2] عتق رقبتي ، وأقرر عيني برضاك .

قال : ورأيتها بالموقف ـ علىٰ جبل عرفات ـ وهي تقول :

بهظتني[3] الآثام يا سيد الأنام ، كحلت عيني بملمول الحُزن ، فوعزّتك لا نعمتُ بضحك أبداً حتىٰ أعلم أين قراري ؟ وإلىٰ أين تصير داري ؟

فلما رأت أيدي الناس مبسوطةً للدعاء وقالت :

يا قرة عيني وعيون الأبرار ، يلتمسون نائلك ويرجون فضلك .

فلما رجعوا وضعت خدها وصرخت : انصرف الناس ولم أشعر قلبي منك اليأس .

* وقال وهيب بن الورد : بينما امرأة في الطواف ذات يوم وهي تقول :

يا رب ، ذهبت اللذات ، وبقيت التبعات .

يا رب سبحانك ، وعزتك إنك لأرحم الراحمين ، يا رب مالك عقوبة إلا النار .

فقالت صاحبة لها كانت معها :

يا أخيّة ، دخلتِ بيت ربك اليوم ؟

قالت : والله ما أرىٰ هاتين القدمين أهلاً للطواف حول بيت ربي ،

---

(١) أي : لا يفقره ، ولا يقلل من خزائنه شيئاً .
(٢) أي : ضيافتي .
(٣) أي : أثقلتني .

فكيف أراهما أهلاً أطأ بهما بيت ربي ؟ وقد علمت حيث مشتا إلىٰ أين مشتا !!

* وقال إبراهيم بن مسلم المخزومي : وقفت امرأة متعبدة في جوف الليل ، فتعلقت بأستار الكعبة ، ثم بكت وقالت :

يا كريم الصُّحبة ، ويا حسن المعونة ، أتيتك من شقة بعيدة متعرضة لمعروفك الذي وسع خلقك ، فأنلني من معروفك معروفاً تُغنيني به عن معروف من سواك ، يا أهل التقىٰ ويا أهل المغفرة .

قال : ثم صرخت صرخةً سقطت لوجهها ، فحُملت مغشياً عليها !!

* وقال أبو سعيد الأزرق الباهلي :

دخلت الطواف ليلاً ، فبينا أنا أطوف وإذا بامرأةٍ في الحجر ملتزمة للبيت قد علا نشيجها ، فدنوت منها وهي تقول :

يا من لا تراه العيون ، ولا تخالطه الأوهام والظنون ، ولا تغيّره الحوادث ، ولا يصفه الواصفون .

يا عالماً بمثاقيل الجبال ، ومكاييل البحار ، وعدد قطر الأمطار ، وورق الأشجار ، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار ، لا تُواري منه سماءٌ سماءً ، ولا أرضٌ أرضاً ، ولا جبل ما في وعره ، ولا بحرٌ ما مقرّه .

أسألك أن تجعل خير عمري آخره ، وخير أيامي يوم ألقاك ، وخير ساعاتي مفارقة الأحباء من دار الفناء إلىٰ دار البقاء التي تُكرم فيها من أحببت من أوليائك ، وتُهين فيها من أبغضت من أعدائك .

أسألك إلهي عافيةً جامعةً لخير الدنيا والآخرة ، مَنّاً منك عليّ ، وتطوُّلاً يا ذا الجلال والإكرام .

* وقال أبو عبد الله المكي أبو محمد : كانت (حبيبة العدوية) إذا صلّت العتمة قامت علىٰ سطحٍ فشدت عليها درعها وخمارها فقالت :

إلهي ، غارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلّقت الملوك أبوابها ، وبابك مفتوح ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامي بين يديك .

فإذا كان السَّحر قالت :

اللهم ، وهذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعري هل قبلتَ مني ليلتي فأهنأ ، أم رددتها عليّ فأعزّىٰ ؟

فوعزتك ، لهذا دأبي ودأبك أبداً ما أبقيتني .

وعزتك ، لو انتهرتني ما برحتُ من بابك ولا وقع في قلبي غير جودك وكرمك .

* وقال سعيد الأفريقي : كنت ببيت المقدس مع أصحابٍ لي في المسجد ، فإذا أنا بجارية عليها درع شعر وخمار من صوف ، فإذا هي تقول :

إلهي وسيدي ، ما أضيق الطريق علىٰ من لم تكن دليله ، وأوحش خلوة من لم تكن أنيسه .

فقلت : يا جارية ، ما قطع الخلق عن الله عز وجل ؟

قالت : حبّ الدنيا إلا أن لله عز وجل عباداً أسقاهم من حبّه شربةً فولهت قلوبهم فلم يحبوا مع الله غيره ، ثم قالت تنشد :

تزوّد قريناً من فعالك إنما   قرينُ الفتىٰ في القبر ما كان يعملُ
ألا إنما الإنسان ضيفٌ لأهله   يقيم قليلاً عندهم ثم يرحلُ[1]

---

(١) يراجع الجزء الرابع من صفوة الصفوة ففيه الكثير من أمثال هذه القصص .

الفصل الرابع

المرأة.. والقرآن الكريم

حينما أمر الله تعالىٰ عباده أن يقرؤوا القرآن الكريم ، وينظروا فيما فيه ، ويفهموا معانيه وأحكامه و. . . ، لم يكن ذلك خاصاً بالذكور دون الإناث!!

بل إن كلاهما مأمور بذلك ، وقد سطر التاريخ قصصاً كثيرة في وقوف النساء عند القرآن الكريم ، والبكاء عند سماعه ، وتفهُّم مراميه ، لكن سنكتفي بالقصة المشهورة وهي قصة المتكلمة بالقرآن :

روىٰ الحافظ أبو حاتم البستي (ت ٣٥٤ هـ) : أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاري ، حدثنا الغلابي ، حدثنا إبراهيم بن حبيب ، حدثنا الأصمعي قال :

بينما أنا أطوف بالبادية إذا بأعرابية تمشي وحدها علىٰ بعير لها ، فقلت : يا أمة الجبار من تطلبين ؟

فقالت : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٦] .

قال : فعلمت أنها قد أضلت أصحابها ، فقلت لها : كأنك قد أضللت أصحابك ؟

قالت : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء : ٧٩] .

فقلت لها : يا هذه من أين أنتِ ؟

قالت : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء : ١] .

فعلمت أنها مقدسية ـ من بيت المقدس ـ ، فقلت لها : كيف لا تتكلمين ؟

فقالت : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [قٓ : ١٨] .

قال بعض أصحابي : ينبغي أن تكون هذه من الخوارج .

فقالت : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

فبينما نحن نماشيها إذا رُفعت لنا قباب وخيم ، فقالت :

﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٦] .

قال : فلم أفطن لقولها ، فقلت : ما تقولين ؟

فقالت : ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ﴾ [يوسف : ١٩] .

قلت : بمن أصوِّت ، وبمن أدعو ؟

فقالت : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ﴾ [مريم : ١٢] . ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ [مريم : ٧] ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [صٓ : ٢٦] .

قال : فإذا نحن بثلاثة أخوة كاللآلىء ، فقالوا : أمّنا ورب الكعبة ، أضللناها من ثلاث .

فقالت : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٣٤] .

فأومأت إلىٰ أحدهم فقالت :

﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ [الكهف : ١٩] .

فلت : إنها أمرتهم أن يزودونا ، فجاؤوا بخبز وكعك .

قلت : لا حاجة لنا في ذلك ، فقلت للفتية : من هذه منكم ؟

قالوا : هذه أمنا ما تكلمت منذ أربعين سنة إلا من كتاب الله مخافة الكذب ! !

فقالت : ﴿ لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورىٰ : ٢٣] .

قال : فعلمت أنها شيعيّة ، فانصرفتُ[١] .

* * *

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء : ٤٩ـ٥٠ .

الفصل الخامس

المرأة.. والخوف من الله تعالىٰ

ومن مظاهر عبودية الإنسان لله تعالىٰ ، خوفه منه ، ومراقبته له ، وشوقه إليه ، وهذا الأمر لم ينفرد به الذكور دون الإناث ، إنما سجل التاريخ قصصاً كثيرة من تاريخ السلف ، من ذلك مثلاً :

* السيدة عائشة رضي الله عنها كانت من شدة خوفها من الله تعالىٰ كثيراً ما تردد : وددت أني كنت نسياً منسياً ، ووددت أني شجرة أعضد[١] ، وددت أني لم أخلق .

وكانت إذا مرت بشجرة قالت : يا ليتني كنت ورقةً من ورق هذه الشجرة!!

وكانت إذا قرأت في القرآن الكريم ، ومرَّت بآيات التخويف والعذاب وأهوال يوم القيامة بكت حتىٰ يُسمع بكاؤها ، وعندما قرأت ذات يوم قوله تعالىٰ :

﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور : ٢٧] .

قالت : ربِّ منّ عليّ وقني عذاب السموم[٢] .

---

(١) أي : أُقطع .

(٢) الزهد للأمام أحمد بن حنبل : ١٦٤ـ١٦٥ .

* وأورد الإمام ابن الجوزي طائفة من أحوالهن ، من ذلك :

قال محمد بن الحسين : حدثني صاحبٌ لي من البصريين قال : بكت (مطيعة) أربعين عاماً ، فعوتبت علىٰ كثرة البكاء ، فقالت : لا أزال أبكي حتىٰ أعلم علىٰ أيّ الحالين أنا عند الله ؟!

* وقيل للحسن : يا أبا سعيد ، إن ههنا امرأة يقال لها (بَرْدة) قد فسدت عيناها من البكاء ، فدخل عليها ، فقال لها : يا بردة ، إن لبدنك عليك حقاً ، وإن لبصرك عليك حقاً ، قالت : يا أبا سعيد ، إن أكن من أهل الجنة ، فسيبدلني الله بصراً خيراً من بصري ، وإن أكن من أهل النار فأبعد الله بصري !!

* وقال أبو الوليد رياح بن أبي الرَّاح العبدي :

ما رأيت قط مثل (أمية بنت أبي المورّع الموصلية) وكانت من الخائفين ، وكانت إذا ذكرت النار قالت :

أُدخلوا النار ، وأكلوا من النار ، وشربوا من النار ، وعاشوا !!

ثم تبكي ، وكان بكاؤها أطول من ذلك ، وكانت وكأنها حبّة علىٰ مِقلىٰ ، وكانت إذا ذكرت النار ، بكت وأبكت دماً ، وما رأيت أحداً أشد خوفاً ولا أكثر بكاءً منها !!

* وقال أبو القاسم بن سعيد : سمعت صالحاً المريَّ يقول :

رأيت (ريحانة المجنونة) فسلّمت عليها ، فقالت لي : يا صالح اسمع :

بوجهك لا تعذبني فإني	أؤمّل أن أفوز بخير دار
وأنت مجاور الأبرار فيها	ولولا أنت ما طاب المزار

وقال الرَّبيع : بتُّ أنا ومحمد بن المنكدر وثابت البناني عند (ريحانة

المجنونة) بالأُبُلّة[1] ، فقامت أول الليل وهي تقول :

قام المحب إلىٰ المؤمل قومةً كـاد الفـؤادُ مـن السـرور يطيـرُ

فلما كان جوف الليل سمعتها تقول أيضاً :

لا تأنسنَّ بمن تُوحشك نظرتُه فتُمنعـنَّ مـن التـذكـار فـي الظُّلـمِ
واجهد وكدَّ وكن في الليل ذا شجنٍ يسقيك كأس وداد العزّ والكرم

قال : ثم نادت : واحرباه ، واسلباه!

فقلت : مم ذا ؟ فقالت :

ذهـب الظـلام بـأنسـه وبـأُلفـه ليـت الظـلام بـأنسـه يتجـدَّدُ[2]

* وأما مراقبة الله تعالىٰ :

ففي ذلك قصصٌ كثيرةٌ ، منها ما رواه الإمام السيوطي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ :

* عن ابن جريج قال :

أخبرني من أصدِّقه ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بينما هو يطوف ـ أي في أسواق المدينة ليتفقد أحوال الرعية ـ سمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسوّد جانبه وأرّقنـــي أن لا خليـــل ألاعبُـــه
فـوالله لـولا الله تُخشـىٰ عـواقبـه لزحزح من هذا السرير جوانبُه

قال عمر رضي الله عنه : مالكِ ؟

قالت : أغزيتَ زوجي منذ أشهر ـ أي أرسلته إلىٰ الغزو ـ وقد اشتقت إليه .

---

(١) هي بلدة في العراق ، قرب مدينة البصرة .
(٢) مقتطفات من صفة الصفوة : الجزء الرابع .

قال : أردتِ سوءاً ؟

قالت : معاذ الله .

قال : فاملكي عليك نفسك ، فإنما هو البريد إليه .

فبعث إليه ، ثم دخل علىٰ حفصة رضي الله عنها ـ ابنته ـ فقال : إني سائلك عن أمرٍ قد أهمني ، فافرجيه عني ، كم تشتاق المرأة إلىٰ زوجها ؟ فخفضت رأسها ، واستحيت .

قال : فإن الله لا يستحي من الحق .

فأشارت بيدها ثلاثة أشهر ، وإلا فأربعة أشهر .

فكتب عمر رضي الله عنه أن لا تُحبس الجيوش فوق أربعة أشهر(١) .

* وقصة الفتاة التي رفضت أن تخلط اللبن بالماء علىٰ عهد الفاروق عمر رضي الله عنه وذلك لا خوفاً من عمر إنما خوفاً من رب عمر ، قصة مشهورة ومبثوثة في كتب التراث الإسلامي(٢) .

* وأما بهن لله سبحانه وتعالىٰ :

ففيه العجب العجاب ، وقد أورد الإمام ابن الجوزي قصصاً كثيرة في ذلك ، منها :

عن محمد بن بكّار قال : كانت عندنا بمكة امرأة عابدة ، فكانت لا تمر بها ساعة إلا وهي صارخة ، فقيل لها يوماً : إنا لنراك علىٰ حال ما نرىٰ غيرك عليها ، فإن كان بك داء عالجناك .

قال : فبكت وقالت : من لي بعلاج هذا الداء ؟ وهل أقرح قلبي إلا التفكّر في نيل معالجته ؟ أوليس عجيباً أن أكون حيّة بين أظهركم وفي قلبي

---

(١) تاريخ الخلفاء : ١٤١ .

(٢) يراجع سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم : ٢٢ .

من الاشتياق إلىٰ ربي عز وجل مثل شعل النار التي لا تُطفأ حتىٰ أصير إلىٰ الطبيب الذي عنده بُرْءُ دائي وشفاء قلبي ، قد أنضجه الأحزان في هذه الدار التي لا أجد فيها علىٰ البكاء مُسْعِداً!!

* وأما (عُفيرة العابدة) فلها أحوال غريبة :

قال يحيىٰ بن بسطام : دخلت مع نفرٍ من أصحابنا علىٰ (عفيرة) ، وكانت قد تعبّدت وبكت حتىٰ عميت ، فقال بعض أصحابنا لرجلٍ جنبه :

ما أشد العمىٰ علىٰ من كان بصيراً!

فسمعت عفيرة فقالت له : يا عبد الله ، عمىٰ القلب ، والله ، عن الله ، أشدّ من عمىٰ العين عن الدنيا ، والله ، وددتُ أن الله وهب لي كُنه محبته ، وأنه لم تبق مني جارحة إلا أخذها!!

وذات يوم ، قال روح بن سلمة الورّاق لعفيرة العابدة : بلغني أنك لا تنامين الليل ، فبكت ، ثم قالت : ربما اشتهيتُ أن أنام ، فلا أقدر عليه ، وكيف ينام أو كيف يقدر علىٰ النوم من لا ينام عنه حافظاه ليلاً ولا نهاراً ؟!

* وأما السيدة رابعة العدوية :

تلك المرأة التي وُلدت في البصرة عام (٩٥ هـ) في كوخ من أكواخ الفقراء ، وبعد برهة مات والدها ، فأخذها أحد تجار الرقيق وباعها إلىٰ رجل غليظ القلب ، فما هي حيلتها أمام هذا الأمر ؟ لا شيء سوىٰ الشكوىٰ إلىٰ الله تعالىٰ ، وذات يوم وهي تناجي ربها سمعت صوتاً لم تر مصدره ، يقول لها : لا تحزني يا رابعة ، ففي يوم الحساب ، يتطلع المقربون في السماء إليك يحسدونك علىٰ ما تكونين فيه!

لكن كان سيدها يغلظ عليها ويقسو إلىٰ أن استيقظ ذات يوم في منتصف الليل فسمعها تقول :

إلهي أنت تعلم أن قلبي يتمنىٰ طاعتك ، ولو كان الأمر بيدي ما انقطعت لحظة من مناجاتك وخدمتك ، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبادك .

فما كان من سيدها إلا أن رقَّ قلبه لذلك ، فخيَّرها بين أن تعيش معه حرة ، وبين أن تكون حرّة تذهب إلىٰ أين تشاء ، فاختارت الوحدة والعزلة عن الناس ، والتجأت إلىٰ كوخها تعبد الله وتناجيه ، فانسابت الحكمة علىٰ لسانها ، وكان من ذلك : أن سألها رجل ذات يوم قائلاً : سليني حاجتك ـ وكان الرجل غنياً ـ فقالت : إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها .

وأكثرت رابعة من البكاء ، ومن الحنين إلىٰ لقاء الله ، ومن الخوف من الله تعالىٰ ، ومن الحب لله ، ولذلك يروىٰ عنها أنها كانت تقول :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لما يحب مطيع!

وعندما سألها الإمام سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ قائلاً : لكل عقد ـ أي عقيدة أو إيمان ـ شريطة ـ شرط ـ ، ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك يا رابعة ؟!

فأجابت : ما عبدته خوفاً من ناره ، ولا حبّاً لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، إن خاف عمل ، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه!!

لقد عاشت مع الناس بالجسد ، لكن روحها كانت تهيم في عالم الحب الإلهي ، عرف ذلك من عرف ، وجهله من جهل ، ولذلك كانت تقول :

إني جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيس

وكانت تترنم بهذا الأبيات ، وهي تخاطب الخالق البارىء سبحانه وتعالىٰ :

أحبك حبين حب الهوىٰ ... وحب لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حب الهوىٰ ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتىٰ أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاك

وهكذا بقيت طيلة حياتها التي جاوزت (الثمانين) ـ مع الله ، حباً له ، وخوفاً منه ، ومراقبة له ، وكانت دائمة الذكر للموت . وذلك ما روته خادمتها (عبدة بنت أبي شوال) قالت : كانت رابعة تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتىٰ يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها وهي فزعة :

يا نفس لم تنامين ؟

وإلىٰ كم تنامين ؟

يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة النشور ! !

قالت : فكان هذا دأبها دهرها حتىٰ ماتت ، فلما حضرتها الوفاة دعتني فقالت :

يا عبدة لا تؤذِني ـ أي لا تخبري بموتي أحداً ـ وكفنيني في جبتي هذه ، جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون[1] .

* * *

(١) هذه حال واحدة من النساء . عاشت لله ، ومع الله ، وفي ظلال محبة الله ، فهل أثر عليها أنها ليست من الذكور ، وأنها من الإناث ؟! .

الباب الخامس

المرأة شجاعة، بطلة، مضحية

الفصل الأول

في ظلال البطولة والتضحيات

في القرآن الكريم آيات كثيرة تحض علىٰ الجهاد ، وعلىٰ الإنفاق ، وعلىٰ الإقدام ، وعلىٰ ملاقاة العدو والثبات في وجهه ، لكن هذا الحضّ لم يأت للذكور فقط دون الإناث ، إنما جاء الخطاب للمؤمنين عامةً ، ليدل الإنسان العاقل علىٰ أن الإناث والرجال في هذا الأمر سواء ، لكن كلاً منهم مكلفٌ حسب طاقته التي أودعها الله تعالىٰ فيه ، ومن ذلك قول الله تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[التوبة : ٣٨ـ٤١]

ولندقق النظر في هذه الكلمات ﴿انفروا﴾ ﴿اثاقلتم﴾ ﴿أرضيتم﴾ ﴿إلا

تنفروا﴾ ﴿يعذبكم﴾ ﴿ويستبدل﴾ ﴿إلا تنصروه﴾ ﴿انفروا﴾ ﴿جاهدوا﴾ ﴿خير لكم﴾ إنها بصفة الجمع ـ للذكور والإناث ـ حيث صدّر الآيات بالخطاب العام وهو قوله تعالىٰ : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ .

أي جميع المؤمنين : شيباً وشباناً ، ذكوراً وإناثاً ، لا عذر لأحد في ذلك .

ومنها قوله تعالىٰ في ختام سور الأنفال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال : ٧٢ـ٧٥] .

ومنها قوله تعالىٰ :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

ومنها قوله تعالىٰ :

﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت : ٦] .

وأمثال هذه الآيات كثيرة في القرآن الكريم ، وجميع ما فيها من خطاب أو وصف أو أمر أو نهي إنما جاء بصيغة العموم ، ولم يختص بالذكور أبداً .

أما كتب الأحاديث الشريفة ، ففيها الكثير عن جهاد النساء واشتراكهن بالحرب ، سواءً كان الاشتراك بحمل السلاح ، أو مداواة الجرحىٰ ، أو

نقل الماء والأمتعة ، أو إثارة حماس الرجال وتشجيعهم لينقضوا على العدو . . . من ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سُليم ونسوة من الأنصار معه ، فيسقين الماء ، ويداوين الجرحى[(١)] .

ومن ذلك ما روته الرُّبيع بنت معوِّذ رضي الله عنها قالت : لقد كنا نغزو مع رسول الله ﷺ لنسقي القوم ونخدمهم ، ونردّ القتلى والجرحى إلى المدينة[(٢)] .

ومن ذلك ما روته أم عطية رضي الله عنها قالت : غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ، أخلفهم في رحالهم ، فأصنع لهم الطعام ، وأداوي الجرحى ، وأقوم على المرضى[(٣)] .

وكتب نجدة بن عامر الحروري إلى عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ يسأله عن خمس خصال ـ وكان أولها ـ : هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء ؟ وهل كان يضرب لهن بسهم ؟

فأجابه ابن عباس بقوله : لقد كان يغزو بهن ، فيداوين الجرحى ، ويُحْذَيْنَ[(٤)] من الغنيمة ، ولم يضرب لهن بسهم[(٥)] .

---

(١) رواه الترمذي رقم (١٥٧٥) في السير ، باب ما جاء في خروج النساء في الحرب ، وأبو داود رقم (٢٥٣١) في الجهاد ، باب في النساء يغزون ، وأخرجه مسلم رقم (١٨١٠) في الجهاد ، باب غزوة النساء مع الرجال .

(٢) رواه البخاري (٦/ ٦٠) في الجهاد ، باب مداواة النساء الجرحى في الغزو ، وباب رد النساء الجرحى والقتلى ، وفي الطب ، باب هل يداوي الرجل المرأة والمرأة الرجل .

(٣) رواه الإمام مسلم رقم (١٨١٢) في الجهاد ، باب النساء الغازيات يرضخ لهن ولا يسهم .

(٤) أي يعطين منها .

(٥) رواه مسلم رقم (١٨١٢) في الجهاد ، والترمذي رقم (١٥٥٦) في السير ، باب من=

وأما كتب السيرة والتراجم ففيها أمثلة كثيرة عن اشتراك النساء في الحرب ، من ذلك ما أورده الإمام ابن الجوزي :

حضرت (أم أيمن) أُحداً ، وكانت تسقي الماء ، وتداوي الجرحىٰ ، وشهدت كذلك خيبر .

وكانت (أم سُلَيط الأنصارية) تزفر القِرب للمسلمين يوم أحد .

ويوم حنين ، جاء أبو طلحة يضحك إلىٰ رسول الله ﷺ من (أم سُلَيْم) فقال : يا رسول الله ، ألم تر إلىٰ أم سُليم معها خنجر ؟!

فقال لها رسول الله ﷺ : « ما تصنعين به يا أم سليم ؟ » .

قالت : أردت إن دنا أحد منهم منّي طعنتُه !!

وفي رواية أخرىٰ : اتخذته ، إن دنا مني أحد من المشركين بقَرتُ بطنه ! فجعل رسول الله ﷺ يضحك .

وشهدت (أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية) رضي الله عنها أُحداً والحديبية وخيبر وحُنيناً وعُمرة القضاء ويوم اليمامة .

وروىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ما التفتُّ يوم أُحدٍ يميناً ولا شمالاً إلا وأراها تقاتل دوني » .

وقال الواقدي : قاتلت يوم أُحد وجرحت اثنتي عشرة جراحة ، وداوت جُرحاً في عنقها سنة ، ثم نادىٰ منادي رسول الله ﷺ إلىٰ حمراء الأسد ، فشدّت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم .

وخرجت في خلافة أبي بكر رضي الله عنه في الردّة ، فباشرت الحرب

= يعطي الفيء ، وأبو داود رقم (٢٧٢٧) و(٢٧٢٨) في الجهاد ، باب في المرأة والعبد يحذيان من الغنيمة .

وللتوسع في ذلك يراجع كتاب : جامع الأصول لابن الأثير : ٢/ ٦١٥ .

بنفسها حتىٰ قتل الله مسيلمة ، ورجعت وبها عشر جراحات من طعنة وضربة[1] !!

وأما الإمام ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فقد أورد الكثير من ذلك ، نأخذ منها :

قالت (ليلىٰ الغفارية) : كنت أغزو مع النبي ﷺ فأُداوي الجرحىٰ ، وأقوم علىٰ المرضىٰ .

وجاء في ترجمة (صفية بنت عبد المطلب عمّة النبي ﷺ) : كان رسول الله ﷺ إذا خرج لقتال عدوِّه رفع نساءه في أطم[2] حسان ، لأنه كان من أحصن الآطام ، فتخلّف حسان في الخندق ، فجاء يهوديّ فلصق بالأطم ليستمع .

فقالت صفية لحسان : انزل إليه ، فاقتله .

فكأنه هاب ذلك ، فأخذت عموداً ، فنزلت إليه حتىٰ فتحت الباب قليلاً قليلاً ، فحملت إليه فضربته بالعمود فقتلته !

وجاء يوم أحد ، وقد انهزم الناس ، وبيدها رمح تضرب في وجوههم ، فقال النبي ﷺ : « يا زبير المرأة » .

* وجاء في ترجمة (أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث) ، ويُقال لها : أم ورقة بنت نوفل ـ رضي الله عنها ـ : كانت تسمىٰ الشهيدة ، وكانت قد قرأت القرآن .

قالت : يا رسول الله ، لو أذنت لي ، فغزوت معكم ، فمرَّضتُ مريضكم ، وداويت جريحكم ، فلعلّ الله أن يرزقني الشهادة .

---

(١) يراجع الجزء الثاني من كتابه صفوة الصفوة .

(٢) أي : هو الحصن المبني بالحجارة [القاموس المحيط : ١٣٩١] .

قال : « يا أم ورقة ، اقعدي في بيتك ، فإن الله سيهدي إليك شهادة في بيتك » .

* وذكر الواقدي :

أن(نسيبة بنت كعب) لما بلغها قتل ابنها حبيب بن زيد علىٰ يد مسيلمة عاهدت الله أن تموت دون مسيلمة أو تقتله ، فشهدت اليمامة مع خالد بن الوليد ومعها ابنها عبد الله ، فقتل مسيلمة ، وقطعت يدها في الحرب!

وذكر ابن هشام في زيادته من طريق أم سعيد بنت سعد بن الربيع قالت :

دخلتُ علىٰ أم عمرة ، فقلت : يا خالة ، أخبريني .

فقالت : خرجتُ ـ يوم أحد ـ ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهينا إلىٰ رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزتُ إلى رسول الله ﷺ ، فكنت أباشر القتال وأذبُّ عن رسول الله ﷺ بسيف ، وأرمي بالقوس حتىٰ خلصت الجراح إليَّ .

قالت أم سعيد بنت سعد بن الربيع : فرأيت علىٰ عاتقها جُرحاً أجوف له غور ، فقلتُ : من أصابك بهذا ؟ قالت : ابن قمئة!!

* وقالَ رسول الله ﷺ في بيت (أم حرام بنت ملحان) فاستيقظ وهو يضحك ، وقال : « عُرضت عليّ أناس من أمتي يركبون ظهور البحر الأخضر[1] كالملوك علىٰ الأسرّة » .

قالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم .

---

(١) وهو اليوم البحر الأبيض المتوسط .

ثم نام ، فاستيقظ وهو يضحك ، فقلت : يا رسول الله ، ما يضحكك ؟

فقال : « عُرِض عليّ أناس من أمتي يركبون ظهور البحر الأخضر كالملوك علىٰ الأسرّة » .

قلتُ : يا رسول الله ، ادعُ الله أن يجعلني منهم .

قال : « أنت من الأولين » .

قال : فتزوجها عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، فأخرجها معه ، فلما جاز البحر ركبت دابة ، فصرعتها ، فقتلتها .

قال ابن الأثير ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : وكانت تلك الغزوة غزوة قبرص ، فدفنت فيها .

وكان أمير ذلك الجيش معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه في سنة سبع وعشرين .

■ وجاء في ترجمة (أم حكيم بنت الحارث زوج عكرمة بن أبي جهل) :

أنها خرجت مع زوجها إلىٰ غزو الروم ، فاستشهد ، فتزوجها خالد بن سعيد بن العاص ، فلما كانت وقعة مرج الصُفّر أراد خالد أن يدخل بها .

فقالت : لو تأخرت حتىٰ يهزم الله هذه الجموع .

فقال : إن نفسي تحدثني أني أقتل .

قالت : فدونك .

فأعرس بها عند القنطرة ، فعُرِفت بها بعد ذلك ، فقيل لها : قنطرة أم حكيم ، ثم أصبح فأولم عليها ، فلما فرغوا من الطعام حتىٰ وافتهم

الروم ، ووقع القتال ، فاستشهد خالد ، وشدّت أم حكيم عليها ثيابها وتبدّت ، وإن عليها أثر الخلوق ، فاقتتلوا علىٰ النهر ، فقاتلت أم حكيم يومئذٍ ، فقتلت بعمود الفسطاط الذي أعرس بها خالد فيه سبعةً من الروم!!

وجاء في ترجمة (أم موسىٰ اللخمية) زوج نُصير اللخمي والد موسى بن نُصير الذي فتح الأندلس :

أنها شهدت مع زوجها اليرموك ، فقتلت حينئذٍ علجاً[1] وأخذت سلبه ، وكان عبد العزيز بن مروان يستحكيها ذلك فتصفه له وتقول :

بينما نحن في جماعة من النساء إذ جال الرجال جولةً ، فأبصرت علجاً يجرّ رجلاً من المسلمين ، فأخذت عمود الفسطاط ، ثم دنوت منه ، فشدخت به رأسه ، وأقبلت أسلبه ، فأعانني الرجال علىٰ أخذه[2]!!

وأما الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فينقل طائفة من قصص اشتراك الصحابيات في الحرب ، ومدىٰ شجاعتهن وجرأتهن ، من ذلك علىٰ سبيل المثال لا الحصر :

* أخرج البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما كان يوم أُحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ، قال : ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سُليم رضي الله عنهما وإنهما لمشمّرتان أرىٰ خدم سوقهما تنقزان

---

(١) أي : الرجل من كفار العجم [القاموس المحيط : ٢٥٤] .

(٢) يراجع الجزء الرابع من الإصابة في تمييز الصحابة ، ويروي ابن كثير : أن خولة بنت ثعلبة كانت تحرض المجاهدين في معركة اليرموك ، وتقول :

يـا هـاربـاً عـن نسـوة نقيـات   فعَـن قليـل مـا تُـرىٰ سبيـات

ولا حصينـات ولا رضيّـات

القِرَب ثم تُفرغانهما في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانهما في أفواه القوم .

* وأخرج أبو داود من طريق حشرج بن زياد عن جدته أم أبيه رضي الله عنها : أنهنّ خرجن مع رسول الله ﷺ في خيبر ، وفيه أن النبي سألهنّ عن ذلك فقلن : خرجنا نغزل الشعر ، فنعين به في سبيل الله ، ونداوي الجرحىٰ ونناول السهام ، ونسقي السَّويق .

* وأخرج الطبراني عن مهاجر : أن أسماء بنت يزيد بن السّكن بنت عم معاذ بن جبل رضي الله عنهما قتلت يوم اليرموك تسعةً من الروم بعمود فسطاط[1]!!

إذن :

إذا كانت النساء قد خرجن مع رسول الله ﷺ في جميع الغزوات التي غزاها وإن كنَّ خرجن مع المسلمين في عهد الخلافة الراشد ، وفي عهد الأمويين و . . .

وإن كانت صحابية من الصحابيات قد دُفنت في قبرص وهي تقاتل مع المسلمين ، وإذا كانت كثيرات من المسلمات ساعدن في الحروب .

فهل نترك ذلك كله لنستمع إلىٰ إنسان تعلم كلمتين ، فراح يفتي للناس أن المرأة لا يجوز لها أن تخرج من بيتها لا إلىٰ المسجد ، ولا إلىٰ العمل ، ولا إلىٰ الغزو ، ولا إلىٰ الطريق ولا . . . !!!

إذن إلىٰ أين تخرج ؟!

قالوا : لا تخرج من بيتهاإلا مرتين : مرة إلىٰ بيت زوجها ، ومرة إلىٰ قبرها!!!

---

(١) يراجع الجزء الأول من حياة الصحابة .

هل ندع أحاديث الصحاح والسنن وتفسيرات القرآن الكريم وحياة الصحابة وكتب التاريخ والتراجم ، لنأخذ من هؤلاء ؟!

صحيح أن الشريعة وضعت ضوابط على النساء : كعدم الاختلاط إن خيفت الفتنة ، وكالستر ، وكاللباس الشرعي و . . . وهذا يكمِّل ذلك ، أما أن يحتجَّ أولئك على عدم خروج المرأة باللباس ، فهذا أمر لا دخل له أبداً ، فالإسلام يُؤخذ كله أو يترك كله ، ولا تبعيض في الشريعة ، وإلا دخلنا تحت قوله تعالى :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ٨٥] .

* * *

الفصل الثاني

نماذج نسائية في رحاب الفداء والتضحية!!

* ثم تعالوا لنرىٰ نماذج أخرىٰ من النساء ، وكيف كنَّ مثالاً في الشجاعة والفداء :

* تلكم هي **الخنساء (تماضر بنت عمرو بن الشريد السُّلمي)** والتي ولدت عام (٥٧٥)م وعاشت في الجاهلية ، حيث مات أخويها (معاوية وصخر) ، فما كان منها إلا أن لبست السواد ، وأطلقت للسانها العنان ، فراحت ترثي أخويها حتىٰ أصبحت مثالاً في ذلك ، ها هي تقول :

يا عين ما لك لا تبكين تسكابا   إذ راب دهرٌ وكان الدهر ريّابا
فـابكـي أخـاك لا أيتـامٍ وأرملـةٍ   وابكي أخاك إذا جاوزت أجنابا

ثم تقول ذات مرة :

إن الـزمـان ومـا يفنىٰ لـه عجـبٌ   أبقىٰ لنا ذَنَبا واستؤصلَ الرأسُ
أبقـىٰ لنـا كـلّ مجهـولٍ وفجّعنـا   بـالحـالميـنَ فَهُـمْ هـامٌ وأرمـاسُ
إن الجديدين في طول اختلافهما   لا يَفْسُـدانِ ولكـن يَفْسُـدُ النـاسُ

ثم تحدثنا عن أرقها وقلة نومها فتقول :

يـؤرقنـي التـذكّـر حيـن أمسـي   فـأصبـحُ قـد بليـتُ بفـرطِ نُكْسِ
علىٰ صخرٍ ، وأي فتىً كصخرٍ   ليـوم كـريهـةٍ وطعـان حِلْسِ

ثم تقول مخاطبةً عينها :

يا عين فيضي بدمعٍ منك مغزار وأبكي لصخرٍ بدمع منك مدرارِ
إني أرقت فبتُّ الليل ساهرةً كأنما كُحلت عيني بعوّارِ
أرعىٰ النجوم وما كُلّفتُ رعيتها وتارة أتغشّىٰ فضل أطمارِ[1]

ويشاء الله للخنساء الهداية ، فتعلن إسلامها عام (٢٠هـ = ٦٣٠م) ، فكيف أصبح حالها ؟ هل بقيت تبكي أخويها ؟ هل بقيت علىٰ عادة الجاهليين ؟

أبداً فالإسلام صنعها من جديد ، وحوّلها من ثكلىٰ إلىٰ بطلة شجاعة تربي أولادها علىٰ حب الشهادة في سبيل الله!

تحدثنا سيرتها العطرة : أنها حضرت معركة القادسية في عهد سيدنا عمر رضي الله عنه ، ومعها بنوها الأربعة ، فقالت لهم قبيل بدء المعركة :

يا بني أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجلٍ واحد ، كما أنكم بنو امرأةٍ واحدة ، ما خنتُ أباكم ولا فضحتُ خالكم ، ولا هجّنتُ حسبكم ، ولا غيّرت نسبكمُ ، وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خيرٌ من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله تعالىٰ سالمين فاغدوا إلىٰ قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله علىٰ أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت

---

(١) متفرقات من ديوان الخنساء ، وحبذا لو يراجع بدقة ، لترىٰ كم رثت أخويها (صخر ، ومعاوية) . . . وكم بكت عليهما . . . !! .

عن ساقها ، واضطّرمت لظىً علىٰ سبّاقها ، وجلّلت ناراً علىٰ أرواقها ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها ، عند احتدام حميسها تظفروا بالمغنم والكرامة في دار الخلود والمقامة .

وبالفعل ، انطلق أبناؤها الأربعة نحو العدو ، فلما قارب الصبح أن ينبلج ، تمركزوا في مراكزهم ، فقال الأول مذكّراً إخوته :

يا إخوتي إن العجوز لناصحة — قد نصحتنا إذ دَعَتْنا البارحة
بقالةٍ ذات بيانٍ واضحة — فباكروا الحرب الضّروس الكالحة
وإنما تُلقُون عند الصائحة — من آل ساسان كلاباً نابحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة — وأنتمو بين حياةٍ صالحة
ومبتة تورث غُنماً رابحة

وانقضَّ علىٰ العدو ، فقاتل قتال الشجعان الأبطال ، حتىٰ سقط شهيداً ! !

فحمل الراية من بعده أخوه الثاني ، وراح ينشد :

إن العجوز ذاتُ حزمٍ وجَلَدْ — والنظر الأوفق والرأي السّدد
قد أمرتنا بالسّداد والرّشد — نصيحةً منها وبراً بالولد
فباكروا لحربِ حُماةٍ في العدد — إما بفوزٍ باردٍ علىٰ الكبد
أو ميتةٍ تورثكم عيش الأبد — في جنة الفردوس والعيش الرغد

وانقضَّ علىٰ الأعداء ، وقاتل قتال الأبطال ، حتىٰ سقط شهيداً ! !

فحمل الراية أخوه الثالث ، وراح ينشد :

والله لا نعصي العجوز حرفاً — قد أمرتنا حَدَباً وعَطفا
نُصحاً وبراً صادقاً ولطفاً — أو يكشفوكم عن حمامكم كشفا
إنا نرىٰ التقصير عنهم ضعفا — والقتل فيهم نجدةً وعُرفا

وقاتل حتىٰ استشهد ، فحمل أخوه الرابع من بعده وقال :

لسـت لخنسـاء ولا لـلأخـرم ولا لعمـروٍ ذي السَّنـاء الأقـدم
إن لم أرِدْ في الجيش جيش الأعجم ماضٍ علىٰ الهول خضمٌ حضرم
إمـا لفـوز عـاجـلٍ ومغنـم أو لـوفـاةٍ فـي سبيـل الأكـرم

وقاتل حتىٰ استشهد رضي الله عنهم جميعاً .

فماذا كان موقف الخنساء ؟ هل لطمت الخدود ؟ هل شقَّت الجيوب ؟ هل نَعَتْ بنعوىٰ الجاهلية ؟

أبداً ، فقد حولها الإسلام من شيء إلىٰ شيء آخر ، لقد فرحت واستبشرت وقالت : الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم ـ أو باستشهادهم ـ وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته[1]!!

أسماء بنت أبي بكر :

وأما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ، فقد شاركت في التنظيم السري الذي رُسِم عند هجرة المصطفىٰ ﷺ إلىٰ المدينة المنورة!!

وسمِّيت ذات النطاقين لأنها شقَّت نطاقها نصفين ، ربطت بأحدهما سفرة رسول الله ﷺ ، وبالآخر قربته!!

وذت يومٍ دخل عدو الله أبو جهل بيت والدها مع نفر من قريش ، فسألها عن أبيها ، فردت بكل ثبات : لا أدري أين هو ، فضربها أبو جهل حتىٰ سقط القرط من أذنها ، وهي لا تبالي بذلك ، ولم تعترف عن مكان والدها!!

---

(١) للتوسع عن حياتها يراجع : الاستيعاب ٤/١٨٢٧ ، وأعلام النساء : ١/٣٦٠ والأعلام : ٢/٦٩ .

وعندما كبرت تزوجها الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ فأنجبت منه عبد الله رضي الله عنه فربته علىٰ الشجاعة والتضحية والفداء ، وقد سجل لها التاريخ هذه اللقطة الرائعة ، والتي يجب أن تكون مثالاً يُحتذىٰ لجميع النساء والرجال :

أتاها ابنها عبد الله ذات يوم ، وقد اشتدت الحرب بينه وبين جيوش بني أمية ـ وكانت وقتها ضريرة كبيرة السن ـ فذكر لها خذلان الناس إياه ، وموت أصحابه ، وإغراء أعدائه للناس بالمال والجاه والدنيا .

فما كان من أسماء المرأة إلا أن قالت له : يا بني أنت والله أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك علىٰ حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها صبيان بني أمية ، وإن كنت تريد الدنيا فبئس العبد أنت!!

أهلكت نفسك وأهلكت مَن معك ، وإن كنت قلت : كنت علىٰ حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن .

فقال لها عبد الله : يا أم ، إني لأخشىٰ إذا قتلت أن يمثّلوا بي ، فقالت له : يا بني إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها!!

عندئذٍ انطلق عبد الله نحو الجيوش المعادية ، فقاتل قتال الأبطال ، حتىٰ سقط شهيداً ، فرفعه الحجاج بن يوسف علىٰ خشبة الصلب وتركه علىٰ ذلك أياماً ، فلما مرت أسماء به قالت : أما آن لهذا الفارس أن يترجل!!

وفي عام (٧٣ هـ) انتقلت إلىٰ جوار ربها عن عمر بلغ المئة ، قضت معظمه في الجهاد والبذل والعطاء[١] .

---

(١) للتوسع عن حياتها يراجع : طبقات ابن سعد ٨/ ١٨٢ ، والإصابة : ٤/ ٢٢٤ ، =

خولة بنت الأزور :

كان لها الدور الكبير في مجابهة الروم ، وكان ذلك ضمن خطة سرية ، فهي لا تحب الشهرة والرياء ، إنما تريد أن تقاتل الأعداء لوجه الله تعالىٰ .

وقد سطر التاريخ ذلك قائلاً : كان قائد الجيش الإسلامي هو خالد بن الوليد رضي الله عنه فالتفت قبل المعركة فرأىٰ فارساً يرتدي الثياب السوداء ، وقد تلثّم حتىٰ لم يعد يرىٰ من وجهه إلا عيناه ، وقد وضع علىٰ رأسه عمامة خضراء ، ويركب فرسه لينقض علىٰ الرومان ، فتعجب خالد من شجاعة هذا الفارس ، فسأل من حوله : من هذا الفارس الشجاع ؟

فلم يعرفه أحد ، ودارت المعركة ، وحمي الوطيس ، فرفع رافع صوته : من يكون هذا الفارس غير خالد بن الوليد ، لكن خالد كان إلىٰ جنبه فقال : يا رافع والله إني لا أعلم من هو .

ثم نادىٰ خالد المسلمين إلىٰ الانقضاض علىٰ العدو ، والفارس هذا يجول ويصول ، فلحقه خالد إلىٰ أن أدركه ، فقال : يا هذا أناشدك الله من أنت ؟ لقد شغلت قلوب المسلمين وقلبي .

فقال الفارس : أنا خولة بنت الأزور ، علمت أن ضراراً ـ أخي ـ أسير ، فجئت أنتقم له وأفك أساره ، وأجاهد في سبيل الله .

وينقضي النهار ، ولم تجد خولة أخاها ضرار ، فبكت وقالت :

أبعد أخي تلذّ الغمض عيني ... وكيف ينام مقروح الجفون ؟
وإني إن يقال مضىٰ ضرار ... لباكيةَ بمنسجم هتون

= والأعلام : ١/ ٢٨٩ .

وفي منتصف الليل ، رأت خولة بعض الجنود الرومان يقتربون من خيمتها ، فلبست سلاحها وخرجت إليهم ، فأسرت عدداً منهم وساقتهم إلىٰ خيمة خالد بن الوليد ، وسألهم خالد عن ضرار ، فقيل له :

إن ضراراً قتل ابن عاهلنا وقتل منا عدداً عظيماً ، فتكاثرنا عليه وأسرناه وبعثناه إلىٰ عاهلنا ليرىٰ فيه رأيه .

فاختار خالد مائة فارس علىٰ رأسهم رافع بن عميرة ، وأمرهم أن ينطلقوا وراء أولئك الذي اصطحبوا ضراراً نحو عاهل الروم ، فما كان من خولة إلا أن رجت خالداً أن يسمح لها بالذهاب مع الفرسان .

وبالفعل لما وصلوا إلىٰ (السلمية) قرب حماة في سورية ، نظر رافع فرآهم محيطين بضرار ، عندها كبَّرت خولة فدوىٰ الوادي ، وكبَّر معها المسلمون ، وانقضت علىٰ الأعداء ، وانقضّ معها الفرسان ، ففكوا أسر أخيها ضرار .

ثم ماذا ؟

اشتركت خولة في كثير من المعارك بين المسلمين والروم ، لكنها سقطت أسيرة في وقعة (صحورا) ، وكان معها في الأسر عدد من المسلمات ، فماذا سيفعلن ؟!

وقفت في النساء ، تخطب فقالت :

يا نساء المسلمين ، يا بنات تبعٍ وحمير ، أترضين لأنفسكن علوج الروم ؟

أترضين أن يكون أولادكم عبيداً لهم يسومونهم الخسف والذل ؟ أين شجاعتكن ؟ أين إباء العرب ؟ أين كرامة الإسلام ؟ أين شجاعتكن التي تحدث بها أحياء العرب ومحاضر الحضَر ؟ إن الموت أهون عليكن من خدمة الروم!

فقامت عفراء بنت غفار الحميرية وقالت : صدقت والله يا ابنة الأزور ، لكن أين السلاح لنقاتل العدو ؟

وتشاور النسوة في الأمر ، فقالت خولة : يا بنات التابعة ، خذن أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ، ولنحمل بها علىٰ هؤلاء اللئام ، فإما الشهادة ، وإما النجاة ، والله ناصر من ينصره .

يا بنات التابعة ، لنخلص أنفسنا من العار قبل أن يحللنا أو يحلل إحدانا ، لنصدق في اللقاء ولنتكل علىٰ الله .

وحُددت ساعة الصفر لتنفذ الخطة ، وقادت خولة الأسيرات ، وحملت علىٰ عاتقها عموداً وصاحت بالنسوة : إياكن والضعف والفرار ، لنكن جميعاً ، ولا يفترق بعضنا عن بعض ، حتىٰ لا يقع علينا التشتيت ، واحطمن رماح القوم ، واكسرن سيوفهم ، وكبّرن في القتال واصبرن .

وسارت النسوة ، كل منهن تحمل عموداً ، فشدوا شدة واحدة ، وقاتلن قتالاً قوياً ، فما كان من الروم إلا أن ذهلوا ، فسقطت الأسلحة من أيديهم ، وأخذت خولة منها رمحاً ، وراحت تقاتل به ، حتىٰ خلصن أنفسهن من أسر الروم .

** وإذا تابعنا سرد الأحداث عن النساء اللائي شاركن في الحروب وأبدين الشجاعة والإقدام ، لرأينا ذلك أمراً يطول ويطول!

أنذكر أم الفضل ـ زوج العباس بن عبد المطلب ـ عندما قيل لها : إن ابنك فلاناً قُتل في البلدة الفلانية ، وابنك فلان مات في البلدة الفلانية .

فكان جوابها : لقد باعدت بينهم الهمم ، ولو كانوا ذوي همم منحطة لماتوا حيث ولدوا! ؟

أم نذكر مواقف السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، والتي ضحّت بمالها وشهرتها لتنصر الدين الإسلامي في اللحظات الأولىٰ ،

وليكون لها حقّ الشرف في أن تنال وسام : أول امرأة في الإسلام!!

أم نذكر مواقف السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وكيف صبرت وكيف ضحّت بكل شيء لتقام دولة الإسلام وليكون لها شرف نيل الوسام المحمدي : « أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين ؟! » .

أم نذكر مواقف بركة ـ أم أيمن ـ رضي الله عنها ، تلك المرأة التي هاجرت إلىٰ الحبشة ، ثم إلىٰ المدينة ، واشتركت في الجهاد مع سيدنا رسول الله ﷺ في أُحد ، وخيبر ، وحنين! ؟

أم نذكر مواقف السيدة أسماء بنت عُميس ، والتي لازمت زوجها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في جميع المواقف ، وهاجرت معه إلىٰ الحبشة أيضاً ، وصبرت صبراً لا تتحمله الجبال عند فراق زوجها الذي استشهد في مؤته ؟!

أم نذكر مواقف عمة رسول الله ﷺ (أروىٰ بنت عبد المطلب) وهي تدافع عن الإسلام : بلسانها ، وبمالها ، وبكل ما تملك! ؟

أم هل نذكر تلكم المرأة المسلمة التي كانت حاملاً بابنها عبد الله من أبي طلحة ، عندما نادىٰ المنادي بالخروج إلىٰ حنين ، فخرجت أم سليم بنت ملحان ، مع المسلمين إلىٰ القتال!!

وكانت قد اشتركت في معركة أحد ، تداوي الجرحىٰ ، وتسقي العطشىٰ ، ولا تخاف من نبال الأعداء وسهامهم ، إنما كانت تتمنىٰ لقاء العدو لتنال الشهادة في سبيل الله تعالىٰ. . . !!

أم هل نذكر تضحيات (أم سلمة) رضي الله عنها وما لاقته من صعوبات أثناء هجرتها من مكة إلىٰ المدينة المنورة ؟!

لقد سمح المشركون لزوجها بالهجرة ، ومنعوها من ذلك ، وأخذوا طفلها معهم!! زوجها أصبح بعد أيام في المدينة ، وابنها مع المشركين ،

وهي هي المرأة الوحيدة التي جلست علىٰ مشارف مكة تبكي وتبكي نحو عام كامل!!

لماذا ذلك كله ؟ ولماذا لم تعد إلىٰ أهلها و. . . ؟! إنها التضحيات في سبيل نصر الدعوة الإسلامية .

أم هل نذكر وقفة (درامية الحجونية) في وجه معاوية بن أبي سفيان وهي تمدح سيدنا علي بن أبي طالب ، ولم تخف من القتل والتعذيب ، بل قالت عنه : لقد أحببت علياً علىٰ عدله في الرعية ، وقسَمِه بالسويّة ، وأبغضك علىٰ قتال من هو أولىٰ منك بالأمر ، وطِلبَتِكَ ما ليسَ لك بالحق ، وواليت علياً علىٰ حبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدِّين ، وعاديتك علىٰ سفك الدماء ، وجوْرِك في القضاء ، وحكمك بالهوىٰ!!

أم نذكر مواقف بطولية لنساءٍ مسلمات ، وقفن في وجه الظلم ، ورفعن شعار الحق ، ولم يخشين إلا الله تعالىٰ ، مثل سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمذانية ، والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمذانية ، وبكارة الهلالية ، وعكرشة بنت الأطرش بن رواحة ، وأم سنان بنت حمشة بن خرشة المذجحية ، وأم الخير بنت الحرميش بنت سراقة البارقي ، ودرامية الحجونية. . .

أم هل نذكر نساء العرب الجاهليين في معركة أحد ، حيث وقفن وراء الجيش وراحت كل واحد منهن تحض أقرباءها علىٰ الثأر من هزيمتهم في بدر ، وكن ينشدن :

إن تقبلــــوا نعــــانــــق ونفـــــرش النمـــــــارق!
أو تـــدبـــروا نفــــارق فـــــراق غيـــــر وامـــــق!

أم هل نذكر ملكة تدمر ، وما قامت به من أدوار عظيمة لحماية شعبها والذّود عن بلدها و. . . ! ؟

أم هل نذكر بلقيس ملكة سبأ ، ورجاحة عقلها ، ورصانة فكرها ، وحكمتها وثباتها لتخطي الصعاب و . . . ! ؟

هذه إشارات فقط ، ومن أراد المزيد فليراجع كتب التراجم والسير . فهي مليئة بذلك . . . ، وفيها الدليل الكافي الشافي للرد علىٰ شبهة عدم خروج النساء إلىٰ المعارك . . .[1] .

* * *

(١) وهل ننسىٰ تضحيات سمية ـ والدة عمار بن ياسر ـ رضي الله عنهٔ وكيف نالت وسام أشرف وأول شهيدة في الإسلام! ؟

وهل ننسىٰ موقف (غزالة) زوجة شبيب بن زيد ، من الحجاج وقتالها له ، حتىٰ قيل فيه :

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامةٌ فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلاَّ برزت إلىٰ (غزالة) في الوغىٰ بل كان قلبك في جناحي طائر ؟!

الباب السادس

المرأة كريمة، منفقة!!

الفصل الأول

حديث القرآن الكريم عن الإنفاق

تحدث القرآن الكريم عن الإنفاق في أكثر من سبعين موضعاً ، ليدل علىٰ أهميته في حياة الفرد والجماعة ، ولو استعرضنا جميع تلك الحالات لوجدناها لا تختص بالذكورة دون الإناث ، إنما هي خطاب عام للإناث وللذكور ، من ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ [الحديد : ١٠] .

ومن ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] .

ومن ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ٢٦٢] .

ومن ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

ومن ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

ومنها قوله تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٦٧] .

وفي السنة النبوية الشريفة أحاديث كثيرة تحض المسلم ـ ذكراً أو أنثىٰ ـ علىٰ السخاء والإنفاق والكرم ، من ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه من أن رسول الله ﷺ قال : « السخيّ قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد عن النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار ، ولجاهل سخيٌّ أحب إلىٰ الله تعالىٰ من عابدٍ بخيل »[١] .

وروىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ صعد المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه ، وقال :

« يا أيها الناس ، إن الله قد اختار لكم الإسلام ديناً ، فأحسنوا صحبة الإسلام بالسّخاء وحسن الخلق ، ألا إن السخاء شجرة من الجنة وأغصانها في الدنيا ، فمن كان منكم سخياً لا يزال متعلّقاً بغصنٍ منها حتىٰ يورده الله الجنة ، ألا إن اللؤم شجرة في النار وأغصانها في الدنيا ، قال مرتين : السخاء في الله ، السخاء في الله »[٢] .

وروىٰ عبد الله بن مسعود وأبو هريرة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دخل علىٰ بلال رضي الله عنه وعنده صُبر[٣] من تمر فقال :

« ما هذا يا بلال ؟ »

قال : أعدُّ ذلك لأضيافك .

---

(١) رواه الترمذي رقم ١٩٦٢ في البر والصلة ، باب ما جاء في السخاء .

(٢) أخرجه ابن عساكر : [كنز العمال : ٣/ ٣١٠] .

(٣) جمع صُبرة ، وهي ما جمع بلا كيل أو وزن .

قال : « أما تخشىٰ أن يكون لك دخان في نار جهنم ، أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً » .

وقد سطر التاريخ أحداثاً ووقائع وقصصاً عن إنفاق المسلمين ـ نساءً ورجلاً ـ ، وما يهمنا هنا هو إنفاق المسلمات ، لذلك سنورد بعضاً من ذلك :

* * *

الفصل الثاني

نماذج من إنفاق أمهات المؤمنين

عرف عن أمهات المؤمنين السخاء والإنفاق ، حتىٰ لو كان بهنّ خصاصة ، من ذلك ما رواه البخاري ومسلم بالسند المتصل إلىٰ عائشة رضي الله عنها قالت :

قال رسول الله ﷺ : « أسرعكن لحاقاً بي أطولكنَّ يداً » .

قالت : فكنَّ يتطاولن أيتهنَّ أطول يداً ، وكانت أطولنا يداً زينب ، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدَّق .

وفي رواية أخرىٰ : فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمدّ أيدينا في الجدار نتطاول ، فلم نزل نفعل ذلك حتىٰ توفيت زينب بنت جحش ، وكانت امرأة قصيرة ، ولم تكن بأطولنا ، فعرفنا حينئذٍ أن النبي ﷺ إنما أراد طول اليد بالصدقة ، وكانت زينب امرأة صَناع اليدين ، فكانت تدبُغ .

ـ وفي ترجمة زينب بنت جحش رضي الله عنها ، يقول الإمام ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

قالت برَّة بنت رافع : لما خرج العطاء ، أرسل عمر رضي الله عنه إلىٰ زينب بالذي لها ، فلما أُدخل عليها قالت : غفر الله لعمر ، غيري من إخواني كان أقوىٰ علىٰ قسم هذا مني! قالوا : هذا كله لك ، قالت :

سبحان الله! واستترت منه بثوبٍ وقالت : ضعوه ، واطرحوا عليه ثوباً .

ثم قالت لي : ادخلي يدك فاقبضي منه قبضة ، فاذهبي بها إلىٰ بني فلان ، وبني فلان من أهل رحمها وأيتامها ، حتىٰ بقيت منه بقية تحت الثوب ، فقال لها برَّة : غفر الله لك ، يا أم المؤمنين ، والله لقد كان لنا في هذا حق .

قالت : فلكم ما تحت الثوب ؟

قالت : فوجدنا ما تحته خمسة وثمانين درهماً ، ثم رفعت يدها إلىٰ السماء فقالت : اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا ، فماتت!!

ويتابع ابن حجر قوله :

قالت زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين حين حضرتها الوفاة :

إني قد أعددت كفني ، وإن عمر رضي الله عنه سيبعث إليّ بكفنٍ ، فتصدقوا بأحدهما ، وإن استطعتم أن تصدَّقوا بحقوي[1] فافعلوا[2]!!

ـ وهكذا كان حال أم المؤمنين سودة رضي الله عنها ، حيث أخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين : أن عمر رضي الله عنه بعث إلىٰ سودة بغرارة[3] من دراهم ، فقالت : ما هذه ؟ قالوا : دراهم ، قالت : في غرارة مثل التمر ، فأمرت بتفريقها[4]!!

ـ وأما السيدة عائشة رضي الله عنها فكان لها باع طويل في ذلك :

من ذلك ما نقله الإمام ابن الجوزي رحمه الله : عن عطاء قال : بعث

---

(١) أي : الإزار الذي يكون علىٰ الخَصر .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة : ٤/ ٢٥٤ و٣١٥

(٣) أي : كيس كبير يوضع فيه القمح ونحوه .

(٤) حياة الصحابة للكاندهلوي : ٢/ ٢٣٦ .

معاوية إلىٰ عائشة بطوقٍ من ذهب فيه جوهر قُوِّم مائة ألف ، فقسمته بين أزواج النبي ﷺ .

ومن ذلك ما روته أم ذرَّة ـ وكانت تغشىٰ عائشة رضي الله عنها ـ قالت : بعث إليها عبد الله بن الزبير بمالٍ في غرارتين ، قالت : أراه ثمانين ومائة ألف ، فدعت بطبقٍ ، وهي يومئذٍ صائمة ، فجلس تقسمه بين الناس ، فأمست وما عندها من ذلك درهم ، فلما أمست قالت :

يا جارية ، هلمِّي فطري ، فجاءتها بخبزٍ وزيتٍ!!

فقالت لها أم ذرة : أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهمٍ لحماً نفطر عليه ؟

فقالت لها : لا تغضبي ، لو كنت ذكَّرتني لفعلت[1]!!

ـ ويروي الإمام ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ والإمام البخاري أيضاً عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أنه قال : ما رأيت امرأتين قط أجود من عائشة وأسماء رضي الله عنها ، وجُودُهما مختلف :

أما عائشة رضي الله عنها فكانت تجمع الشيء ، حتىٰ إذا اجتمع عندها قسَّمت .

وأما عائشة ، فكانت لا تمسك شيئاً لغد[2]!!

* * *

(١) صفة الصفوة : ٢/ ٣٠ .
(٢) صفة الصفوة : ٢/ ٥٩ .

الفصل الثالث

نساء مؤمنات في طريق الإنفاق والعطاء

وقد سار علىٰ هذه الخطىٰ الكثيرات من النساء المؤمنات القانتات :

ينقل الإمام ابن حبان البستي ـ رحمه الله ـ هذه القصة فيقول : قال محمد بن سليمان القرشي : بينما أنا أسير في طريق اليمن إذا أنا بغلام واقف علىٰ الطريق في أذنيه قرطان ، وفي كل قرط جوهرة يضيء وجهه من ضوء تلك الجوهرة ، وهو يمجِّد ربه بأبيات من شعر ، فسمعته يقول :

مليـكٌ فـي السمـاء بـه افتخـاري   عـزيـز القـدر ليـس بـه خفـاءُ

فدنوت إليه ، فسلَّمت عليه ، فقال : ما أنا برادٍّ عليك سلامك حتىٰ تؤدي من حقي الذي يجب لي عليك ، قلت : وما حقك ؟

قال : أنا غلام علىٰ مذهب إبراهيم الخليل ، لا أتغدَّىٰ ولا أتعشَّىٰ كل يومٍ حتىٰ أسير الميل والميلين في طلب الضيف .

فأجبته إلىٰ ذلك ، قال : فرحّب بي ، وسرت معه حتىٰ اقتربنا من خيمة شَعر ، فلما قربنا من الخيمة صاح : يا أختاه .

فأجابته من الخيمة : يا لبَّيكاه ، قال : قومي إلىٰ ضيفنا ، فقالت : اصبر حتىٰ أبدأ بشكر المولىٰ الذي سبب لنا هذا الضيف!

وقامت ، وصلت ركعتين شكراً لله ، قال : فأدخلني الخيمة ، وأخذ

شفرة فذبح شاة ، قال : وكنت أسارق الجارية النظر . وكانت حسنة الوجه جميلة . . فلما رأتني قالت : أما علمت أنه قد نُقل إلينا عن صاحب يثرب ﷺ أنه قال : زنا العينين النظر .

قال : فلما كان وقت النوم ، بتُّ أنا والغلام خارج الخيمة ، وباتت هي في الخيمة ، قال : فكنت أسمع دويَّ القرآن الليل كله أحسنَ صوتٍ يكون وأرقَّه . فلما أن أصبحت قلتُ للغلام : صوت من كان ذلك ؟

قال : تلك أختي تحيي الليل كله إلىٰ الصباح .

فقلت : يا غلام ، أنت أحق بهذا العمل من أختك ، أنت رجل وهي امرأة ! !

قال : فتبسم ، ثم قال : ويحك يا فتىٰ ، أما علمت أنه موفق ومخذول[١] .

* وينقل ابن خلكان في ترجمة زبيدة أم الأمين فيقول :

أنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الرَّاوية عندهم بدينار ، وأنها أسالت الماء عشرة أميال بحطِّ الجبال ونحوت الصخور ، حتىٰ غلغلته من الحلِّ إلىٰ الحرم ، وعملت عقبة البستان ، فقال لها وكيلها : يلزمك نفقة كثيرة ، فقالت : اعملها ولو كانت ضربة فأس بدينار .

فبلغت النفقة عليه ألف ألف وسبعمائة دينار (١٧٠٠٠٠٠) ورآها عبد الله بن المبارك في المنام فقال لها : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفر لي بأول معول ضُرب في طريق مكة[٢] .

* وينقل الإمام ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ كثيراً من تلك القصص ، منها : قال هشام بن حسان :

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (بتصرف) : ٢٥٩ .

(٢) وفيات الأعيان : ٢/ ٣١٥ .

خرجنا حجاجاً ، فنزلنا منزلاً في بعض الطريق ، فقرأ رجل كان معنا هذه الآية : ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر : ٤٤] فسمعت امرأة ، فقالت : أعد رحمك الله ، فأعادها ، فقالت : خلّفتُ لي في البيت سبعة أعبُدٍ ، أشهدكم أنهم أحرار لكل باب واحد منهم!!

... وكتب عبدة بن أبي لبابة إلىٰ شريك يقال له الحسن بن الخزّار : ادفع ثلاث مائة درهم إلىٰ أحوج أهل بيت بمكة .

فسأل ، فدُلَّ علىٰ بيت ، فوقف بهم ، فخرجت إليه امرأة كبيرة حسنة السمت ، فقال لها : بُعث إليّ بثلاث مائة درهم ، وأُمرت أن أدفعها إلىٰ أحوج أهل بيتٍ بمكة .

فقالت المرأة : إن كنت أمرت بهذا فما نحن هم ، وما لنا فيها من حق ، وأنا أعرف أهل بيتٍ أحوج منا!!

فسألها فدلّته عليهم ، فأعطاهم الدراهم ، وكتب إلىٰ عبدة يخبره بحال المرأة ، فكتب عبدة إليه : أن أضعفها ، أعطها ستمائة درهم[1] .

... وفي ترجمة حياة (أم البنين) ابنة عبد العزيز بن مروان أمور غريبة ، من ذلك قولها :

ما حسدت أحداً قط علىٰ شيء إلا أن يكون ذا معروف ، فإني كنت أحب أن أشركه في ذلك .

وكانت تقول : جُعل لكل قومٍ نهمة في شيء ، وجعلت نهمتي في البذل والإعطاء ، والله للصِّلة والمواساة أحبَّ إليّ من الطعام الطَّيبّ علىٰ الجوع ومن الشراب البارد علىٰ الظمأ .

وكانت تقول : أفٍّ للبخل ، لو كان قميصاً ما لبسته ، ولو كان طريقاً

---

(١) صفة الصفوة : ٢/ ٣٩ و٢٨٠ .

ما سلكته . وكانت تعتق في كل جمعة رقبةً ، وتحمل علىٰ فرسٍ في سبيل الله تعالىٰ[١] .

. . . وروىٰ الإمام البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال :

كانت منا امرأة تجعل في مزرعة لها سِلْقاً ، فكانت إذا كان يوم الجمعة تنزع أصول السلْقِ ، فتجعله في قِدْرٍ ، ثم تجعل قبضةً من شعير تطبخه ، فتكون أصول السلق عَرْقه .

قال سهل : كنا ننصرف إليها بعد صلاة الجمعة فنسلّم عليها ، فتقرّب ذلك الطعام إلينا ، فكنا نتمنىٰ يوم الجمعة لطعامها ذلك[٢] .

. . . تلكم بعض نماذج من حياة الصحابيات والتابعيات ومن سار علىٰ هذا الدرب ، ولم ننقل إلا بعضاً منها ، لنتبين حقيقة ساطعة وهي : أن النساء برزن في هذا المجال ، وقد سبقن كثيراً من الرجال ، لأنه لا فرق في من يقوم بالأعمال ، سواءً كان ذكر أو أنثىٰ ، والمهم هو العمل ذاته ، فإن كان حسناً كان القائم به كذلك ، وإن كان سيئاً كان كذلك . . .

* * *

---

(١) صفة الصفوة : ٤/ ٣٠٠ .

(٢) حياة الصحابة : ١/ ٣٢٣ .

الباب السابع

المرأة طبيبة، ممرضة، ناجحة

الفصل الأول

مدى اهتمام الإسلام بالطب

أمر رسول الله ﷺ الناس بأن يهتموا بالطب والتمريض ، وأن يبحثوا عن كل داء ويخترعوا له الدواء المناسب ، فقال عليه الصلاة والسلام : « تداووا عباد الله ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء ، غير واحد . قيل : يا رسول الله ، وما هو ؟ قال : الهرم » رواه البخاري والترمذي وابن ماجة وغيرهم .

وانطلق المسلمون يحللون آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ ، والتي تتحدث عن بعض جوانب الطب ، وذلك كقوله تعالىٰ وهو يحدثنا عن العلاج النفساني لكثيرٍ من الأمراض الجسمانية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] .

ومثل قوله أيضاً : ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ [فصلت : ٤٤] .

ومثل قوله سبحانه :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

وهكذا بيّن القرآن الكريم أن كل من اتبع القرآن والسنة بأنه سيكون سعيداً مرتاح البال ، مطمئناً ، غير معرَّض للاضطرابات النفسية و. . . فقال تعالىٰ :

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه : ١٢٣] .

وقد برع المسلمون بهذا العلم ـ أي علم الطب ـ وسبقوا الأوربيين كثيراً . فظهر (جابر بن حيان) الذي أكد أن تعادل المواد الكيماوية في جسم الإنسان ، هو الذي يعتبر حصانة من الأمراض ، ومتىٰ حصل هذا التعادل . نجد أن الإنسان تتكون عنده مناعة قوية ضد الأمراض الخطيرة مثل البرص أو الجذام. . .

وبرز (عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر والذي ولد في الأندلس عام ٤٨٦هـ) في مجال معالجة مرض السرطان في المعدة والبلعوم والمري. . . !!

ويعتبر المسلمون أول من عرف بعض الأمراض التي تنتقل بالعدوىٰ ، مثل مرض الجدري والكوليرا والطاعون ، كما أنهم أول من وضع الامتحانات الطبية للأطباء ، ومنحهم شهادة تحت إشراف لجنة متخصصة تعينها الحكومة ، وهم أول من عيَّن مستشفيات متخصصة لبعض الأمراض ، وكذلك فقد عينوا خبراء متميزين كل في تخصصه!![1] .

---

(١) انظر ما قاله ابن خلدون : صناعة التوليد صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه . وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر لما أنهن الظاهرات بعضهن علىٰ عورات بعض وتسمىٰ القائمة علىٰ ذلك منهن القابلة!!
وانظر إلىٰ كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف للطبيب الجراح الزهراوي ت(٤٠٤) كيف أفرد فصلاً كاملاً هو ـ الفصل الرابع والسبعون ـ سماه : تعليم القوابل كيف يعالجن الأجنة إذا خرجوا علىٰ غير الشكل الطبيعي. . . !!.

ويكفي دليلاً واضحاً علىٰ تقدم المسلمين في هذا الميدان ، اعترافات علماء أوروبة المعاصرين ، أمثال (رونلد كامبل) الذي قال : لقد بقيت جامعات أوروبة تستند تماماً علىٰ إسهامات علماء العرب في الطب ، بل إن مقراراتهم في كليات الطب بقيت تستعمل القانون لابن سينا ، والحاوي للرازي ، وغيرهما حتىٰ نهاية القرن السادس عشر الميلادي ! !

ومن عمالقة المسلمين في الطب : الرازي ، وعلي بن العباس ، وابن الجزار (ت ٣٩٩هـ) والذي ألف في الطب أكثر من عشرين مجلداً ، وعلي بن عيسىٰ الكحال (ت ٤٣٠هـ) وهو أول من استعمل التخدير في عمليات العيون ، وله مؤلفات منها كتاب في تشريح العين ، وكتاب تذكرة الكحالية ، وغيرهما . . . ، وابن سينا ، والزهراوي ، وآل زهر ، وعبد اللطيف البغدادي ، وابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) واشتهر في طب العيون ، وألف كتاباً قيِّماً أسماه : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، وابن القف (ت ٦٨٥هـ) ، وابن النفيس . . . وغيرهم .

* * *

الفصل الثاني

ما هو دور المرأة في هذا المجال؟!

لكن ما هو دور المرأة المسلمة في هذا المجال ؟!

برز من عمالقة الطب والتمريض بين النساء : نسيبة بنت الحارث الأنصارية ، أم عطية الجراحة الماهرة ، يقول الدكتور علي عبد الله الدفاع عنها : (كانت أم عطية الأنصارية مشهورة كطبيبة في الجاهلية ، ولكنها دخلت في الإسلام ، فغزت مع رسول الله ﷺ لتداوي الجرحىٰ ونالت شهرة عظيمة في الجاهلية والإسلام بالجراحة ، فكانت جراحة ماهرة للغاية)[1] .

وقد نقلنا في باب شجاعة المرأة أنها ـ أي نسيبة بنت الحارث ـ كانت تغزو مع سيدنا رسول الله ﷺ لتداوي الجرحىٰ وتطببهم ، وقد غزت معه سبع غزوات . . .

ويقول الدكتور كمال السامرائي عنها : وكان ختان الصبيان مألوفاً قبل الإسلام ، ويروىٰ أن الصحابية الجليلة أم عطية الأنصارية ظلت تمارس هذه العملية بعلم من النبي ﷺ ، وأنه قدم لها النصح في هذا الموضوع[2] .

---

(١) أعلام العرب والمسلمين في الطب : ٢٤ـ٢٥ .

(٢) الأمراض النسوية في التاريخ القديم وأخبارها في العراق الحديث : ٣٣ .

وقال عنها عمر رضا كحالة : نسيبة بنت الحارث الأنصارية ، ويقال لها نسيبة بنت كعب وهي أم عطية الأنصارية ، من فواضل نساء الصحابة ، كانت تغزو كثيراً مع رسول الله ﷺ فتمرض المرضىٰ ، وتداوي الجرحىٰ ، وشهدت غسل ابنة النبي ﷺ ، وكان جماعة من الصحابة وعلماء التابعين بالبصرة يأخذون عنها غسل الميت ، وروت عن النبي ﷺ وعن عمر رضي الله عنه أربعين حديثاً اتفقا علىٰ ستة ، وللبخاري حديث ، ومسلم آخر ، وروىٰ عنها : أنس بن مالك ، ومحمد بن سيرين ، وعبد الملك بن عمير ، وحفصة بنت سيرين ، وإسماعيل بن عبد الرحمن بن عطية ، وأم شراحبيل ، وعلي بن الأحمر[١] .

* وتلكم (الشفاء بنت عبد الله القرشية) ، ولدت بالجاهلية ، وروت اثني عشر حديثاً ، وكانت من فضيلات النساء ، ذات عقل وفضل ورأي سديد ، وقد أسلمت قبل الهجرة ، ثم هاجرت لتكون من المهاجرات الأوائل ، وكانت تقرأ وتعرف الكتابة وهي في العصر الجاهلي ، وكانت تشتغل بالرُّقىٰ ، وعندما أسلمت طلب منها رسول الله ﷺ أن تعلِّم حفصة بنت عمر بن الخطاب التي تزوجها النبي بعد عائشة ، فعلّمت حفصة أم المؤمنين الكتابة ورقية النمل ـ والنملة : قروح تخرج في الجنب ـ وكانت وفاتها عام (٢٠هـ)[٢] .

ويعلّق الدكتور عبد الله السعيد علىٰ ذلك بقوله :

لقد سمح رسول الله ﷺ للشفاء بنت عبد الله بمزاولة مهنة مداواة النملة ، وهي القروح بعد أن مارستها وعرضت عليه طريقة معالجتها

---

(١) أعلام النساء : ٥/ ١٧١ .

(٢) للتوسع عن ترجمة حياتها يراجع الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٤/ ٣٤١ ، والأعلام للزركلي : ٢٤٦ ، وأعلام النساء : ٢/ ٣٠٠ .

للقروح ، فقد سمّت باسم الله تعالىٰ الذي لا يضر ، ورجته بأن يزيل البأس ويكشف المرض ، وبعد ذلك استعملت الدواء الذي فيه شفاء القروح ، ألا وهو أن أخذت عوداً من الكركم ـ وهو نبات معمر اسمه العلمي كركومالونجا وله أزهار صفراء وأصوله تستعمل تابلاً وصبغاً والكركم فيه زيوت عطرية طيارة ويستعمل مطهراً للاستعمال الخارجي ـ ثم دلكت عود الكركم علىٰ حجر بخلٍّ خمر مصفىٰ ، فعلق علىٰ العود الدواء وطلته علىٰ القرحة!![1] .

وهذا ما أثبته العلم الحديث وتبنّاه ، بحيث أن حامض الخليك يوجد في العصير المتخمر للفواكه ، إضافة إلىٰ كحول أثيلي ، وهذه الكحول توجد بمعدل مائة غرام في الليتر الواحد من عصير العنب المتخمر ، وكذلك يحتوي علىٰ (٨٥٠) غراماً ماء و(٤) غرامات ترترات حامض البوتاس و(٨) غرامات غليسرين وسكر ، وديكسترين حوالي (١٦) غراماً ، ومواد آزوتية ، ومواد دهنية ، ومواد قابضة ، وعفص ، وحامض الخليك ، وحامض البروبيونيك ، وأملاح معدنية من فوسفات وسلفات وكلوريد[2] .

فمن الذي علّم هذه الطبيبة المسلمة أن في الكركم هذه المنافع كلها ؟! ثم من أي الجامعات تخرّجت ؟! وفي أيّ المستشفيات تخصصت ؟!

* وتلكم الطبيبة زينب من بني أود :

والتي اشتهر صيتها ، حيث تخصصت بمداواة آلام العين

---

(١) الطب ورائداته المسلمات : ٨٢ـ٨٣ .

(٢) من كتاب (غذاؤك حياتك) للدكتور محمد علي الحاج : ١٤١ .

والجراحات ، وعاشت في أواخر العهد الأموي ، قال عنها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني :

أخبرنا محمد بن خلف المرزبان قال : حدثني حماد بن إسحاق عن أبيه عن كناسة عن أبيه عن جده قال : أتيت امرأة من بني أود لتكحلني من رمد كان قد أصابني فكحلتني ، ثم قالت : اضطجع قليلاً حتىٰ يدور الدواء في عينك ، فاضطجعت ثم تمثلت قول الشاعر :

أمخترمي ريب المنون ولم أزر   طبيب بني أود علىٰ النأي زينبا

فضحكت ، ثم قالت : أتدري فيمن قيل هذا الشعر ؟

قلت : لا!

قالت : فيَّ والله ، وأنا زينب التي عناها ، وأنا طبيبة بني أود ، أفتدري من الشاعر ؟

قلت : لا!

قالت : عمك أبو سماك الأسدي .

* وتلكم الطبيبة الشاعرة (أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجاني) نشأت في حجر أبيها والذي درسها الطب ففهمت أغراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه ، وهي من أهالي (لَوْشة ـ قريبة من قرطبة ـ) بالأندلس ، وكانت تجوِّد القرآن ، وتشارك في فنون الطب ، وتنظم الشعر . . .(١) .

* وأما طبيبات بني زهر الأندلسيات :

ـ تلكم العائلة عائلة بني (زهر) الشريفة العريقة ، والتي اشتهرت

---

(١) الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، تأليف : مجوعة من الأطباء والكتاب المعاصرين ، بإشراف الدكتور محمد كامل حسين ص ٢٣٥ .

بعلوم الطب ، وتفقه أبناؤها أيضاً بالأدب والفقه واللغة والحديث ـ وبرز من طبيباتها شقيقة الحفيد أبي بكر بن زهر ، الطبيب المشهور الملقب بالحفيد ، وكذلك ابنة شقيقته تلك ، وابنته التي يدعوها البعض بالحفيدة بنت الحفيد وابنتها ، وجميعهن كن ماهرات في صناعة الطب والمداواة ، ولهن خبرات ممتازة فيما يتعلق بالأمراض النسوية والولادة ، وعاشت هذه الأسرة في إشبيلية بالأندلس وذلك في الفترة الواقعة بين القرن (١١) و(١٣) الميلادي .

وفي ذلك يقول أنور الرفاعي : إن ابنة الحفيد صارت من أشهر الأطباء في عصرها ، وكانت مولدة باهرة بجانب قدرتها علىٰ العلاج العام لسائر أمراض النساء ، كما خلفتها ابنتها التي امتهنت الطب ، ولذا فقد ذاع صيتها بالولادة وعلاج بعض الأمراض المستعصية[١] .

وتحدث ابن أبي أصيبعة عن هذه العائلة فقال : وكانت مع الحفيد أيضاً بنت أخته ، وكانت أخته وبنتها هذه عالمتين بصناعة الطب والمداواة ، ولهما خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان إلىٰ نساء المنصور ، ولا يقبل ـ تتولىٰ قبالة نساء أهله أي توليدهن ـ للمنصور وأهله ولداً إلا أخت الحفيد وابنتها لما توفيت أمها[٢] .

* وأما الطبيبة بنت الطبيب :

هي ابنة رئيس الأطباء بدار الشفاء المنصوري في القاهرة ، ذلكم الطبيب الشهير أحمد بن سراج الدين الملقب بشهاب الدين (ت ١٠٣٦هـ) . لم يخلف إلا بنتاً وبعد وفاته تولت مكانه مشيخة الطب ، وصار الناس يشيرون إليها بالبنان. . . !

---

(١) الإسلام في حضارته ونظمه : ٦٠٣ .
(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ٥٢٤ .

* بعد كل هذا : لن ننسىٰ ما كانت تقوم به السيدة رفيدة ، وأم سنان ، وكعيبة بنت سعد الأسلمية ، وأمينة بنت قيس الغفارية ، والشفاء ، في مجال المداواة والطب والجراحة . . . وغيرهن كثيرات . . .

كل ذلك لنستدل علىٰ أن المرأة سارت عبر التاريخ الإسلامي جنباً إلىٰ جنب مع الرجل ، لم تتخلف عنه ، بل كان له السبق عليها في بعض الجوانب ، وكانت لها السبق عليه في البعض الآخر[1] .

* * *

(١) أهم مصادر هذا الباب كتاب الدكتور علي عبد الله الدفاع (أعلام العرب والمسلمين في الطب) وكتاب الدكتور عبد الله السعيد (الطب ورائداته المسلمات) .

الباب الثامن

المرأة ذكيّة

الفصل الأول

العقل في الميزان الشرعي

لقد ميّز الله سبحانه وتعالىٰ الإنسان عن غيره من المخلوقات بأن كمَّله بالعقل ، وقد وردت آثار كثيرة تدلُّ علىٰ أفضلية العقل .

من ذلك مارواه عطاء قال : دخل عبد الله بن عباس علىٰ عائشة ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ فقال : يا أم المؤمنين! أرأيت الرجل يقلُّ قيامه ويكثر رقاده ، وآخر يكثر قيامه ويقلُّ رقاده ، أيهما أحب إليك ؟

قالت : سألت رسول الله ﷺ كما سألتني عنه فقال : « أحسنهما عقلاً » ، قلت : يا رسول الله أسألك عن عبادتهما .

فقال يا عائشة : « إنما يسئلان عن عقولهما فمن كان أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة » .

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تعجبوا بإسلام امرىء حتىٰ تعرفوا عقدة عقله » .

ومن ذلك ما رواه وهب بن منبه قال : قال لقمان الحكيم لابنه ذات يوم :

يا بني اعقل عن الله عز وجل ، فإن أعقل الناس عن الله عز وجل أحسنهم عملاً ، وإن الشيطان ليفرُّ من العاقل وما يستطيع أن يكابده ،

يا بني : ما عبد الله بشيء أفضل من العقل[1] .

وقد تكلم القدماء عن حد الذكاء فأجادوا ، ومن ذلك قول بعضهم : حد الذكاء هو سرعة الفهم وحدته ، أو هو جودة حدس من هذه القوة تقع في زمان قصير غير مهمل ، فيعلم الذكي معنىٰ القول عند سماعه .

وأفضل ما يستدل علىٰ عقل العاقل هو أفعاله وأقواله ، وهذا ما شرحه أبو الدرداء رضي الله عنه بقوله : ألا أنبئكم بعلامة العاقل ؟ يتواضع لمن فوقه ، ولا يزدري من دونه ، يمسك الفضل من منطقه ، يخالق الناس بأخلاقهم ويحتجز الإيمان فيما بينه وبين ربه عز وجل ، فهو يمشي في الدنيا بالتقية والكتمان .

وقد نصح لقمان ابنه فقال :

يا بني ما يتم عقل امرىء حتىٰ يكون فيه عشر خصال : الكبر منه مأمون والرشد فيه مأمول ، يصيب من الدنيا القوت وفضل ماله مبذول ، التواضع منه أحب إليه من الشرف ، والذل أحب إليه من العز ، لا يسأم طلب الفقه طول دهره ، ولا يتبرم من طلب الحوائج من قبله ، يستكثر قليل المعروف من غيره ، ويستقل كثير المعروف من نفسه ، والخصلة العاشرة التي بها مجده وأعلىٰ ذكره أن يرىٰ جميع أهل الدنيا خيراً منه وإنه شرُّهم ، وإن رأىٰ خيراً منه سره ذلك وتمنىٰ أن يلحق به ، وإن رأىٰ شراً منه قال : لعل هذا ينجو وأهلك أنا فهنالك حين استكمل العقل .

لكن هل الذكاء أمرٌ خاص بالذكور دون الإناث ؟! أم هل الإناث أقلُّ ذكاءً من الذكر ؟ أم . . . ؟!

---

(١) وقد فصَّلت القول في ذلك في كتاب : تفكُّر ساعة : ٣٧ـ٥٢ .

من خلال استعراض كثيرٍ من الوقائع والأحداث ، يتبين أن الرجل والمرأة سواء في هذا الأمر فلا يوجد واحد أذكىٰ من الآخر ، بل قد نجد كثيراً من النساء أكثر استخداماً لعقولهن إلىٰ جانب كثيرٍ من الرجال يضيعون عقولهم في الخمر والشهوات و . . . !!

* * *

الفصل الثاني

النساء... والذكاء

* ولو عدنا أدراجنا إلىٰ تاريخ العرب من قبل الإسلام لوجدنا قصصاً كثيرة تتحدث عن ذكاء النساء ، من ذلك مثلاً قصة المثل المعروف (وافق شنٌّ طبقة) والقصة المعروفة (لن يبرح العبدان حتىٰ يُقتلا)[١] .

وأكتفي بنقل قصة رواها العلامة الألوسي يقول فيها[٢] :

قال عبد الملك بن عمير : قدم علينا عمر بن هبيرة الكوفة ، فأرسل إلىٰ عشرة أنا أحدهم من وجوه الكوفة ، فسمروا عنده ، ثم قال : ليحدثني كل رجل منكم أحدوثة ، وابدأ أنت أبا عمرو ، فقلت : أصلح الله الأمير ، أحديث الحق أم حديث الباطل ؟

قال : بل حديث الحق .

قلت : إن امرأ القيس آلىٰ بأليّة[٣] ألا يتزوج امرأة حتىٰ يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين ، فجعل يخطب النساء ، فإذا سألهنّ عن هذا ، قلن : أربعة عشر .

---

(١) تراجع قصة : ذكاءٌ لا مثيل له : الجزء الأول والثاني للمؤلف .

(٢) كتاب : بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب : ١/ ٢٨-٢٩ .

(٣) أي : أقسم قسماً .

فبينا هو يسير في جوف الليل إذا هو برجل يحمل ابنةً له صغيرة ، كأنها البدر ليلة تمامه ، فأعجبته ، فقال لها : يا جارية ، ما ثمانية وأربعة واثنتان ؟

فقالت : أما ثمانية فأطْبَاء[١] الكلبة ، وأما أربعة فأخلاف[٢] الناقة ، وأما اثنتان فثديا المرأة .

فخطبها إلىٰ أبيها ، فزوّجه إياها ، وشرطت عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال ، فجعل لها ذلك ، وأن يسوق إليها مائة من الإبل ، وعشرة أعبُد وعشر وصائف وثلاثة أفراس ، ففعل ذلك .

ثم إنه بعث عبداً له إلىٰ المرأة ، وأهدىٰ إليها نحياً ـ وعاءً ـ من السمن ، ونحياً من عسل ، وحُلّة من عَصب[٣] ، فنزل العبدُ ببعض المياه فنشر الحلّة ولبسه ، فتعلّقت بعُشرة[٤] فانشقت ، وفتح النحيين ، فطعم أهل الماء فنقصا .

ثم قدم علىٰ حيّ المرأة وهم خُلُوف[٥] ، فسألها عن أبيها وأمها وأخيها ، ودفع إليها هديتها ، فقالت : أعلم مولاك أن أبي ذهب يقرِّب بعيداً ، ويبعِّد قريباً ، وأن أمي ذهبت تشق النفس نفسين ، وأن أخي يراعىٰ الشمس ، وأن سماءكم انشقت ، وأن وعاءيكم نضبا !!

فقدم الغلام علىٰ مولاه فأخبره ، فقال : أما قولها : إن أبي ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً ، فإن أباها ذهب يخالف قوماً علىٰ قومه ، وأما

---

(١) أي : حلمات الضرع .
(٢) أي : حلمات ضرع الناقة .
(٣) أي : نوع من البرود ، مفردها بردة .
(٤) أي : نوع من الشجر ، كبير الحجم ، يتميز بصمغة الحلو .
(٥) أي : غائبون .

قولها : ذهبت تشق النفس نفسين ، فإن أمها ذهبت تَقْبَل امرأة نفساء[١] ، وأما قولها : إن أخي تراعىٰ الشمس ، فإن أخاها في شَرْح[٢] له يرعاه فهو ينظر وجوب[٣] الشمس ليروح به ، وأما قولها : إن سماءكم انشقت ، فإن البُرد الذي بعثتُ به انشقّ ، وأما قولها : إن وعاءكم نضباً ، فإن النحيين اللذين بعثت بهما نقصا ، فاصدقني!

قال : يا مولاي ، إني نزلت بماءٍ من مياه العرب ، فسألوني عن نسبي ، فأخبرتهم أني ابن اعمك ، ونشرت الحلّة ، فانشقّت ، وفتحت النحيين ، فأطعمت منهما أهل الماء ، فقال : أولىٰ لك[٤] .

ثم ساق مائة من الإبل وخرج نحوها ومعه الغلام ، فنزلا منزلاً ، فخرج الغلام يسقي الإبل فعجز ، فأعانه امرؤ القيس ، فرمىٰ به الغلام في البئر ، وخرج حتىٰ أتىٰ أهل المرأة بالإبل ، وأخبرهم أنه زوجها ، فقيل لها : قد جاء زوجك ، فقالت : ما أدري أزوجي هو أم لا ، ولكن انحروا له جزوراً وأطعموه من كرشها وذَنبها ، ففعلوا ، فأكل ما أطعموه ، فقالت : اسقوه لبناً حازراً[٥] ، فسقوه ، فشرب ، فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم ، ففرشوا له ، فنام .

فلما أصبحت أرسلت إليه : إني أريد أن أسألك ، فقال : سلي عما شئتِ ، فسألته فلم يُعجبها جوابه ، فقالت : عليكم العبد فشدّوا أيديكم به ففعلوا .

---

(١) أي تعمل عمل القابلة في توليد المرأة الحامل .
(٢) أي : الإبل السائبة .
(٣) أي : غروبها .
(٤) أي : توعده وهدده .
(٥) أي : حامضاً .

قال : ومرّ قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر ، فرجع إلىٰ حيّه ، فقالت : والله ما أدري أو زوجي أم لا ؟!

ولكن انحروا جزوراً فأطعموه من كرشها وذنبها ، ففعلوا ، فلما أتوه بذلك قال : وأين الكبد والسَّنام والملحاء[1] ؟ وأبىٰ أن يأكل ، فقالت : اسقوه لبناً حازراً ، فأبىٰ أن يشربه وقال : فأين الصريف[2] ، والرثيئة[3] ، فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم ، فأبىٰ أن ينام وقال : افرشوا لي فوق التلْعة[4] الحمراء ، واضربوا عليها خباء .

ثم أرسلت إليه : هلمَّ شريطتي عليك في المسائل الثلاث ، فأرسل إليها أن سلي عما شئت ، فسألته ، فأعجبها جوابه ، فقالت : هذا زوجي لعمري ، فعليكم به ، واقتلوا العبد ، فقتلوه ودخل امرؤ القيس بالجارية .

* وهكذا نتابع المسيرة لنتبين أحداثاً كثيرة تدل علىٰ ذكاء النساء ، من ذلك ما رواه ابن القيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ قال : وفدت (عزَّة) و(بثينة) علىٰ عبد الملك بن مروان فلما دخلتا عليه انحرف إلىٰ (عزة) وقال لها : أنتِ عزة كثير ؟ قالت : لست لكثير بعزة ولكني أم بكر الضمرية ، قال : أتروين قول كثير فيك ؟

لقد زعمت أني تغيرت بعدها ... ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيّر
تغيّر جسمي والخليقة كالتي ... عهدت ، ولم يخبر بسرّك مخبر

قالت : لست أروي هذا ، ولكني أروي غيره ، حيث قال :

---

(١) أي : اللحم الممتد من الصلب إلىٰ العجز في البعير .
(٢) أي : الحليب الحار ساعة يُحلب .
(٣) أي : اللبن الحليب يصب عليه اللبن الحامض فيروب من ساعته .
(٤) أي : الأرض المرتفعة .

كأني أنادي صخرة حين أعرضت		من الصم لو يمشي بها العصم زلّتِ
صفوحاً فما تلقاك إلا بحيلة		فمن ملّ منها ذلك الوصل ملّت

ثم عطف علىٰ بثينة فقال لها : ما رأىٰ جميل حين لهج بذكرك بين النساء كلهن ؟

قالت : الذي رأىٰ فيك الناس حين جعلوك خليفة بين رجال العالمين ! !

فضحك حتىٰ بدت سن له سوداء ، كان يخفيها ، وأجزل جائزتهما وقضىٰ حوائجهما .

ثم ينقل الإمام قصةً أخرىٰ لنستدل بها علىٰ سرعة وحسن جواب النساء الذكيات ، فيقول : مرّت امرأة بقوم من بني نمير فرشقوها بأبصارهم وأداموا النظر إليها ، فقالت : قبحكم الله يا بني نمير ، فو الله ما أخذتم بقول الله تبارك وتعالىٰ :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور : ٣٠] .

ولا بقول الشاعر ـ وهو جرير ـ :

فغضِّ الطرف إنك من نمير		فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

فخجل القوم مما قالت وأطرقوا[1] .

* وينقل الإمام السبكي قصةً عن ذكاء أم الإمام الشافعي فيقول :

كانت أم الشافعي رضي الله عنه باتفاق النّقلة من العابدات القانتات ، ومن أذكىٰ الخلق فطرة ، وهي التي شهدت هي وأم بشر المريسي بمكة عند القاضي ، فأراد أن يفرّق بينهما ، ليسألهما منفردتين عما شهدتا به

---

(١) أخبار النساء : ٣٤ و١٤٨ .

استفساراً ، فقالت له أم الشافعي : أيها القاضي ليس لك ذلك ، لأن الله تعالىٰ يقول :

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

فلم يفرِّق بينهما[١]!!

■ وأما الإمام أبو الفرج ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ فقد أفرد في كتابه (الأذكياء) باباً مستقلاً عنوانه : (طرف من أخبار النساء والمتفطنات) أورد فيه عدداً من القصص والأحداث التي تدل علىٰ ذكاء النساء وعلىٰ سرعة وحسن جوابهن ننقل منها :

عن محمد بن معبد الغفاري قال : أتت امرأة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت :

يا أمير المؤمنين ، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل ، وأنا أكره أن أشكوه ، وهو يعمل بطاعة الله ، فقال لها : نِعْمَ الزوج زوجك ، فجعلت تكرر عليه القول وهو يكرر عليها الجواب ، فقال له كعب الأسدي : يا أمير المؤمنين ، هذه المرأة تشكو زوجها من مباعدته إياها عن فراشه ، فقال له عمر : كما فهمت كلامها فاقض بينهما ، فقال كعب : عليّ بزوجها ، فأتي به ، فقال له : إن امرأتك هذه تشكوك ، قال : أفي طعام أو شراب ؟ قال : لا ، فقالت المرأة :

يا أيها القاضي الحكيمُ أرشده ألهىٰ خليلي عن فراشي مسجده
زهّده في مضجعي تعبُّدُه نهاره وليله ما يرقدُه
ولستُ في أمر النساء أحمدُه

---

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ : ٢/ ١٨٠ .

فقال زوجها :

زهدتُ في فراشها وفي الحَجلْ إنـي امـرؤٌ أذهلنـي مـا قـد نَـزَلْ
وفي سورة النمل وفي السّبع الطّول وفـي كتـاب الله تخـويـفٌ جَلَـلْ

فقال كعب :

إن لهـا حقـاً عليـك يـا رجُـلْ تصيبُهـا فـي أربـعٍ لمـن عَقَـلْ
فـأعطهـا ذاك ودع عنـك العلـلْ

ثم قال : إن الله عز وجل قد أحلَّ لك من النساء مثنىٰ وثلاث ورباع ، فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيها ربك ، ولها يوم وليلة ، قال عمر : والله ما أدري من أي أمريك أعجب ، أفمن فهمك أمرها ، أم من حكمك بينهما ، اذهب فقد وليتك قضاء البصرة!!

. . . وقال أبو الحسن المدائني : دخل عمران بن حطان يوماً علىٰ امرأته ، وكان عمران قبيحاً ذميماً قصيراً ، وقد تزينت ، وكانت امرأة حسناء ، فلما نظر إليها ازدادت في عينه جمالاً وحسناً ، فلم يتمالك أن يديم النظر إليها ، فقالت : ما شأنك ؟ قال : لقد أصبحت والله جميلة ، فقالت : أبشر فإني وإياك في الجنة!!

قال : ومن أين علمت ذلك ؟

قالت : لأنك أُعطيت مثلي فشكرت ، وابتليت سلامته بمثلك فصبرت ، والصابر والشاكر في الجنة .

. . . وحدثنا ابن الشيظمي قال : حججت في سنة قحطة جدبة ، فبينا أنا أطوف بالكعبة ، إذ أبصرت جارية من أحسن الناس قدّاً وقواماً وخلقاً ، وهي متعلقة بأستار الكعبة تقول :

إلهي وسيدي ، ها أنا أمتك الغريبة وسائلتك الفقيرة حيث لا يخفىٰ

عليك بكائي ، ولا يستتر عنك سوء حالي ، قد هتكت الحاجة حجابي وكشفت الفاقة نقابي ، فكشفت وجهاً رقيقاً عند الذل ، وذليلاً عند المسألة ، طال وعزتك ما حجبه عنه ماء الغناء وصانه ماء الحياء ، قد جمدت عني كف المرزوقين ، وضاقت بي صدور المخلوقين ، فمن حرمني لم ألمه ، ومن وصلني وكلته إلىٰ مكافأتك ورحمتك ، وأنت أرحم الراحمين .

قال : فدنوت منها فبررتها ، ثم قلت لها : من أنت ؟ وممن أنت ؟

فقالت : إليك عني ، من قل ماله ، وذهب رجاله كيف يكون حاله ، ثم أنشأت تقول :

بعض بناتِ الرجال أبرزها | الدهر لما قَدْ ترىٰ وأخرجها
أبرزها من جليل نعمتها | فابتزّها ملكها وأحوجها
وطالما كانت العيونُ إذا | ما خرجت تستشف هودجها
إن كان قد ساءها وأحز | نها فطالما سرّها وأبهجها
الحمد لله ربّ معسرة | قد ضمن الله أن يفرجها

قال : فسألت عنها ، فأخبرت أنها من ولد الحسين بن علي رضوان الله عليهم أجمعين .

. . . . وقال إسماعيل بن حمادة بن أبي حنيفة قال : حدثنا علي بن القاسم القاضي قال : سمعت أبي يقول : كان موسىٰ بن إسحاق لا يُرىٰ مبتسماً قط .

فقالت له امرأة : أيها القاضي ، لا يحل أن تحكم بين اثنين وأنت غضبان .

قال : ولم ؟

قالت : لأن النبي ﷺ قال : « لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان »[١] فتبسم[٢]!!

هذه طائفة من القصص والأحداث نقلناها من كتب التراث ، والتي فيها الكثير الكثير ، وكلها تدلُّ أن الإنسان سواءً كان ذكراً أو أنثىٰ ، ميّزه الله تعالىٰ عن المخلوقات الأخرىٰ بأن أكرمه بالعقل ، والمشكلة الرئيسية هي أن يستخدم الإنسان عقله ، وفي أي مجال! ؟

* * *

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٩٨٦٦) ، وللحديث روايات عديدة في كتب الصحاح والأسانيد والسند .

(٢) للتوسع يراجع كتاب الأذكياء : ٢٣٦ـ٢٦٣ .

الباب التاسع

المرأة داعية إلى الله تعالى

الفصل الأول

منهج الدعوة إلى الله تعالى

تهدف الدعوة الإسلامية إلىٰ جمع الناس علىٰ الخير ، وإلىٰ رشادهم إلىٰ طريق الهداية ، وذلك عن طريق الالتزام بمبادىء الإسلام الحنيف ، وهناك توجيهات كثيرة ، منها قول الله تعالىٰ :

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان : ١٧] .

ولا يُقصد بالدعوة هنا رفع الشعارات فقط ، ولا الانزواء في محاريب المساجد وتلاوة القرآن و. . . إنما هي الاندماج الحقيقي ـ من جميع النواحي ـ مع حياة الإنسان ، فالفلاح في مزرعته يدعو الله من خلال عمله القويم وأمانته وتوكله علىٰ الله ، والموظف يدعو إلىٰ الله من خلال بُعده عن الرشوة ، والفرد يدعو إلىٰ الله من خلال تلاحمه مع أفراد مجتمعه وحبه للناس ، وهكذا فكلٌّ يدعو إلىٰ الله من خلال ما سخره الله من خلال للقيام بعمل ما ، وإلا فالقول بدون عمل أمر مذموم في نظر الإسلام ، كما قال تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢ـ٣] .

وقوله :

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] .

ولو عدنا إلىٰ الماضي السحيق ، لرأينا أن جميع الأمم أرسل الله لها رسلاً يبلغونهم دعوة الله ، وذلك لكي تُقام الحجة عليهم ، وهذا ما نراه صريحاً في القرآن :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [النحل : ٣٦] .

ولحكمةٍ يريدهاالله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ كانت الرسالة الخاتمة التي أُنزلت علىٰ قلب سيدنا محمد ﷺ رسالةً للعالمين أجمعين ، لم تختص بأمة العرب فقط ، وإنما كانت شاملة عامة ، كما في قول قول الله تعالىٰ :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٢٨] .

وقوله : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

كل ذلك دليل واضح علىٰ كمال وتمام شريعة الإسلام ، فلا ضرورة بعدها لنزول أي شريعة أخرىٰ ، ولذلك قال تعالىٰ :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

ويُستنبط من هذا ، أن علىٰ المسلمين جميعاً ـ ذكوراً وإناثاً ـ عليهم أن يحملوا لواء الدعوة إلىٰ الله ، منذ أن بلغ النبي المصطفىٰ الدعوة وحتىٰ يرث الله الأرض من عليها ، فهم وحدهم العالميون ، وعليهم تحمل

الأعباء في سبيل ذلك ، ويجب أن يجاهدوا من أجل ذلك حق الجهاد ، فإذا فعلوا ذلك تحقق قول الله فيهم :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وأما منهج الدعوة إلىٰ الله ، فيتلخص بالفطرة والحكمة والموعظة الحسنة .

حيث لم يُعرف عن الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ أنهم حملوا السلاح أو أمروا بالقتل والانقلابات و . . . من أجل الدعوة ، إنما كانوا كما صوّرهم القرآن :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

كما في قوله عن لقمان : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان : ١٢] .

وقوله عن سيدنا عيسىٰ عليه السلام :

﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة : ١١٠] .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

وقوله أيضاً : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

وقوله : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

لكن السؤال المطروح هنا : هل اختص الذكور دون الإناث في موضوع الدعوة إلىٰ الله ؟ وهل النساء غير مطالبات بهذا الأمر ؟! أم هل أن

الدعوة إلىٰ الله واجبة علىٰ النساء كما هي واجبة علىٰ الرجال ؟!

لم تميِّز الشريعة الإسلامية بين الإناث والذكور في وجوب الدعوة إلىٰ الله ، وهذا نقرأه في القرآن الكريم ، والأحاديث الشريفة ، وهذا ما سنتبيّنه في سيرة الصحابيات والتابعيات ، من ذلك قول الله :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وقوله أيضاً : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

والأتباع أتباع ، سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً .

وقوله أيضاً : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة : ٧١] .

وقوله صلوات الله عليه فيما رواه الطبراني والحاكم : « من رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

ثم لندقق النظر في قول الله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

ثم لنطرح أسئلة : هل خصصت الآية الدعوة إلىٰ الله ، والعمل الصالح ، والانتماء إلىٰ الإسلام بالرجال فقط ؟! وهل أخرجت النساء من هذا الميدان ؟!

: أبداً ، فمن قال ـ سواءً كان أنثىٰ أو ذكراً ـ إنه مسلم ، ودعا إلىٰ الله ، وعمل صالحاً ، كان جزاؤه سعادة في الدنيا ونعيم سرمدي في الآخرة .

* * *

الفصل الثاني

دور المرأة المسلمة في حركة الدعوة إلى الله تعالى

ويعلق الدكتور توفيق الواعي على ذلك بقوله :

جاءت أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالنسبة للمرأة على ثلاثة أقسام :

القسم الأول عام يشمل الرجل والأنثى على سواء ، كقوله تعالى :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

وقوله ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

القسم الثاني : صريح في إشراك المرأة مع الرجل ، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، من مثل قوله تعالى :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] .

فلم يفرّق الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الشريفة صراحة بين الرجل والمرأة في إيجاب فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل جعلها

مشاركة للرجل في أعباء الدعوة وحمل المنهج .

القسم الثالث : بيعة الرسول ﷺ للنساء على القيام بأمر المنهج وحمل الدعوة والاستقامة عليها وتنفيذ تعاليمها ، وبيعة النساء معروفة في القرآن الكريم ، وهي في قوله تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[الممتحنة : ١٢] .

وهذه البيعة وإن كانت تخالف بيعة الرجال إلا أنها أخذت عليهن علىٰ ما يستطعن أن يقمن به من أعمال وأفعال تناسب وضعهن مراعاة للفرق بين أعباء الرجل وأعباء المرأة وطبيعة كل منهما[١] .

ثم كيف يُهمل دور المرأة في الدعوة إلىٰ الله ؟ مع أن لها التأثير الكبير في الفرد والمجتمع ، إنها تؤثر علىٰ أكثر من ثلثي المجتمع ! !

فهي تؤثر علىٰ الفرد وهو يتدرج في مراحله الأولىٰ ، إنها تدعو الله من خلال تنشئة أولادها علىٰ حب الله ورسوله وكتابه والمسلمين .

وهي تقف إلىٰ جانب الرجل في تبليغ الدعوة ، وذلك في مرحلة شبابه ، أو زواجه منها ، هي المرأة الواعية التي لا تبهرها الموضات والصرعات ، إنما لها الدور الكبير في الدعوة الله ، وفي تحقيق الهدف الأسمىٰ والرسالة الخالدة .

وكم للمرأة الدور الكبير من خلال التعليم ، تعليم أطفالها الفضيلة ،

---

(١) بتصرف واختصار من النساء الداعيات : ٤٤-٤٧ .

وتعليم الجيل ـ إن استطاعت أن تعلم في المدارس والجامعات ـ القيم والمبادىء ؟

وكم للمرأة الدور العظيم في مجال التمريض والتطبيب ـ وقد تحدثنا عن ذلك في فصل سابق ـ ؟

وكم للمرأة الدور الكبير في مساعدة الفقراء والأرامل والمساكين ، وذلك من خلال عملها في مجال الخياطة ونحوه ؟

وكم لها الدور الكبير في معالجة الشقاق بين أقرانها وجيرانها ؟

وكم لها الدور الكبير في مساعدة الدولة علىٰ محو الأمية بين أفراد المجتمع ، وخاصة بين بنات جنسها ؟

وكم لها الدور الكبير في الوقوف مع زوجها : تساعده ، تنظم بيته ، تربي أولاده ، تقتصد بوسطية ، تنفق عليه إن لزم الأمر ؟

وكم لها الدور الكبير في جميع مجالات الخدمات الاجتماعية ؟

إن المرأة المسلمة ـ وخاصة في هذه الأيام ـ تستطيع أن تمارس الدعوة إلىٰ الله عن طرق عدَّة ، بالقول ، بكشف زيف المغرضين ، بمواجهة التيارات الدخيلة ، بالإقناع والحجج ، بمعرفة مؤامرات الأعداء والمستشرقين ، بالتعرف والصلة بينها وبين من تستطيع اللقاء بهن من النساء ، بالتركيز علىٰ معرفة تراجم الصحابيات ومن بعدهن من الملتزمات . . .

ثم لو أمكن للمسلمة أن تتعدىٰ ذلك : فتكتب في الصحافة ، وتحاضر هنا وهناك ، وتحضر مجالس العلم ، وتثقف نفسها ومن حولها ، وتكوِّن مكتبة في بيتها ، وتشجع أولادها علىٰ كل ما يرضي ربها ورسوله . . .

وفي تاريخ السلف خير دليل علىٰ ما قلناه :

* ها هي (خديجة بنت خويلد) رضي الله عنها ، تعلن إسلامها منذ اللحظات الأولىٰ لنزول الوحي ، لتكون بذلك أول امرأة مسلمة ، ولتدخل التاريخ من أنصع أبوابه ، لكن هل اكتفت بذلك ؟

إن موقفها الرائع يتجسد في طمأنة رسول الله ﷺ حين هاله ما رأىٰ فقالت قولتها الشهيرة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين علىٰ نوائب الحق(١) .

ثم ماذا ؟ لقدانطلقت إلىٰ ورقة بن نوفل لتخبره بما حدَّثها به رسول الله ﷺ ، فعاد معها إليه ، وأخبره أن هذا هو الوحي الذي أنزل علىٰ عيسىٰ وموسىٰ عليهما السلام ، ثم راحت تقف معه بجاهها ومالها وحنانها وعطفها وحبها وتقديرها و . . . فاستحقت بشارة الله لها ببيت لا نصب فيه ولا تعب ، في جنة عرضها السماوات والأرض ، إنها امرأة ، لكنها عرفت بعد أن نظرت ، واتبعت بعد أن عرفت ، أما كثير من الرجال وقتها ، فعرفوا بعد أن نظروا ، لكنهم بدل أن يتبعوا عاندوا وأصروا واستكبروا ، فكان بدل البشارة لهم ويل وثبور وهلاك ! !

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾

[المسد : ١ـ٥] .

* وتلكم (أم شريك الأسدية) رضي الله عنها :

بعد أن أسلمت في مكة ، راحت تدعو نساء قومها إلىٰ الإسلام ، فلما علم بذلك المشركون ، أخذوها ، وعذبوها ، وأركبوها علىٰ بعير وليس

---

(١) للتوسُّع يراجع الروض الأنف للسهيلي : ١/ ٢٧٧ .

تحتها شيء » ومنعوا عنها الطعام والشراب ثلاثة أيام... لكن مع كل هذا حين تركوها عادت إلىٰ مجال الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ!![1].

* وتلكم (سعاد بنت سلمة بن زهير) رضي الله عنها :

امرأة بايعت سيدنا رسول الله ﷺ ، وكانت وقتها حاملاً ، فطفح إخلاصها وحبها لله وللرسول إلىٰ أعلىٰ درجة فقالت : يا رسول الله بايعني علىٰ ما في بطني!! فقال النبي صلوات الله عليه : « أنت من الحرائر »[2].

لكأني بهذه الصحابية تفسر قول الله تعالىٰ :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢-١٦٣] .

أو تستنبط من قول الله تعالىٰ الآتي معنىٰ التضحية والإخلاص في حب الله ورسوله :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

* وتلكم (روضة) رضي الله عنها :

كانت مولاة لسيدنا رسول الله ﷺ ، وكانت تعلِّم الناس أحكام القرآن ، فلما نزل قول الله تعالىٰ :

---

(١) للتوسع يراجع الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني : ٤/ ٢٤٦ .

(٢) الإصابة : ٤/ ٣٢٠ .

(٣) للتوسع يراجع الإصابة : ٤/ ٣٠٢ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾ [النور : ٢٧] .

جاء رجل فاستأذن علىٰ النبي ﷺ ، قال : أألج ؟

فقال النبي ﷺ لجاريته روضة : قومي إلىٰ هذا فعلميه فإنه لا يحسن الاستئذان ، فقولي له يقول : السلام عليكم أأدخل ؟

فسمعها الرجل فتعلم ، فقالها ودخل[1] .

■ وتلكم (قتيلة بنت النضر بن الحارث) :

كان أبوها كثير الأذىٰ لرسول الله ﷺ ، وكان عنيداً حاسداً هجاءً للإسلام وأهله ، وكان يحفظ قصص ملوك الفرس وأخبار قوادها . . .

فكان كلما رأىٰ رسول الله يذكر الله ويحض الناس علىٰ الإسلام ، كان يقف ويقول : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً من محمد فهلمّ إليّ ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم . . .

ثم ذهب إلىٰ المدينة واجتمع مع اليهود وسألهم عن معضلات المسائل ليحاج بها رسول الله ﷺ ، فقال له أحبارهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فهو رجل كذاب : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهرالأول ما كان من أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ المشارق والمغارب ماكان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هي ؟

فجاء النضر بن الحارث إلىٰ قريش فرحاً و قال : يا قريش ، قد جئتكم بفصل الخطاب ، ثم سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأجابهم ، وحكىٰ القرآن ذلك في سورة الكهف ! !

---

(١) الإصابة : ٤/٣٠٢ .

مع كلّ هذا بقي النضر معانداً مستكبراً ، وتآمر علىٰ قتل الرسول في الهجرة ، ثم جاءت معركة بدر ، فقتله سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه . . .

فما كان من (قتيلة) إلا أن أرسلت إلىٰ سيدنا رسول الله بقصيدة قالت فيها :

يا راكباً إن الأثيل مظلة ... من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتاً بأن تحية ... ما إن تزال بها النجائب تخفق
مني إليه وعبرة مسفوحة ... جادت بوابلها وأخرىٰ تخنق
هل يسمعنّي النضر إن ناديته ... بل كيف يسمع ميت لا ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق
صبراً يقاد إلىٰ المنية متعباً ... رَسْفَ المُقيد وهو عان موثق
أمحمد ولدتك خير نجيبة ... في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرّك لو مننت وربما ... منّ الفتىٰ وهو المغيظ المحنق
النضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق

تقول كتب التراجم والسير : فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ بكىٰ حتىٰ اخضلت لحيته وقال : « لو بلغني شعرها قبل أن يقتل لعفوت عنه »[1] .

إذن : كم للمرأة من تأثير في مجال الدعوة ، سواء كان ذلك باللسان أو البنان أو غير ذلك . . . ؟!

---

(١) يراجع في ذلك : السيرة لابن كثير : ٢/ ٤٧٤ ، والروض الأنف : ٣/ ٣٨ ، وسيرة سيّد الأنام ، للمؤلف : ٣/ ١٤٧ .

* وتلكم الصحابية (أم زفر) رضي الله عنها :

يقول عطاء : رأيت أم زفر امرأة طويلة سوداء علىٰ سلم الكعبة . فقال لي عبد الله بن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟

قلت : بلىٰ ، قال : هذه المرأة السوداء ، أتت النبي ﷺ فقالت : إني أصرع ، وإني أتكشف فادع الله لي ، فقال : « إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة ، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافيك »

فقالت : أصبر ولي الجنة ! ! فدعا رسول الله ﷺ لها بذلك[1] .

أية ثقةٍ بما عند الله كانت تتحلىٰ بها هذه المرأة ؟ وأي ثباتٍ وصبرٍ لا تزعزعهما الجبال كانت تتحلىٰ بهما هذه المرأة ؟

* وتلكم الصحابية (خولة بنت ثعلبة) رضي الله عنها :

تجادل سيدنا رسول الله ﷺ في ظهار زوجها لها ، ولما لم يأتها الجواب منه قالت : إلىٰ الله أشكو لا إلىٰ رسول الله ! !

فأنزل الله قوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] .

هذه المرأة في زمن الفاروق عمر رضي الله عنه استوقفته ذات يوم في السوق طويلاً ووعظته قائلة : يا عمر قد كنت تدعىٰ عميراً ، ثم قيل لك عمر ، ثم قيل لك أمير المؤمنين ، فاتق الله يا عمر ، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت . ومن أيقن بالحساب خاف العذاب ! !

والفاروق عمر واقف يسمع كلامها ، فقيل لها : أتقولين ذلك لأمير المؤمنين ؟ ! فقال عمر : والله لو حبستني من أول النهار إلىٰ آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ ! إنها خولة بنت ثعلبة ،

---

(١) للتوسع يراجع الإصابة : ٤/ ٢٣٤ .

سمع الله قولها من فوق سبع سماوات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمع عمر ؟![1] .

لقد مارست الدعوة إلىٰ الله ، لكن ليس بالأساليب المفروشة بالورود والرياحين ، وليس بوسائل الراحة والدعة و. . . ! إنما مارستها في أصعب أشكالها وأخطرها ، مارست الدعوة مع الحاكم ، أرادت أن تذكره بما كان قبل الإسلام ، كي لا يغترَّ بالجاه والمنصب . . !

وهذه القصة تذكرنا بموقف بطلة كربلاء (زينب أخت الحسين) رضي الله عنهم جميعاً مع (زياد) في بلاد الشام ، وكيف ردت عليه الرد المفحم ! ![2] .

* * وتلكم الصحابية (أم ذر) رضي الله عنها :

كان لها الأثر الأكبر في إعلان إسلام زوجها ، حيث يذكر كتَّاب التاريخ[3] أن سيدنا رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يبتسم قال لأبي ذر : « يا أبا ذر حدثني ببدء إسلامك » قال : كان لي صنم يقال له (نهم) ، فأتيته فصببت له لبناً ووليت ، فحانت مني التفاتة ، فإذا كلب يشرب ذلك اللبن ، فلما فرغ رفع رجله فبال علىٰ الصنم ! ! فأنشأت أقول :

ألا يا نهم إني قد بدا لي ... مدىٰ شرف يبعد منك قربا
رأيت الكلب سامك حظّ خسفٍ ... فلم يمنع قفاك اليوم كلبا

فسمعتني أم ذر ، فقالت تعتب عليَّ : لقد أتيت جرماً ، وأصبت عظماً ، حين هجرت نهماً ، فخبرتها الخبر فقالت :

ألا فابغنا رباً كريماً ... جواداً في الفضائل يا ابن وهب

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤/ ٣٢٠ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٧/ ٣٨ .
(٢) الكامل لابن الأثير : ٤/ ٨٦ .
(٣) الإصابة : ٤/ ٤٣١ .

فما من سامه كلب حقير فلم يمنع يداه لنا برب
فما عبد الحجارة غير غاوٍ ركيك العقل ليس بذي لب

فقال ﷺ : « صدقت أم ذر ، فما عبد الحجارة غير غاوٍ » .

هذه نماذج وصور من حياة الصحابيات ، كيف تلقين دعوة الإسلام ، ثم كيف مارسن الدعوة إلىٰ الله .

وعلىٰ هذا المنوال سار مَنْ بعدهن من المسلمات القانتات ، ولذلك لن ننسىٰ موقف فاطمة من عمر رضي الله عنهما عندما جاء ليقتل سيدنا رسول الله ﷺ وكيف واجهته بكل ثقة وشجاعة ، فكان ذلك سبباً لتحوله من الجاهلية إلىٰ الإسلام!! ولن ننسىٰ موقف سمية والدة عمار بن ياسر - رضي الله عنهم جميعاً - في بدايات الدعوة!! ولن ننسىٰ موقف زنيرة الرومية وصمودها في سبيل الدعوة!! ولن ننسىٰ أساليب الدعوة عند أم رعل القشيرية ، وعند أم كثير الأنصارية ، وعند أم كجة الأنصارية ، وعند أسماء بنت يزيد بن السكن ﷺ وعند أسماء بنت عميس ، وعند الخنساء ، وعند جويرية بنت الحارث ، وعند أروىٰ بت الحارث بن عبد المطلب ، وعند حفصة بنت سيرين ، . . . . . وعند كل من حملت صفة من صفات الداعيات ، والتي أجملها الله تعالىٰ بقوله :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

* * *

الباب العاشر

المرأة قاضية، مستشارة، سياسية

الفصل الأول

ماذا عن «شاوروهن، وخالفوهن»؟!!

حينما تحدث القرآن الكريم عن قصة بلقيس مع سيدنا سليمان عليه السلام لم يكن ذلك من باب التسلية وإضاعة الوقت ، إنما كان في ذلك حكم ومواعظ كثيرة ، والذي يهمنا في الباب هو استشارة بلقيس لقومها عندما أتاها كتاب سليمان ـ عليه السلام ـ وهذا ما عبّر عنه البيان الإلهي :

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل : ٢٩ـ٣٢] .

فما كان من أولئك الرجال إلا أن هددوا وتوعدوا لأنهم حسبوا أن القضية ليست إلا بالقوة والعُدد والعَدد!!

وهنا يبرز رأي بلقيس الحصيف والسديد ، وتبرز خبرتها في المجال السياسي ، حيث أدلت برأيها بين الرجال قائلة : إننا سنمتحن من أرسل الرسالة فنرسل له هدية لنرىٰ أهو ملك أم نبي ؟

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٣ـ٣٥] .

وتؤكد سداد رأيها في آخر المطاف بأن تُعلن إسلامها وتقبل الزواج من سليمان عليه السلام :

﴿ . . . قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١)

[النمل : ٤٤]

كذلك كانت امرأة فرعون أحسن رأياً من زوجها وأتباعه ، بل وأحسن الله مقامها في الدنيا والآخرة :

﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم : ١١] .

إذن : ما هو رأي الشريعة الإسلامية في الشورىٰ بالنسبة للنساء ؟

عرّف العلماء الشورىٰ بأنها : رجوع الإمام أو القاضي أو آحاد المكلفين ، في أمر لم يستبن حكمه بنص قرآني أو سنة أو ثبوت إجماع ، إلىٰ من يرجي منهم معرفة حكمه بالدلائل الاجتهادية ، من العلماء المجتهدين ، ومن قد ينضم إليهم ، من أولي الدراية والاختصاص .

ولم يعترض أحد علىٰ أن تكون النساء في مجال الشورىٰ ، إلا في هذا العصر حيث رأىٰ بعضهم (كالمودودي) أن من شروط الشورىٰ الذكورة!!

ويردّ الدكتور محمد سعيد البوطي علىٰ ذلك بقوله : لم نعثر فيما صح من سنة رسول الله ﷺ ، علىٰ ما يدل صراحة أو يشير بوضوح ، إلىٰ أن المرأة لا حق لها في الشورىٰ ، ولم نجد قط أنه عليه الصلاة والسلام تعمد أن يتجنب مشاورة النساء في بعض ما شاور به الرجال .

---

(١) للتوسع في معرفة معاني هذ القصة يراجع : الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٣٥١ ، وتفسير الطبري : ٢٢/ ٧٤ ، وقصص الأنبياء لابن كثير : ٥١٦ .

أما الحديث الدائر علىٰ ألسنة كثير من الناس ، وفيه (شاورهن وخالفوهن وأسكنوهن الغرف وعلموهن سورة النور)[1] فلم أجد من رواه حديثاً عن رسول الله ﷺ ، بل إنه لم يصح حتىٰ أثراً منقولاً عن عمر وغيره من الصحابة ، فهو ـ كما ذكر المحققون ـ كلام مختلق لم يثبت كونه حديثاً ولا أثراً عن أحد من الصحابة أو التابعين .

وإنما الذي صحَّ عن رسول الله ﷺ نقيضه ، فقد روىٰ البخاري أنه ﷺ دخل يوم الحديبية علىٰ أم سلمة ، يشكو إليها أنه أمر الصحابة بنحر هداياهم وحلق رؤوسهم فلم يفعلوا!

فقالت : يا رسول الله أتحب ذلك ؟ اخرج ولا تكلم أحداً منهم كلمة حتىٰ تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج رسول الله ﷺ وفعل ما أشارت به أم سلمة رضي الله عنها[2] .

وقد صح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يستشير الأحداث من الفقهاء والعلماء . ويستشير ذوات البصيرة والدراية من النساء ، روىٰ ابن الجوزي عن يوسف بن الماجشون ، قال : قال لي ابن شهاب ولأخ لي وابن عم لي ونحن صبية ، لا تستحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم ، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث فاستشارهم لحدة عقولهم ، وكان يشاور النساء[3] .

وروىٰ ابن حجر عن أبي بردة عن أبيه : ما أشكل علينا أمر فسألنا فيه

---

(١) كشف الخفاء مزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث علىٰ ألسنة الناس : ٤/ ٢ ، بل قال الدارقطني عنه : في رواته محمد بن إبراهيم الشامي وهو كذاب : [مجمع الزوائد : ٤/ ٩٣] .

(٢) صحيح البخاري : ٣/ ١٨٢ .

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب : ١٠١ .

عائشة رضي الله عنها إلا وجدنا عندها فيه علماً . وقال عطاء بن أبي رباح : كانت عائشة أفقه الناس . وأعلم الناس ، وأحسن الناس مشورة في العامة[1] .

وقد صح أن عمر رضي الله عنه كان يحيل عليها كل ما يتعلق بأحكام النساء وبأحوال النبي ﷺ البيتية ، وقد استشار رضي الله عنه ابنته حفصة في المدة التي لا تستطيع الزوجة أن تصبر فيها عن زوجها . فأمضىٰ كلامهاواتخذ من رأيها في ذلك أجلاً أقصىٰ ، للبعوث إلىٰ الغزوات ونحوها .

ثم يقول الدكتور البوطي : يرىٰ جمهور الفقهاء أن الشورىٰ تلتقي مع الفتوىٰ في مناط واحد . فكل من جاز له أن يفتي ـ بأن توافر لديه العلم بما يفتي به واتصف بالأمانة والاستقامة ـ جاز له أن يشير ، وجاز للإمام وللقاضي أن يستشيره ويأخذ برأيه ، ومعلوم أن الذكورة ليست شرطاً في صحة الفتوىٰ ولا منصبها عند أحد من الفقهاء ، ثم ينقل بعض أقوال الفقهاء ، ومنها :

يقول الماوردي : إن كل من صح له أن يفتي في الشرع جاز له أن يشاوره القاضي في الأحكام ، فتعتبر فيه شروط المفتي ولا تعتبر فيه شروط القاضي فيجوز أن يشاور المرأة ، إذ يجوز أن تستفتىٰ وتفتي[2] .

ويقول الخطيب الشربيني : المراد بالفقهاء . كما قال جميع الأصحاب . الذين يقبل قولهم في الإفتاء ، فتدخل المرأة[3] .

ويقول الباجوري في بيان آداب القضاء : أن يشاور الفقهاء الأمناء عند

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة : ٤/ ٣٩٢ .

(٢) أدب القاضي : ١/ ٢٦٤ .

(٣) مغني المحتاج : ٤/ ٣٩١ .

اختلاف وجوه النظر ، ويدخل في الفقهاء المذكورين ، النساء حيث كانوا[١] .

أما الحنفية ، فهم يجيزون للمرأة أن تتولىٰ القضاء أيضاً ، في كل ما يحق لها أن تشهد فيه ، فضلاً عن الفتوىٰ والشورىٰ ، ويقول صاحب بدائع الصنائع : وأما الذكورة فليست من شروط جواز التقليد ـ أي تقليد القضاء ـ في الجملة ، لأن المرأة من أهل الشهادات في الجملة ، إلا أنها لا تقضي في الحدود والقصاص ، لأنه لا شهادة لها في ذلك ، وأهلية القضاء تدور مع الشهادة[٢] .

وهذا هو مذهب الظاهرية أيضاً كما نصّ علىٰ ذلك ابن حزم[٣] .

لكن ما دام لهذا الحكم معارضين فلنزد الأمر إيضاحاً وأدلة أكثر ،

يعتبر الإسلام القاعدة الأساسية هي مساواة المرأة بالرجل ـ سواءً في الحقوق أو الواجبات ـ لكن ما دام الإسلام هو دين الفطرة ، فلا بدَّ أنه أعطىٰ المرأة أموراً تتعلق بحكم كونها امرأة ـ أي ما يناسب طبيعة جسدها ومزاجها وتفكيرها و. . . ولذلك اعتُبر الذكر موطن القوة ، بينما اعتبرت المرأة موطن الحنان والحب والتربية .

وعلىٰ هذا الأساس وزَّع الخالق ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أعباء الحياة علىٰ الرجل والمرأة ، وأُعطي كل منهما ما يناسب طبيعته التكوينية .

من هنا ذهب العلماء ـ القدامىٰ والمحدثون ـ إلىٰ : أن المرأة لها أن تتولىٰ جميع الوظائف العامة ، عدا رئاسة الدولة ! ![٤]

---

(١) حاشية الباجوري ، لإبراهيم بن محمد الباجوري (ت ١٢٧٧ هـ) .

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني : ٧/ ٣ .

(٣) بتصرف واختصار من كتاب : قضايا فقهية معاصرة : ١٦٤ـ١٨٣ .

(٤) ومنهم : الإمام الطبري ، وابن حزم ، وأبو حنيفة ، ومن المحدثين : الدكتور =

وساقوا أدلة كثيرة ، منها قول الله تعالىٰ :

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

أي أن الأصل واحد ، ولا تفاضل بينهما في الأصل والإنسانية . . .

ويعلِّق الشيخ محمود شلتوت علىٰ ذلك بقوله :

ليقف المتأمل عند هذا التعبير الإلهي : ﴿بعضكم من بعض﴾ ليعرف كيف سما القرآن بالمرأة ، حتىٰ جعلها بعضاً من الرجل ، وليس في الإمكان ما يؤدي به معنىٰ المساواة أوضح ولا أسهل من هذه الكلمة التي تقضي بها طبيعة الرجل والمرأة ، والتي تتجلىٰ في حياتهما المشتركة دون تفاضل وسلطان ، لقوله تعالىٰ :

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾ [النساء: ٣٢] .

وقد أوجب الإسلام علىٰ المرأة ، كما أوجب علىٰ الرجل ، معرفة العقائد ، وفي سائر التصرفات ، ولا يفرق بينها وبين الرجل ، سواء كان الفارق دينياً أو قانونياً ، سواء في التكليف أو الأهلية ، ولا يوجد فرق سوىٰ أن التكليف يلحق المرأة قبل الرجل ، وذلك لوصولها بطبيعتها إلىٰ مناط التكليف ـ وهو البلوغ ـ قبل أن يصل الرجل إليه[1] .

إذن الرجل والمرأة قوتان تعملان وتوجهان وتكسبان الخير والشر ، ولذلك قرر القرآن الحكيم الولاية المطلقة للمرأة والرجل ، وأن بعضهم أولياء بعض :

= السباعي ، والشيخ شلتوت ، والدكتور محمد البهي ، وسيد قطب ، والدكتور محمد الهاشمي ، والشيخ محمد عزة دروزة ، والشيخ عفيف طبارة ، والشيخ أبو النصر مبشر الطرازي ، وغيرهم كثير . . .

(١) الإسلام عقيدة وشريعة : ١٩٥ .

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة : ٧١] .

ولو دققنا النظر في هذه الآية ، لوجدناها تتضمن مبدأين :

الأول : مبدأ الولاية بين المؤمنين والمؤمنات ، والثاني : مبدأ الأمر المعروف والنهي عن المنكر ـ وهذا أمر عام يشمل جميع نواحي الحياة ـ وبالتالي فالرجال والنساء شركاء في سياسة المجتمع ، وذلك لأن السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية ليست إلا أوامر بالمعروف ونواه عن المنكر . . .

لكن يؤخذ بعين الاعتبار ما يناسب تكوين كل منهما ، فهي مهيأة للحمل والإرضاع و . . . وهو مهيأ للحرب والكدّ ونحوه .

ويُنظر إلىٰ القضية من جانب آخر هو : أنه لا يُفهم من قول الله تعالىٰ :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

[النساء : ٣٤] .

أن التفضيل هنا هو تفضيل الذكورة إطلاقاً ، ولا يعني الاستبداد من قبل الرجل إلىٰ درجة إهمال رأيها وإهدار شخصيتها و . . . ! !

وقد وُضعت أحكام صارمة لذلك : فليس له الحق أن يتسلط علىٰ مال زوجته وليس له الحق أن يكرهها علىٰ تغيير دينها ـ إن لم تكن أسلمت بعد .

وجوهر القضية : أن الإسلام الحنيف لا يمنع أن تمارس المرأة أي عمل ، ولا يمنع أن تخرج إلىٰ الأسواق و . . . إنما يهدف الإسلام إلىٰ أن تبقىٰ امرأة ، فلا تتحول إلىٰ مزاحمة الرجال وإبراز مفاتنها وإهمال بيتها و . . . ، ويهدف أيضاً إلىٰ أن يبقىٰ الرجل رجلاً ! !

وهذا الأمر نراه واضحاً جلياً حينما ننقب في تاريخنا الشامخ السامق ، فلم يحرم الإسلام علىٰ المرأة أن تشارك في الحياة العامة ـ وعلىٰ أعلىٰ المستويات ـ إنما حرم عليها أن تصبح مسلمة تخضع لقانون العرض والطلب!!

ألم تشترك المرأة في بيعة العقبة الثانية ؟!

ألم تخالف ابنة سيدنا رسول الله ﷺ فاطمة الخليفة الراشد الأول أبا بكر الصديق في كثير من الأمور ؟!

ألم تقف امرأة في المسجد النبوي ضمن جموع من النساء والرجال لتردَّ علىٰ الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه عندما أعلن منعه للزيادة في المهور! ؟

ألم تقف السيدة عائشة رضي الله عنها مطالبة بدم سيدنا عثمان رضي الله عنه ، ألم تسِرْ من مكة إلىٰ مكان موقعة الجمل ـ في العراق ـ وهي تقود عدداً كبيراً من الصحابة والتابعين. . . ؟!

ألم تقف (نائلة بنت الفرافصة) زوجة عثمان رضي الله عنهما وراء كثير من آرائه ، تشجعه وتشدُّ علىٰ يديه ، وكان هو يأخذ رأيها في كثير من القضايا! ؟

بل يقول ابن الأثير : كانت تشير عليه في كثير من الأحيان ، حتىٰ في أحلك ظروف الفتنة التي ثارت حول سياسته ، وقد سمعت يوماً مروان بن الحكم يشير علىٰ عثمان برأي غير راشد ، فتدخلت وأشارت بغيره ، فقال مروان : اسكتي أنت لا شأن لك ، فقال له عثمان : دعها فإنها أنصح لي منك!!

وهل ننسىٰ نصائح زبيدة لزوجها هارون الرشيد ؟ ومواقف شجرة الدر ؟ وأم سلمة زوجة السفاح ؟ والخيزران جارية المهدي ؟ وقطر الندىٰ

أم المقتدر ؟ وست الملك في الدولة الفاطمية. . . ؟!!

بعد كل ما تقدم نلخِّص القول بما قاله الدكتور مصطفىٰ السباعي : الإسلام لا يحول بين المرأة وأن تضطلع بأية وظيفة ، أو أن تزاول أي عمل خارج بيتها. . . والإسلام لا يحرم المرأة حق الانتخاب ؛ فالانتخاب ـ كما يقولون ـ هو اختيار الأمة لوكلاء ينوبون عنها في التشريع ومراقبة الحكومة فهي عملية التوكيل ، والمرأة في الإسلام ليست ممنوعة من أن توكل إنساناً بالدفاع عن حقوقها والتعبير عن إرادتها كمواطنة .

وبالنسبة لعضوية المجالس النيابية ، فإذا كان هدف النظام النيابي هو تحقيق تعبير عن إرادة الأمة وتمثيلها في هيئة تتولىٰ السلطة نيابة عنها ، يقوم باقتراح القوانين ، علاوة علىٰ مظهر رقابة البرلمان التي يؤديها في ظل النظام البرلماني علىٰ أعمال السلطة التنفيذية ، فليس في الإسلام ما يمنع المرأة من القيام بهذه الأعمال لأن التشريع يحتاج قبل كل شيء إلىٰ العلم ومعرفة حاجات المجمع ، والإسلام يعطي حق العلم للرجل والمرأة علىٰ السواء .

* * *

الفصل الثاني

الجدل حول القوامة، إلى أين؟!

(أما مراقبة السلطة التنفيذية ، فلا يخلو أن يكون أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر ، والرجل والمرأة علىٰ السواء في نظر الإسلام ، لقوله تعالىٰ :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة : ٧١] .

ولا يستثنىٰ من الحقوق السياسية للمرأة سوىٰ وظيفة (الخلافة) فيشترط في صاحبها أن يكون ذكراً ، نزولاً علىٰ حكم نصّ الحديث الشريف :

« لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »

فرئيس الدولة ليس صورة رمزية ، وإنما هو قائد المجتمع ، وله صلاحيات خطيرة ، ومما لا ينكر أن هذه الوظائف الخطيرة لا تتفق مع تكوين المرأة النفسي والعاطفي)[١] .

إذن لا تضييق أبداً علىٰ المرأة ، فلها الحق أن تمارس جميع الوظائف العامة ، وأن تتقلد جميع المناصب ـ عدا الخلافة ـ لكن ضمن آداب الاحتشام وعدم الاختلاط وما إلىٰ ذلك .

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون بتصرف واختصار من عدة مواضع .

والقول الذي يطرحه بعض الناس بأن الإسلام يحرم علىٰ المرأة الخروج إلىٰ العمل أو إلىٰ الوظيفة أو استلام مناصب رفيعة. . . مرفوض تماماً .

ذلك لأننا في هذا القرن رأينا امرأة يهودية استلمت منصب رئاسة وزراء دولة إسرائيل ، وفي عهدها هزمت جيوشاً عربية كان يقودها رجال!!

وإنكلترا لفترة قريبة كانت رئيسة وزرائها (مارغريت تاتشر) والتي حققت أثناء حكمها ازدهاراً اقتصادياً واستقراراً سياسياً. . . !!

والهند هزمت المسلمين هناك ، حيث كانت تقودها (أنديرا غاندي) ، وشطرت الباكستان إلىٰ شطرين ، علماً أن الذي كان يقود المسلمين رجل وهو يحيىٰ خان فماذا نفع الرجال ؟ وماذا خسر القوم من قيادة النساء لهم ؟!

صحيح أن سيدنا رسول الله ﷺ قال : « لا يفلح قوم تملكهم امرأة » وفي رواية أخرىٰ : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »[1] .

ولكن متىٰ قال ذلك رسول الله ؟

تُجمِع كتب الأحاديث والسيرة علىٰ أنه صلوات الله عليه قال ذلك عندما تهاوت فارس تحت مطارق المسلمين ، عندما كانت تحكمها امرأة مستبدة جاهلة!!

فبلاد فارس وقتئذٍ ، وصلت إلىٰ درجة الظلم بين القيادة والشعب ، فكانت النتيجة أن ورثت الحكم ابنة الملك ، علماً أن دولة فارس كانت

---

(١) رواه البخاري : (٨٢) . والترمذي : (٧٥) . والنسائي : (٨) . وأحمد في المسند : ٥/٤٣ . وغيرهم. . .

بحاجة ماسة إلىٰ شاب قوي يستطيع إيقاف سيل الهزائم ، لكن أنىٰ لها ذلك والحكم وراثي ، ولا يوجد للملك ولد ذكر ؟!

بينما لو كانت تلك الفتاة أمثال (غولدامائير ، أو تاتشر ، أو غاندي ، أو بلقيس ، أو كليوباترة ، أو شجرة الدر ، أو. . . .) لأنقذت الدولة الفارسية .

إذاً أليس الإمام ابن حزم محقًّا في قوله : إن الإسلام لم يحظر علىٰ امرأة تولي منصب ما ، حاشا الخلافة العظمىٰ ؟!

أو لم يكن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه محقًّا عندما ولَّىٰ قضاء الحسبة في سوق المدينة امرأة هي (الشَّفَّاء) ، حيث أطلق لها الصلاحية علىٰ أهل السوق ـ علماً أن غالبية أهل السوق من الرجال ـ فراحت تزين الأمور بميزان الشريعة ، وتحكم بين الناس ، فتحلل الحلال وتحرم الحرام!!

وهذا الكلام لا يخالف معنىٰ قوامة الرجل ، لأن القوامة تنحصر في البيت وداخل الأسرة ، ولا تعني القوامة في كل شيء .

بل وحتىٰ في البيت فإن المرأة مسؤولة كما أوضح النبي ﷺ ـ فيما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ـ : « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته. . . إلىٰ أن قال : والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها »[1] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا أنفقت المرأة من طعام بيت زوجها غير مفسدة ، فلها أجرها بما أنفقت ، وللزوج

(١) رواه البخاري في كتاب الأحكام والجنائز والنكاح ، ومسلم في كتاب الأمارة ، وأحمد في المسند ١٠٨/٢ ، والترمذي في كتاب الجهاد ، وأبو داود في كتاب الإمارة .

بما اكتسب ، وللخازن مثل ذلك ، لا ينقص أجرُ بعضهم من أجر بعض شيئاً »

وأما ما يتعلق باستثناء المرأة من أعلىٰ منصب ـ كالخلافة ورئيس الدولة أو الملك. . . ـ فلذلك حكم إلهية تطابق الفطرة التي فطر الله تعالىٰ الناس عليها . فأمر الحمل والإرضاع ومحبة مداعبة الأطفال و. . . أمر فطري في المرأة ، وبالتالي فإن ذلك يتنافىٰ مع قيادة الجيش في الحروب ومع قيادة الأمة كاملة. . .

وفي ذلك أقوال كثيرة للعلماء تمحص حقيقة رأي الشريعة في هذا الأمر ، من ذلك ما قاله الإمام الطبري في تفسير قول الله تعالىٰ :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٧١] .

قال : المقصود بالآية أن بعضهم أنصار بعض وأعوانهم ، يأمرون الناس بالإيمان بالله وروسوله وبما جاء من عند الله[١] .

بينما يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : فالقاعدة في الإسلام أن كل فرد من أفراد المسلمين يعتبر دليلاً لغيره ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . وهذه الولاية ينبغي القيام بها وعدم التخلف عنها ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « من رأىٰ منكم منكراً فليغيره »[٢] وقوله ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »[٣] .

وهذه النصوص تدل دلالة واضحة علىٰ أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ وهما جماع الدين ـ واجبان علىٰ كل فرد من المسلمين ، وأن

---

(١) جامع البيان : ٢/ ١٧٨ .

(٢) رواه الخمسة إلا البخاري .

(٣) سبق تخريجه .

الرجل والمرأة سواءٌ في هذه الفريضة[(١)] .

وأما من المعاصرين ، فأكتفي بنقل رأي الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي ، وهو رجل معروف في مجال الدعوة والفقه والآراء الوسطية ، وله عدد كبير من المؤلفات القيِّمة ، وقد سُئل عن حكم ترشيح المرأة للمجالس النيابية فقال :

المرأة إنسان مكلف مثل الرجل ، مطالبة بعبادة الله تعالىٰ ، وإقامة دينه ، وأداء فرائضه ، واجتناب محارمه ، والدعوة إليه ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وكل خطابات الشارع تشملها ، إلا ما دل دليل معين علىٰ أنه خاص بالرجال ، فإذا قال الله تعالىٰ : ﴿يا أيها الناس﴾ أو ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فالمرأة داخلة فيه بلا نزاع .

ولهذا لما سمعت أم سلمة رضي الله عنها النبي ﷺ يقول : « أيها الناس » وكانت مشغولة ببعض أمرها ، هرعت لتلبية النداء ، حتىٰ استغرب بعضهم سرعة إجابتها ، فقالت لهم : أنا من الناس .

والأصل العام : أن المرأة كالرجل في التكليف إلا ما استثني ، لقوله تعالىٰ ﴿ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٍۚ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] . وقوله ﷺ : « إنما النساء شقائق الرجال » رواه أحمد ، والترمذي ، وأبو داود ، والدارمي .

والقرآن الكريم يحمل الجنسين : الرجال والنساء جميعاً مسؤولية تقويم المجتمع وإصلاحه وهو ما يعبر عنه إسلامياً بعنوان (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) . يقول الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ

(١) الحسبة في الإسلام : ١٨ـ١٩ .

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة : ٧١] .

ذكر القرآن في هذا المقام سمات أهل الإيمان ، بعد أن ذكر سمات أهل النفاق بقوله : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ. . . ﴾ [التوبة : ٦٧] .

فإذا كانت المنافقات يقمن بدورهن في إفساد المجتمع ، بجانب الرجال المنافقين فإن علىٰ المؤمنات أن يقمن بدورهن في إصلاح المجتمع ، بجانب الرجال المؤمنين .

وقد قامت المرأة بدورها في عهد النبي ﷺ ، حتىٰ إن أول صوت ارتفع في تصديق النبي عليه الصلاة والسلام ، كان صوت امرأة هي خديجة رضي الله عنها ، وأول شهيد في سبيل الإسلام كان امرأة ، هي سمية أم عمار ، رضي الله عنها .

حتىٰ إن منهن من قاتل مع النبي ﷺ في (أحد) و(حنين). . . وغيرهما . وحتىٰ جاء في تراجم البخاري : « باب غزو النساء وقتالهن » والناظر في أدلة القرآن والسنة يجد أن الأحكام فيهما عامة للجنسين ، إلا ما اقتضته الفطرة في التمييز بين الزوجين : الذكر والأنثىٰ ، وما أعد له كل منهما ، فللمرأة أحكامها الخاصة بالحيض والنفاس والاستحاضة والحمل والولادة والإرضاع والحضانة ونحوها .

وللرجل درجة القوامة والمسئولية عن الأسرة ، ولها عليه حق الإنفاق والرعاية .

وهناك أحكام تتعلق بالميراث ، جعل فيها للذكر مثل حظ الأنثيين ، والحكمة فيها واضحة ، وهي مبنية علىٰ تفاوت الأعباء والتكاليف المالية بين الرجل والمرأة .

وأحكام أخرىٰ تتعلق بالشهادة في المعاملات المالية والمدنية ، وقد جعلت شهادة المرأتين فيها كشهادة رجل ، وهي أيضاً مبنية علىٰ اعتبارات واقعية وعملية روعي فيها الاستيثاق في البينات ، احتياطاً لحقوق الناس وحرماتهم .

لذلك وجد من الأحكام ما تقبل فيه شهادة امرأة واحدة ، كما في الولادة والرضاع .

تنبيهات مهمة :

وأود أن أنبه هنا علىٰ جملة أمور مهمة :

الأول : أننا يجب ألا نلزم نفسنا إلا بالنصوص الثابتة الصريحة الملزمة ، أما ما لا يثبت من النصوص كالأحاديث الضعيفة ، أو ما كان محتملاً في فهمه لأكثر من وجه ، وأكثر من تفسير (مثل ما جاء في شأن نساء النبي) فليس لأحد أن يلزم الأمة بفهم دون آخر ، وخصوصاً في الأمور الاجتماعية العامة التي تعم بها البلوىٰ ، وتحتاج إلىٰ التيسير .

الثاني : أن هناك أحكاماً وفتاوىٰ لا نستطيع أن نفصلها عن عصرها وبيئتها ، ومثلها قابل للتغيير بتغير موجباته ، ولهذا قرر المحققون أن الفتوىٰ تتغير بتغير الزمان والمكان والحال والعرف .

وكثير مما يتصل بالمرأة من هذا النوع ، فقد أصابه التشدد والتغليظ حتىٰ حرم عليها الذهاب إلىٰ المسجد ، برغم معارضة ذلك للنصوص الصحيحة الصريحة ، ولكنهم قدموا الاحتياط وسد الذريعة علىٰ النصوص ، بناء علىٰ تغير الزمان!

الثالث : أن العلمانيين اليوم يتاجرون بقضية المرأة ، ويحاولون أن يلصقوا بالإسلام ما هو براء منه ، وهو أنه جار علىٰ المرأة ، وعطل

مواهبها وقدراتها ويحتجون لذلك بممارسات بعض العصور المتأخرة وبأقوال بعض المتشددين من المعاصرين .

نظرة في الأدلة :

علىٰ هذا الأساس يجب أن ننظر في موضوع دخول المرأة في (مجلس الشعب) ومشروعية ترشيحها ، ومشروعية انتخابها لهذه المهمة . آية ﴿وقرن في بيوتكن﴾ :

* * *

الفصل الثالث

في ظلال ﴿وقرن في بيوتكن﴾

فمن الناس من يرىٰ ذلك حراماً وإثماً مبيناً ، ولكن التحريم لا يثبت إلا بدليل لا شبهة فيه ، والأصل في الأشياء والتصرفات الدنيوية الإباحة ، إلا ما قام الدليل علىٰ حرمته . فما الدليل علىٰ التحريم ، الذي يسوقه هؤلاء ؟

بعضهم يستدل هنا بقوله تعالىٰ : ﴿وقرن في بيوتكن﴾ فلا يجوز للمرأة أن تدع بيتها إلا لضرورة أو حاجة .

وهذا الدليل غير ناهض :

أولاً : لأن الآية تخاطب نساء النبي كما هو واضح من السياق ، ونساء النبي لهن من الحرمة ، وعليهن من التغليظ ما ليس علىٰ غيرهن ، ولهذا كان أجر الواحدة منهن إذا عملت صالحاً مضاعفاً . كما جعل عذابها إذا أساءت مضاعفاً .

وثانياً : أن أم المؤمنين عائشة مع هذه الآية ، خرجت من بيتها ، وشهدت (معركة الجمل) استجابة لما تراه واجباً دينياً عليها ، وهو القصاص من قتلة عثمان ، وإن أخطأت التقدير فيما صنعت ، كما ورد عنها رضي الله عنها .

وثالثاً : أن المرأة قد خرجت من بيتها بالفعل ، وذهبت إلىٰ المدرسة

والجامعة ، وعملت في مجالات الحياة المختلفة ، طبيبة ومعلمة ومشرفة وإدارية وغيرها ، دون نكير من أحد يعتد به مما يعتبره الكثيرون إجماعاً علىٰ مشروعية العمل خارج البيت للمرأة بشروطه .

ورابعاً : أن الحاجة تقتضي من (المسلمات الملتزمات) أن يدخلن معركة الانتخاب في مواجهة المتحللات والعلمانيات اللائي يزعمن قيادة العمل النسائي ، والحاجة الاجتماعية والسياسية قد تكون أهم وأكبر من الحاجة الفردية التي تجيز للمرأة الخروج إلىٰ الحياة العامة .

وخامساً : أن حبس المرأة في البيت لم يعرف إلا أنه كان في فترة من الفترات ـ قبل استقرار التشريع ـ عقوبة لمن ارتكبت الفاحشة ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٥] فكيف يظن أن يكون هذا من الأوصاف اللازمة للمرأة المسلمة في الحالة الطبيعية ؟

سَدُّ الذَّرائع :

وهناك من ينظر إلىٰ الأمر من زاوية أخرىٰ ، هي زاوية (سد الذرائع) ، فالمرأة عندما ترشح للبرلمان ، ستتعرض في أثناء الدعاية الانتخابية للاختلاط بالرجال وربما الخلوة بهم ، وهذا حرام ، وما أدىٰ إلىٰ الحرام فهو حرام .

ولا شك أن سد الذرائع مطلوب ، ولكن العلماء قرروا أن المبالغة في سد الذرائع كالمبالغة في فتحها ، قد يترتب عليها ضياع مصالح كثيرة ، أكبر بكثير من المفاسد المخوفة .

وهذا الدليل يمكن أن يستند إليه من يرىٰ منع المرأة من الإدلاء بصوتها في الانتخاب خشية الفتنة والفساد ، وبهذا يضيع علىٰ الإسلاميين أصوات

كثيرة ، كان يمكن أن تكون في صفهم ضد اللادينيين. . . ولا سيما أن أولئك يستفيدون من أصوات النساء المتحللات من الدين . وقد وقف بعض العلماء يوماً في وجه تعليم المرأة ، ودخولها المدارس والجامعات من باب سد الذرائع حتىٰ قال بعضهم : تعلم القراءة لا الكتابة حتىٰ لا تستخدم القلم في كتابة الرسائل الغرامية ونحوها! ولكن غلب التيار الآخر ، ووجد أن التعليم في ذاته ليس شراً ، بل ربما قادها إلىٰ خير كثير .

ومن هنا نقول : إن المسلمة الملتزمة ـ إذا كانت ناخبة أو مرشحة ـ يجب أن تتحفظ في ملاقاتها للرجال من كل ما يخالف أحكام الإسلام ، من الخضوع بالقول أو التبرج في الملبس أو الخلوة بغير محرم ، أو الاختلاط بغير قيود . وهو أمر مفروغ منه من قبل المسلمات الملتزمات .

* * *

الفصل الرابع

المرأة والولاية على الرجل؟!

وهناك من يستدلون علىٰ منع المرأة من الترشيح للمجلس النيابي بأن هذا ولاية علىٰ الرجال ، وهي ممنوعة منها ، بل الأصل الذي أثبته القرآن الكريم أن الرجال قوامون علىٰ النساء ، فكيف نقلب الوضع وتصبح النساء قوامات علىٰ الرجال ؟

وأود أن أبين هنا أمرين :

الأول : أن عدد النساء اللائي يرشحن للمجلس النيابي سيظل محدوداً ، وستظل الأكثرية الساحقة للرجال ، وهذه الأكثرية هي التي تملك القرار ، وهي التي تحل وتعقد فلا مجال للقول بأن ترشيح المرأة للمجلس سيجعل الولاية للنساء علىٰ الرجال!

الثاني : أن الآية الكريمة التي ذكرت قوامة الرجال علىٰ النساء ، إنما قررت ذلك في الحياة الزوجية ، فالرجل هو رب الأسرة ، وهو المسئول عنها ، بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء : ٣٤] فقوله : ﴿بما أنفقوا من أموالهم﴾ يدلنا علىٰ أن المراد القوامة علىٰ الأسرة ، وهي الدرجة التي منحت للرجال في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

ومع قوامية الرجل علىٰ الأسرة ، ينبغي أن يكون للمرأة دورها ، وأن يؤخذ رأيها فيما يهم الأسرة ، كما أشار إلىٰ ذلك القرآن الكريم في مسألة فطام الرضيع :

﴿ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

وكما جاء في الحديث الذي رواه أحمد : « آمروا النساء في بناتهن » أي استشيروهن في أمر زواجهن .

أما ولاية بعض النساء علىٰ بعض الرجال ـ خارج نطاق الأسرة ـ فلم يرد ما يمنعه بل الممنوع هو الولاية العامة للمرأة علىٰ الرجال .

والحديث الذي رواه البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعاً :

« لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » إنما يعني الولاية العامة علىٰ الأمة كلها أي رئاسة الدولة ، كما تدل عليه كلمة (أمرهم) فإنها تعني أمر قيادتهم ورياستهم العامة . أما بعض الأمر فلا مانع أن يكون للمرأة ولاية فيه ، مثل ولاية الفتوىٰ أو الاجتهاد ، أو التعليم أو الرواية والتحديث أو الإدارة ونحوها ، فهذا مما لها ولاية فيه بالإجماع ، وقد مارسته علىٰ توالي العصور ، حتىٰ القضاء أجازه أبو حنيفة فيما تشهد فيه ، أي في غير الحدود والقصاص ، مع أن من فقهاء السلف من أجاز شهادتها في الحدود والقصاص ، كما ذكر ابن القيم في (الطرق الحكمية) . وأجازه الطبري بصفة عامة ، وأجازه ابن حزم ، مع ظاهريته ، وهذا يدل علىٰ عدم وجود دليل شرعي صريح يمنع من توليها القضاء ، وإلا لتمسك به ابن حزم ، وجمد عليه ، وقاتل دونه كعادته .

وسبب ورود الحديث المذكور يؤيد تخصيصه بالولاية العامة ، فقد بلغ النبي ﷺ أن الفرس بعد وفاة امبراطورهم ، ولوا عليهم ابنته بوران بنت كسرىٰ ، فقال : « لن يفلح قوم » الحديث .

شبهة وردها :

ومن الشبهات التي أثارها بعض المعارضين لترشيح المرأة في المجلس النيابي قولهم : إن عضو المجلس أعلىٰ من الحكومة نفسها ، بل من رئيس الدولة نفسها ، لأنها ـ بحكم عضويتها في المجلس ـ تستطيع أن تحاسب الدولة ورئيسها ، ومعنىٰ هذا أننا منعناها من الولاية العامة ، ثم مكناها منها بصورة أخرىٰ .

وهذا يقتضي منا إلقاء الضوء بالشرح والتحليل لمفهوم العضوية في المجلس الشوري أو النيابي .

مهمة عضو المجلس النيابي :

ومن المعلوم أن مهمة المجالس النيابية في الأنظمة الديمقراطية الحديثة ذات شقين ، هما : المحاسبة والتشريع ، وعند تحليل كل من هذين المفهومين يتضح لنا ما يأتي :

معنىٰ المحاسبة :

المحاسبة في تحليلها النهائي حسب المفاهيم الشرعية ، ترجع إلىٰ ما يعرف في المصطلح الإسلامي بـ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وبـ (النصيحة في الدين) وهي واجبة لأئمة المسلمين وعامتهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والنصيحة مطلوبة من الرجال والنساء جميعاً .

والقرآن الكريم يقول بصريح العبارة : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة : ٧١] .

والرسول ﷺ حين قال ـ فيما رواه مسلم ـ : « الدين النصيحة . . . لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم » لم يجعل ذلك محصوراً علىٰ الرجال وحدهم ، وقد رأينا المرأة ترد علىٰ أمير المؤمنين عمر في المسجد ، فيرجع عن رأيه إلىٰ رأيها ، ويقول : أصابت امرأة وأخطأ عمر ، كما رواه ابن كثير ، وقد استشار النبي ﷺ أم سلمة في غزوة الحديبية ، فأشارت عليه بالرأي السديد ، وقد بدر إلىٰ تنفيذه ، فكان ورائه الخير .

وما دام من حق المرأة أن تنصح وتشير بما تراه صواباً من الرأي ، وتأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر وتقول : (هذا صواب وهذا خطأ) ، بصفتها الفردية فلا يوجد دليل شرعي يمنع من عضويتها في مجلس يقوم بهذه المهمة .

والأصل في أمور العادات والمعاملات الإباحة ، إلا ما جاء في منعه نص صحيح صريح ، وما يقال في أن السوابق التاريخية في العصور الإسلامية لم تعرف دخول المرأة في مجالس الشورىٰ ، فهذا ليس بدليل شرعي علىٰ المنع ، فهذا مما يدخل في تغير الفتوىٰ بتغير الزمان والمكان والحال .

والشورىٰ لم تنظم في تلك العصور تنظيماً دقيقاً لا للرجال ولا لنساء ، وهي من الأمور التي جاءت فيها النصوص مجملة مطلقة ، وترك تفصيلها وتقييدها لاجتهاد المسلمين ، حسب ظروفهم الزمانية والمكانية وأوضاعهم الاجتماعية .

ونحن الآن نتيح لمرأة أعمالاً لم تكن معروفة من قبل ، وننشىء لها المدارس والكليات التي تضم الملايين من الفتيات ، وتخرج معلمات وطبيبات ومحاسبات وإداريات ، وبعضهم مديرات لمؤسسات فيها

رجال . فكم من معلم في مدرسة بنات تديرها امرأة ، وكم من أستاذ في كليات بنات عميدتها امرأة ، وكم من موظف في شركة أو مؤسسة تديرها امرأة أو تملكها امرأة ، وقد يكون زوج المرأة نفسه مرؤوساً لها في المدرسة أو الكلية أو المستشفىٰ ، أو المؤسسة التي تديرها ، وهي مرؤوسة له إذا عادت إلىٰ البيت .

والقول بأن مجلس الشعب أو الشورىٰ أو الأمة ـ حسب تسمياته المختلفة ـ أعلىٰ مرتبة في الحكومة أو السلطة التنفيذية نفسها . ومنها رئيس الدولة ، لأنه هو الذي يحاسبها قول غير مسلّم علىٰ إطلاقه .

فليس كل محاسب أعلىٰ منزلة ممن يحاسبه ، إنما المهم أن يكون له حق المحاسبة وإن كان أدنىٰ منه .

فمما لا ريب فيه أن أمير المؤمنين ، أو رئيس الدولة أعلىٰ منزلة ، وأعلىٰ سلطة في الدولة وعن هذا نجد أن من حق أدنىٰ فرد في رعيته أن ينصح له ، ويحاسبه ويأمره وينهاه ، علىٰ نحو ما قاله الخليفة الأول : « إن رأيتموني علىٰ حق فأعينوني ، وإن رأيتموني علىٰ باطل فقوّموني » .

وما قاله الخليفة الثاني : من رأىٰ منكم فيّ اعوجاجاً فليقوّمني .

ولا ينكر أحد أن من حق المرأة أن تحاسب زوجها ـ وهو القوام عليها في شؤون البيت والنفقة ـ وتقول له : لم اشتريت هذا ؟ ولم أكثرت من هذا ؟

علىٰ أننا لو سلّمنا بأن سلطة المحاسب أعلىٰ ممن يحاسبه ، فهذا إنما يثبت للمجلس بصفته الجماعية ، فالمجلس بهذا الوصف أعلىٰ من السلطة التنفيذية فيما هو من حقه واختصاصه وما دام المجلس مكوناً في أغلبيته من الرجال ، فلا محل للقول بأن المرأة أصبحت لها ولاية علىٰ الرجل بذلك ، إنما يصدق هذا القول لو كان المجلس كله أو جله من النساء .

جانب التشريع في المجلس :

والشق الثاني من مهمة مجلس الشعب يتعلق بالتشريع .

وبعض المتحمسين يبالغون في تضخيم هذه المهمة ، زاعماً أنها أخطر من الولاية والإمارة ، فهي التي تشرع للدولة ، وتضع لها القوانين ، لينتهي إلىٰ أن هذه المهمة الخطيرة الكبيرة لا يجوز للمرأة أن تباشرها .

والأمر في الحقيقة أبسط من ذلك وأسهل ، فالتشريع الأساسي إنما هو لله تعالىٰ ، وأصول التشريع الآمرة الناهية هي من عند الله سبحانه ، وإنما عملنا نحن البشر هو استنباط الحكم فيما لا نص فيه ، أو تفصيل ما فيه نصوص عامة ، وبعبارة أخرىٰ عملنا هو (الاجتهاد) في الاستنباط والتفصيل والتكييف .

والاجتهاد في الشريعة الإسلامية باب مفتوح للرجال والنساء جميعاً ، ولم يقل أحد : إن من شروط الاجتهاد ـ التي فصل فيها الأصوليون ـ الذكورة ، وأن المرأة ممنوعة من الاجتهاد .

وقد كانت أم المؤمنين عائشة من مجتهدات الصحابة ومن المفتيات بينهن ، ولها مناقشات واستدراكات علىٰ علماء الصحابة ، جمعت في كتب معروفة .

صحيح أنه لم ينتشر الاجتهاد بين النساء في تاريخنا انتشاره في الرجال ، وذلك راجع إلىٰ عدم انتشار العلم بين النساء ، لظروف تلك العصور وأوضاعها ، علىٰ خلاف ما عليه الحال اليوم ، فقد أصبح عدد المتعلمات من النساء مساوياً أو مقارباً لعدد المتعلمين من الرجال ، وفيهن من النوابغ ما قد يفوق بعض الرجال ، والنبوغ ليس صفة للذكور ،

فرب امرأة أوتيت من المواهب ما يعز علىٰ بعض الرجال الحصول عليه .

وقد حكا لنا القرآن قصة ملكة سبأ ، وما أوتيت من سداد الرأي والحكمة ، في موقفها من سليمان عليه السلام ، منذ تلقت رسالة من الهدهد ، وكيف استشفت من رسالته الموجزة الجدية والالتزام ، وكيف جمعت الملأ من أشراف قومها ، علىٰ طريقتها في الحكم : ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل : ٣٢] وكيف فوض الرجال الأشداء الأمور إليها مختارين ، لتتصرف فيها بحكمتها قالوا : ﴿ نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل : ٣٣] .

وكيف تصرفت بعد ذلك بمنتهىٰ الذكاء والأناة ، مع نبي الله سليمان ، حتىٰ انتهىٰ أمرها إلىٰ أن أسلمت ﴿ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] .

وحكاية هذه القصة في القرآن الكريم ليس عبثاً ، بل يدل علىٰ أن المرأة قد يكون لها من البصيرة وحسن الرأي والتدبير ، في شؤون السياية والحكم ما يعجز عنه كثير من الرجال .

ومما لاجدال فيه أن ثمة أموراً في التشريع تتعلق بالمرأة نفسها ، وبالأسرة وعلاقاتها ينبغي أن يؤخذ رأي المرأة فيها ، وألا تكون غائبة عنها ، ولعلها تكون أنفذ بصراً في بعض الأحوال من الرجال .

والمرأة التي ردت علىٰ عمر رضي الله عنه في المسجد ، كان ردها متصلاً بأمر تشريعي يتعلق بالأسرة ، وهو تحديد المهور بحد أقصىٰ ، وكانت مناقشة المرأة سبباً في عدول عمر عن إصدار قانونه بتحديد الصداق .

وهناك قوانين أو قرارات أصدرها عمر رضي الله عنه كان للمرأة يد في إصدارها مثل قوانين عدم تغييب الزوج في الجيش عن زوجته أكثر من ستة

أشهر ، فقد سأل ابنته حفصة : ما أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : أربعة أشهر أو ستة أشهر .

وكان قد أفزعه شِعْرُ تلك المرأة التي أرَّقتها الوحدة ، وأقلقتها الوحشة ، فأنشدت وهي نائمة في سريرها :

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه وأرّقني ألاّ حبيب ألاعبه
فوالله لولا الله تخشىٰ عواقبه لحرّك من هذا السرير جوانبه!

وكذلك قانونه الذي فرض به عطاء لكل مولود في الإسلام ، بعد أن كان لا يفرض إلا لمن فطمته أمه ، كانت الأمهات يعجلن بفطام أطفالهن قبل الأوان ، رغبة في العطاء ، فلما سمع يوماً بكاء طفل متواصلاً شديداً ، وسأل أمه عن سر هذا البكاء ، فقالت له وهي لا تعرفه : إن أمير المؤمنين لا يفرض العطاء إلا للفطيم ، لذا فطمته مبكراً فهو يبكي ، فقال عمر : ويح عمر ، كم قتل من أطفال المسلمين! وأعلن بعدها تعميم العطاء لكل مولود .

علىٰ أننا حين نقول بجواز دخول المرأة في مجلس الشعب ، لا يعني ذلك أن تختلط بالرجال الأجانب عنها ، بلا حدود ولا قيود ، أو يكون ذلك علىٰ حساب زوجها وبيتها وأولادها ، أو يخرجها ذلك عن أدب الاحتشام في اللباس والمشي والحركة والكلام ، بل كل ذلك يجب أن يراعىٰ بلا ريب ولا نزاع من أحد .

وهذا مطلوب من المرأة في مجلس الشعب ، والمرأة في مجلس الجامعة ، والمرأة في مجلس الكلية ، والمرأة في عملها خارج بيتها أيًا كان هذا العمل .

ومن المطلوب في دولة تراعي آداب الإسلام أن يكون للنساء موقعهن الخاص في المجلس ، صفوف خاصة ، أو ركن خاص لهن ، أو نحو

ذلك ، مما يوفّر لهن جواً من الطمأنينة والبعد عن أي فتنة يخافها المتوجسون .

هذا وبالله التوفيق[1] .

إذن : هذا هو القول الفصل في دخول المرأة لمجالس ـ الشعب والأمة أو النواب ـ والقول الفصل يؤخذ بما ورد فيه دليل من القرآن والسنة الصحيحة ، ولا يؤخذ من أناس همهم التشدد والحجر علىٰ الناس ، تحت غطاء شرعي لا سند له إلا القصص والخرافات .

القول الفصل في مشاكلنا يؤخذ من العلماء العاملين المخلصين ، ولا يؤخذ من المعقّدين الذين يخرجون علىٰ الناس بين الحين والآخر بفتاوٍ ما أنزل الله بها من سلطان : فتارةً يقول عبقريهم يجب تهديم قبر رسول الله ﷺ لأنه بدعة !!

وتارةً يقول آخر : لا يجوز للرجل أن يعلّم الفتيات في المعاهد والمدارس والجامعات إلا إذا كان ضريراً !!! و . . .

وهذا كله خلط ودجل وشعوذة ، لا يُحسب له حساب ولا يقام له أي وزن ، فالقرآن عندما حدثنا عن بلقيس ، والسنة الشريفة عندما أوصت بالنساء ، وسيرة أمهات المؤمنين ، وسيرة الصحابيات لهي الدليل الناصع والردّ المفحم علىٰ كل من خالف ذلك .

* * *

---

(١) نقل هذا الرأي عن الدكتور القرضاوي الدكتور توفيق الواعي في كتابه : النساء الداعيات : ١٩٦ـ٢١٨

الفصل الخامس

شبهات وردود حول شهادة المرأة!!

* أما ما يتعلق بشهادة المرأة :

فعن عقبة بن الحارث قال : تزوجت ابنة أبي إهاب ، فجاءت امرأة سوداء ، فذكرت أنها أرضعتْنا ، فأتيت رسول الله ﷺ فقمت بين يديه ، فكلمته ، فأعرض عني ، فقمتُ عن يمينه ، فأعرض عني ، فقلت : يا رسول الله إنما هي سوداء! ؟

قال : « وكيف وقد قيل ؟! »[1] .

وهذا يدل على قبول شهادة المرأة الواحدة في الرضاع ونحوه ، وإلىٰ ذلك ذهب كبار الصحابة ، كأبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم ، وبذلك قال الإمام أحمد[2] .

وأما شهادتها في القصاص والحدود ، فهي بين أخذ ورد بين الفقهاء والمحققين ، ولو عدنا إلىٰ كتاب المحلىٰ للإمام ابن حزم رحمه الله

(١) رواه الإمام أحمد في المسند : ٤/ ٧ .

(٢) للتوسع في ذلك يراجع : الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني مع شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني وكلاهما لأحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي : ١٥/ ٢٢٠ .

لوجدنا رفضه الصريح لكل ما قيل عن رفض شهادة النساء في الحدود والقصاص!! من ذلك مثلاً :

ولا يجوز أن يقبل في الزنا أقل من أربعة رجال عدول مسلمين أو مكان كل رجل امرأتان مسلمتان عدلتان فيكون ذلك ثلاثة رجال وامرأتين أو رجلين وأربع نسوة أو رجلاً واحداً وست نسوة أو ثمان نسوة فقط .

ولا يقبل في سائر الحقوق كلها من الحدود والدماء وما فيه القصاص والنكاح والطلاق والرجعة والأموال إلا رجلان مسلمان عدلان أو رجل وامرأتان كذلك أو أربع نسوة .

ثم قال : وصحّ عن شريح أنه أجاز شهادة امرأتين في عتاقة رجل .

وصحَّ عن الشعبي قبول شهادة رجل وامرأتين في الطلاق وجراح الخطأ ولم يجز شهادة النساء في جرح عمد ولا في حدّ .

وصحَّ عن إياس بن معاوية قبول امرأتين في الطلاق .

وعن محمد بن سيرين أن شريحاً أجاز شهادة أربع نسوة علىٰ رجل في صداق امرأة .

وعن الزبير بن الخريت عن لبيد قال : إن سكراناً طلق امرأته ثلاثاً فشهد عليه أربع نسوة ، فرفع إلىٰ عمر بن الخطاب فأجاز شهادة النسوة وفرّق بين الزوجين .

وعن سفيان بن عيينة عن أبي طلق عن امرأة أوطأت صبياً فقتلته ، فشهد أربع نسوة ، فأجاز علي بن أبي طالب شهادتين .

وعن عطاء قال : أجاز عمر بن الخطاب شهادة النساء مع الرجال في الطلاق والنكاح . وفي رواية أخرىٰ عن عطاء بن أبي رباح قال : يجوز شهادة النساء مع الرجال في كل شيء .

وأما ما جاء عن الزهري الذي قال : مضت السنة من النبي ﷺ ومن أبي بكر وعمر أنه لا تجوز شهادة النساء في الطلاق ولا في النكاح ولا في الحدود فبليّة : لأنه منقطع من طريق إسماعيل بن عياش وهو ضعيف من الحجاج بن أرطاة وهو هالك!!

ولبحث الشهادة تفريعات كثيرة مبثوثة في تراثنا القيِّم ، وفي ذلك يراجع[1] .

* * *

(١) فتح القدير : ٦/ ٧ ، المبسوط : ١٦/ ١١٥ ، ومغني المحتاج : ٤/ ٤٤١ ، وروضة الطالبين : ١١/ ٢٥٤ ، والمغني لابن قدامة : ١٢/ ٩ ، وبداية المجتهد : ٢/ ٤٥٤ ، وشرح الزرقاني علىٰ الموطأ : ٤/ ٣٨٠ ، والأم : ٦/ ٢٦٧ ، والمهذب : ٢/ ٣٣٥ ، والمدونة الكبرىٰ : ٥/ ١٥٨ ، وتفسير الإمام القرطبي : ٣/ ٤٠٢ ، والدر المختار : ٤/ ٣٧٥ ، وتبيين الحقائق : ٤/ ٢٣٧ ، والطرق الحكمية لابن القيم : ١٢٥ ، والمحلىٰ : ١/ ٤٥ .

الباب الحادي عشر

المرأة، عالمة، فقيه، محدّثة

الفصل الأول

تشجيع الإسلام على العلم

حينما تحدث البيان الإلهي عن العلم ، لم يخص به الرجال فقط ، وإنما أتىٰ بذلك بشكل عمومي ، من ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وفي معرض خطابه لأمهات المؤمنين ، يوجههن إلىٰ أن ينقلن العلم كاملاً ـ سواءً ما نزل علىٰ النبي ﷺ من القرآن ، أو ما حدث من تشريعات وأحكام ـ فيقول تعالىٰ :

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٤] .

وعندما يتحدث عن خشية الله ، يكون القرار واضحاً ، بأنها لن تكون إلا من عباد الله العلماء ـ سواء كان ذكوراً أم إناثاً ـ فيقول تعالىٰ :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وعند التمييز بين من يعيش في نعم الله ثم يكفر بها ، وبين من يشغل غالبية أوقاته بالسجود والقيام والخوف من يوم القيامة والرجاء من الله أن يرحمه ، ويأتي البيان الإلهي بصفة من يستطيع التمييز بين هذا الصنف

وذاك ، ألا وهو الإنسان العالم المتعلم ـ سواء كان ذكراً أو أنثىٰ ـ يقول الله تعالىٰ :

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

[الزمر : ٨ـ٩] .

وكذلك الأمر في السنة الشريفة ، حيث لم تخصص موضوع التعلم والتعليم في فئة الرجال فقط ، إنما كان الأمر عاماً ، يستوي في ذلك الرجال والنساء .

من ذلك ما أخرجه الترمذي وأبو داود عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله طريقاً إلىٰ الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العمل ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات والأرض حتىٰ الحيتان في الماء ، وفضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظٍ وافر » .

ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قالت النساء للنبي ﷺ : غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوماً من نفسك ، فوعدهنّ يوماً لقيهنّ فيه فوعظهنَّ وأمرهنَّ ، فكان فيما قال لهن : « ما منكن امرأة تقدّم ثلاثاً من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار » فقالت امرأة : واثنين ، فقال : « واثنين » .

ومن ذلك ما رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت

يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون : ٦٠] أهمُ الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : « لا ، يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويتصدقون ويخافون أن لا يُقبل منهم » ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون : ٦١] .

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن حبان ، والحاكم عن أنس بن مالك : أنّ أمَّ سليم غدت علىٰ رسول الله ﷺ ، فقالت : علمني كلماتٍ أقولهنَّ في صلاتي ، فقال : « كبري الله عشرة ، وسبِّحي عشراً ، واحمدي عشراً ، ثم صلِّي ما شئت ، يقول : نعم نعم » .

ومن ذلك ما رواه الترمذي وابن حنبل وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت :

قلت : يا رسول الله إن وافقت ليلة القدرفما أدعو به ؟

قال : « قولي : اللهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعفُ عنَّا » .

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : جاءت فاطمة إلىٰ النبي ﷺ تسأله خادماً ، فقال لها : « قولي : اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، منزّل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالقُ الحبّ والنوىٰ ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس قبلك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدَّين وأغنني من الفقر » .

* * *

الفصل الثاني

إصرار الشريعة الإسلامية على تعليم المرأة!!

ولا يُفهم من إصرار الشريعة علىٰ تعليم المرأة[1] ، أنها ستصبح يوماً ما وزيرة أو غير ذلك ـ مع العلم أنه لا يعارض ذلك ـ إنما المهم من تعليمها هو تثقيفها لذاتها .

لأن الشريعة تنظر إلىٰ أن المرأة هي المربية للأطفال ، فإن كانت متعلمة خرج الجيل كله متعلماً ، وكان ذلك الأمر سهلاً عليها .

بينما إن كانت جاهلة فسيكون الجيل ـ غالبيته ـ جاهلاً ، وهذا الأمر نلمسه في حياتنا العملية ، خاصة إن كان رب الأسرة من الذين يغيبون عن الأسرة كثيراً ، كأن يكون من الذين يسافرون مدة طويلة خارج البلدة ونحو ذلك .

ولذلك نرىٰ التركيز علىٰ تعليم المرأة وتربيتها التربية اللائقة ، من ذلك نقرأ للشاعر الرصافي أبياتاً رائعة في هذا المجال :

---

(١) لذلك يقول الفقهاء : يحرم علىٰ الرجل منعها من الخروج إلىٰ التعلم ، إن لم يكن هو عالماً ، فإن لم يستطع زوجها تعليمها أمور دينها أو الاستفتاء لها فلها الخروج للسؤال ، وإن منعها من ذلك فقد عصىٰ الله تعالىٰ!!

للتوسع : إرشاد العباد إلىٰ سبيل الرشاد للمليباري ص١٣٩ ، وإحياء علوم الدين للغزالي ٢/ ٣١ . والدر المختار وحاشيته لابن عابدين ، والشوكاني في فتح القدير ، وشرح القسطلاني في شرح البخاري . . .

ولـــم أر للخـــلائـــق مـــن محـــلٍّ يهـــذبهـــا كحضـــن الأمّهـــات

فحضـــن الأم مـــدرســـة تســـامـــت بتـــربيـــة البنيـــن أو البنـــات

وأخـــلاق الـــوليـــد تقـــاس حُسنـــاً بـــأخـــلاق النســـاء الـــوالـــدات

وليـــس ربيـــب عـــاليـــة المـــزايـــا كمثـــل ربيـــب ســـافلـــة الصفـــات!

وليـــس النبـــت ينبـــت فـــي جنـــان كمثـــل النبـــت ينبـــت فـــي الفـــلات

إلىٰ أن يقول مخاطباً أم المؤمنين رضي الله عنها :

أأمّ المـــؤمنيـــن إليـــك نشكـــو مصيبتنـــا بجهـــل المـــؤمنـــات

فتلـــك مصيبـــة يـــا أم منهـــا نكـــاد نغـــص بـــالمـــاء الفـــرات

ثم يختتم قصيدته الرائعة بقوله :

نـــرىٰ جهـــل الفتـــاة لهـــا عفـــافـــاً كـــأن الجهـــل حصـــنٌ للفتـــاة!!!

ونلـــزمهـــنَّ قعـــر البيـــت قهـــراً ونحسبهـــنَّ فيـــه مـــن الهنـــات

لئـــن وأدوا البنـــات فقـــد قبـــرنـــا جميـــع نســـائنـــا قبـــل الممـــات

* * *

الفصل الثالث

نماذج رائعة تتعلّق بالنساء المتعلمات

لكن ما هو القول الفصل في تعليم المرأة ؟!

بعد أن ذكرنا من الآيات والأحاديث بعض التي تتحدث عن تعليم المرأة ، نرىٰ لزاماً أن ننظر إلىٰ التطبيق العملي لهذا الأمر ، في عهد الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم ، ففي النظر في سيرة أولئك العظام خير دليل ناصع علىٰ ما ذهبنا إليه ، وبعدها لا ضرورة لمناقشة القائلين بتحريم التعليم علىٰ المرأة ، سواءً كان انطلاقهم إلىٰ ذلك من غيرة أو من أهواء كامنة في نفوسهم أو. . . !!

لأن كل قضية يُثار حولها خلاف فلا بدَّ من النقل أو العقل ، ليحكم في ذلك .

* ينقل الإمام ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ طائفةً من أحوال النساء وقد أقبلن علىٰ التعليم والتعلم ، وخاصة التفقه في الدين ، والعناية بالحديث الشريف .

من ذلك مثلاً :

قال الزهري : لو جمع علم عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلىٰ علم جميع أزواج النبي ﷺ وجميع النساء ، كان علم عائشة أكثر .

. . . . وقال عاصم الأحول :

كنا ندخل علىٰ (حفصة بنت سيرين) وقد جعلت الجلباب هكذا وتنقّبت به ، فنقول لها : رحمك الله ، قال الله تعالىٰ :

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ ﴾ [النور : ٦٠] .

وهو الجلباب ، قال : فتقول لنا : أي شيء بعد ذلك ؟

فتقول : ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ [النور : ٦٠] .

فتقول : هو إثبات الجلباب .

. . . . وقال أبو الحسن الدارقطني :

أمة الواحد بنت الحسين بن إسماعيل بن محمد القاضي المحامليّ ، سمعت أباها ، وإسماعيل بن العباس الوراق ، وعبد الغافر بن سلامة الحمصي ، وأبا الحسن المصري ، وحمزة الهاشمي الإمام وغيرهم .

وحفظت القرآن والفقه علىٰ مذهب الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ والفرائض وحسابها ، والنحو ، وغير ذلك من العلوم

وكانت فاضلة في نفسها ، كثيرة الصدقة ، مسارعةً في الخيرات ، وحدّثت ، وكتب عنها الحديث

. . . . وقال ابن جابر :

أدركت مولاة أبي أمامة في مسجد حمص ، وهي تُعلّم النساء القرآن والسُّنن والفرائض وتفقههنّ في الدين .

وكانت أم عيسىٰ بنت إبراهيم الحربي : فاضلة عالمة تُفتي في الفقه[1] .

---

(١) من أماكن متفرقة من كتابة صفوة الصفوة خاصة الجزء الرابع والثاني .

وأما ابن العماد الحنبلي فينقل لنا طائفة من تراجم النساء ـ وهي كثيرة جداً ـ وفيها الدليل القاطع علىٰ اهتمام الإسلام بموضوع تعلم وتعليم النساء ، ويبرز لنا نماذج من حياتهن وخاصة اهتمامهن بالعلوم وخاصة الفقه وعلم الحديث ، ولن نستطيع استعراض ذلك كله ، لكن نكتفي ببعض الأمثلة :

(**رقية بنت العفيف عبد السلام بن محمد بن مزروع المدنيّة**) : حدَّثت بالإجازة عن شيوخ مصر والشام كالختني وابن المصري وابن سيِّد الناس من المصريين ، والمزِّي وغيره من الشاميين .

(**أم عيسىٰ مريم بنت أحمد بن أحمد بن قاضي القضاة شمس الدين محمد بن إبراهيم الأذرعيّ**) : قال ابن حجر : وسمعت الكثير من علي بن عمر الواني ، وأبي أيوب الدبوسي ، والحافظ قطب الدين الحلبي ، وناصر الدين بن سمعون ، وغيرهم ، وأجاز لها التقي الصائغ وغيره من المسندين بمصر والحجاز وغيره من الأئمة بدمشق ، خرَّجت لها معجماً في مجلّدة ، وقرأت عليها الكثير من مسموعاتها وأشياء كثيرة بالإجازة .

وهي أخت شمس الدين المتقدِّم ذكره في هذه السَّنة ، عاشت أربعاً وثمانين سنة ، ونعمت الشيخة ، كانت صيِّنة ومحبة في العلم ، وهي آخر من حدَّثت عن أكثر مشايخها المذكورين ، وقد سمع أبو العلاء الغرضيُّ من يوسف الدبوسي ، وسمعت هي منه .

(**فاطمة البغدادية**) : هي أم زينب البغدادية الشيخة العالمة الفقيهة الزاهدة سيدة نساء زمانها الواعظة .

انتفع بها خلق من النساء ، وتابوا ، وكانت وافرة العقل والعلم قانعةً باليسير ، حريصة علىٰ النفع والتذكير ، ذات إخلاص وخشية وأمر

بالمعروف ، انصلح بها نساء دمشق ثم نساء مصر ، وكان لها قبول زائد ووقع في النفوس .

(**وزينب بنت الكمال**) : أم عبد الله ، زينب بنت الكمال أحمد بن عبد الرحيم المقدسية المرأة الصالحة العذراء ، لقيت (مسندة الشام) ، روت عن محمد بن عبد الهادي وخطيب مردا واليدانيّ وسبط ابن الجوزي وجماعة ، وبالإجازة عن عجيبة الباقداريّة ، وابن الخير وابن العليق وعدد كثير ، وتكاثروا عليها ، وتفرّدت ، وروت كتباً كباراً .

(**وعائشة محدثة دمشق**) : هي عائشة بنت محمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامة المقدسي الأصل ـ أبوها ـ الصالحية الحنبلية المذهب ، المحدّثة ، محدثة دمشق .

حضرت في أوائل الرابعة من عمرها جميع صحيح البخاري علىٰ مسند الآفاق الحجّار ، وروت عن خلق ، وروىٰ عنها : الحافظ ابن حجر ، وقرأ عليها كتباً عديدة ، وكانت في آخر عمرها أسند أهل زمانها ، مكثرة سماعاً وشيوخاً ، قاله العلمويُّ في طبقات الحنابلة .

وقال ابن حجر : تفرَّدت بالسماع من الحجَّار ومن جماعة ، وسمع منها الرحَّالة ، فأكثروا ، وكانت سهلة في الإسماع .

ومن العجائب أن ست الوزراء كانت آخر من حدَّثت عن ابن الزّبيديِّ بالسماع ، ثم كانت عائشة آخر من حدَّثت عن صاحبة الحجَّار بالسماع ، وبين وفاتيهما مائة سنة .

(**وفاطمة بنت محمد**) : المقدسية ثم الصالحية الحنبلية أم يوسف ، كان أبوها محتسب الصالحية ، وهو عمُّ الحافظ شمس الدين .

أسمعت الكثير علىٰ الحجَّار وغيره ، وأجاز لها أبو نصر بن الشيرازيِّ

وآخرون من الشام وحسين الكرديّ وعبد الرحمن المنشاويّ ، وآخرون من مصر .

قال ابن حجر : قرأت عليها الكثير من الكتب والأجزاء بالصالحية ونِعْم الشيخة كانت .

(ونَشْوان الكنانية) : هي أم عبد الله نشوان بنت الجمال عبد الله بن علي الكنانية ثم المصرية الحنبلية الرئيسة ، روت عن العفيف النشاوري وغيره ، وروىٰ عنها جماعة من الأعيان ، منهم القاضي كمال الدين الجعفري النابلسي وغيره .

وكانت خيِّرة صالحة ، وهي من أقارب القاضي عز الدين الكناني ، وكانت علىٰ طريقته في العفة والزهد حتىٰ في قبول الهدية .

(وخديجة الحلبي) : هي خديجة بنت محمد بن حسن البابي الحلبي المعروف بابن البيلونيّ الشافعي ، الشيخة الصالحة المتفقهة الحنفية ، أجاز لها الكمال بن الناسخ الطرابلسي وغيره روايةً صحيح البخاري ، واختارت مذهب أبي حنيفة رحمه الله مع أن أباها وإخوتها شافعيون ، حفظاً لطهارتها عن الانتقاض بما عساه يقع من مسِّ الزوج لها ، وحفظت فيه كتاباً وكانت ديِّنة صينة متعبِّدة مقبلة علىٰ التلاوة إلىٰ أن توفيت في شهر رمضان .

(وفاطمة الدقاق) : هي فاطمة بنت الشيخ أبي عليّ الحسن بن علي الدقاق الزاهد زوجة القشيري ، كانت كبيرة القدر عالية الإسناد من عوابد زمانها ، روت عن أبي نعيم الإسفرائيني والعلوي والحاكم وطائفة

(وست الفقهاء) : المعمِّرة أمة الرحمن ست الفقهاء بنت الشيخ تقي الدين إبراهيم الواسطي الصالحية المحدثة ، سمعت جزء ابن عرفة من عبد الحق حضوراً وسمعت من إبراهيم بن خليل وغيره ، وأجاز لها جعفر

الهمذاني وكريمة وأحمد بن المعزّ وابن القسطي وعدد كثير . وكانت مشاركة صالحة مباركة . روت الكثير . وهي والدة فاطمة بنت الدباهيّ .

(وكريمة الخضر) : هي كريمة بنت عبد الوهاب بن علي بن الخضر ، مسنده الشام أم الفضل القرشية الزبيرية ، وتُعرف ببنت الحبقبق . روت عن حسان الزيات وخَلْق ، وأجاز لها أبو الوقت وابن الباغيان ومسعود الثقفي وخلق ، وروت شيئاً كثيراً .

(وزينب بنت محمد بن محمد بن أحمد الغزّي الشافعية) : قال في الكواكب : كانت من أفاضل النساء من أهل العلم والدين والصلاح ، قرأت علىٰ والدها وعلىٰ أخيها شقيقها الشيخ الوالد كثيراً ، وكتبت له كتباً بخطها ، ومدحته بقصيدة تقول فيها :

إنمـا العـالـم الـذي ... جمـع العلـم واكتمـل
قـام فيـه بحقّـه ... يتبـع العلـم بـالعمـل
سهـر الليـل كلـه ... بنشـاط بـلا كسـل
فهـو والله دأبـه ... أبـد الـدهـر لـم يـزل
حـاز علمـاً بخشيـةٍ ... وبـدنيـاه مـا اشتغـل
حـاسـديـه تعجّبـوا ... ليـس ذا الفضـل بـالحِيَـلْ
ذاك مـولاه خصّـه ... بكمـالٍ مـن الأزل
مـن يَـرُم مشبهـاً لـه ... فـي الـورىٰ عقلـه اختبَـلْ
أو بلـوغـاً لفضلـه ... فلـه قـطّ مـا وصـل
فهـو شيخـي وسيـدي ... وبـه النفـع قـد حصـل

وشِعرها في المواعظ وغيرها في غاية الرقة والمتانة ، اتصلت بمنلاً كمال وبعده بالقاضي شهاب الدين البصرويّ .

(**وأمة المحاملي**) : هي أمة الواحد ابنة القاضي أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل المحامليّ ، حفظت القرآن والفقه والنحو والفرائض والعلوم ، وبرعت في مذهب الشافعي ، وكانت تفتي مع أبي علي بن أبي هريرة .

(**وعائشة الباعونية**) : هي عائشة بنت يوسف الباعونية ، الشيخة الصالحة الأريبة العالمة العاملة أم عبد الوهاب الدمشقية ، أحد أفراد الدهور ونوادر الزمان فضلاً وأدباً وعلماً وشعراً وديانة وصيانة ، تنسّكت علىٰ يد السيد الجليل إسماعيل الخوارزمي ، ثم علىٰ خليفة المحيوي يحيىٰ الأرمويّ ، ثم حُملتْ إلىٰ القاهرة ونالت من العلوم حظاً وافراً ، وأجيزت بالإفتاء والتدريس ، وألّفت عدة مؤلفات منها : (الفتح الحنفي) : يشتمل علىٰ كلماتٍ لدنيّة ومعارف سنيّة .

و(الملامح الشرقية والآثار المنيفة) : يشتمل علىٰ إنشادات صوفيّة ومعارف ذوقية .

و(در الغائص في بحر المعجزات والخصائص) : وهو قصيدة رائية .

و(الإشارات الخفية في المنازل العليّة) : وهي أرجوزة اختصرت فيها كتاب (منازل السائرين) للهرويّ .

وأرجوزة أخرىٰ لخّصت فيها كتاب (القول البديع في الصلاة علىٰ الحبيب الشفيع) للسخاوي .

وبديعية شرحتها ، وغير ذلك .

.... و(**زينب بنت مكي بن علي بن كامل الحرّاني**) الشيخة المعمِّرة لعابدة أم أحمد ، سمعت من حنبل وابن طيرزدوستٍّ الكتبة وطائفة ، وازدحم عليها الطلبة !!

. . . . و(**فاطمة بنت عبد القادر بن محمد بن عثمان الشهيرة بنت قريمزان)** ▪ الشيخة الفاضلة الصالحة الحنفية الحلبية شيخة الخانقيين العادليّة والدجاجيّة معاً ، كان لها خط جيد ونسخت كتباً كثيرة ▪ وكان لها عبارة فصيحة وتعففّ وتقشف ، وملازمة للصلاة حتىٰ في حال المرض .

تزوجها الشيخ كمال الدين محمد بن ميرجمال الدين بن قلىٰ درويش الأردبيليّ الشافعي نزيل المدرسة الرواحيّة بحلب الذي قيل : إن جدّه أول من شرح المصباح ، قالت : وعن زوجي هذا أخذت العلم ▪ وكان يقول : ملّكني الله تعالىٰ ستة وثلاثين علماً!

. . . . **(وأم الخير)** : أمَة الخالق ، الشيخة الأصيلة المعمِّرة ▪ ولدت سنة إحدىٰ وعشرة وثمانمائة ، وحضرت علىٰ الجمال الحنبلي ، وأجاز لها الشرف بن الكويك وغيره ، وهي آخر من يروي البخاري عن أصحاب الحجّار ، نزل أهل الأرض درجة في رواية البخاري بموتها رحمها الله تعالىٰ . . .(١) .

* وأما العلامة ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ فقد ذكر كثيراً من أحوال النساء واهتمامهن بالعلم ، وذكر تراجم كثيرة لهن ، من ذلك مثلاً :

قال عطاء بن أبي رباح :

كانت عائشة رضي الله عنها أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأياً في العامة .

---

(١) هذه مقتطفات من كتاب ابن العماد (شذرات الذهب) علماً أن فيه الكثير من تراجم النساء ، وفيها الدليل الواضح علىٰ اهتمام المسلمات بالفقه والحديث و. . . ، وخاصة الأجزاء : ٧ ، ٨ ، ٥ ، ٦ ، ٣ .

وقال هشام بن عروة عن أبيه : ما رأيت أحداً أعلم بفقه ، ولا بطبّ ، ولا بشعر من عائشة .

وأسند الزبير بن بكار عن أبي الزناد قال : ما ريت أحداً أروىٰ للشعر من عروة ، فقيل له : ما أرواك!

فقال : ما روايتي في رواية عائشة ، ما كان ينزل شيء إلا أنشدتْ فيه شعراً. . . !!

. . . ثم يحدثنا عن (زينب بنت أبي سلمة) فيقول :

قال أبو رافع الصائغ : كنت إذا ذكرتُ امرأة فقيهة بالمدينة ذكرت زينب بنت أبي سلمة ، قال : هي يومئذ أفقه امرأة بالمدينة[1] .

* وأما الخطيب البغدادي ـ رحمه الله ـ فقد ذكر تراجم عدد كبير من النساء ، وتحدث عن علمهن وفقههن واهتمامهن بالحديث وغيره ، ونذكر منها :

(خديجة بنت موسىٰ) : الواعظة المعروفة بنت البقّال ، سمعت أبا حفص بن شاهين ، كانت ثقة صالحة فاضلة .

(وجَبْرة السوداء) : مولاة أبي الفتح محمد بن أحمد ، حدَّثت عن أبي الحسين أحمد بن محمد المعروف بابن المتيّم ، كتب عنها غير واحد من أصحابنا ، وكان سماعها صحيحاً .

و(سمانة بنت حمدان الأنبارية) : كانت من المحدِّثات ، ومن رواياتها حديث : « من أخذ من طريق المسلمين شبراً طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين »

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة : الجزء الرابع .

و(**خديجة أم محمد**) : كانت تغشىٰ أبا عبد الله أحمد بن حنبل ، ويحدّثها فروت الحديث ، وأخذ الأعلام عنها .

. . . . و(**زينب بنت سليمان الهاشمية**) : كانت من أفاضل النساء ، وحدثت عن أبيها ، وروىٰ عنها خلق كثير .

. . . و(**عبدة بنت عبد الرحمن**) : أم أحمد الأنصارية ، حدّثت عن أبيها ، ومن رواياتها : حدَّثني أبي عبد الرحمن ن أبيه مصعب عن أبيه ثابت عن أبيه عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه أبي قتادة الحارثة بن ربعيّ قال : قال رسول الله ﷺ :

« خير فرساننا أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع »

وكانت امرأة عاقلة فصيحة متديّنة .

ومن مرويّاتها حديث : « ليس علىٰ النساء غزو ، ولا جمعة ، ولا تشييع جنازة » قال الطبراني : لم يرو هذه الأحاديث عن أبي قتادة إلا ولده ، ولا سمعناها إلا من عبده .

. . . . و(**حفيدة أبي داود السجستاني**) : هي أم سلمة فاطمة حفيدة أبي داود السجستاني ، حدّثت عن أبيها ، وسمع منها أبو القاسم عبد الواحد بن زوج الحُرّة وغيره ، وجاء في كتاب أبي القاسم قوله :

حدثتنا أم سلمة فاطمة بنت عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني إملاءً من حفظها في منزل أبي إسحاق المزكّي في سنة (٣٦٢)هـ وقالت :

حدثني أبي قال : حدثنا أبي قال : حدثنا مسلم بن إبراهيم عن شعبة عن علي بن الأقمر عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة إلا علىٰ شرار الناس »

. . . و(**طاهرة بنت أحمد التنوخية**) حدثت عن أبيها ، وسُمع منها في دار القاضي أبي القاسم التنوخي ، وسمعت من خلق كثير وكانت تكتب عنهم .

. . . . و(**مُنية الكاتبة**) حدَّثت عن أبي الطيب محمد بن إسحاق الوشاء ، وروىٰ عنها عُبيد الله بن الحُسين البزّار الأنباري .

. . . . و(**فاطمة بنت محمد بن عُبيد الصيرفي**) حدثت عن أبيها ، وكانت ثقة .

. . . . و(**جمعة بنت أحمد المحميّة النيسابورية**) حدّثت عن أبي عمرو بن حمدان ، وأبي أحمد الحافظ وغيرهما ، وكان أبو حامد الإسفراييني يُعظّمها ويكرّمها[1] .

* وأما العلامة ابن خلكان ـ رحمه الله ـ

فيترجم لطائفة من النسوة اللائي نبغن في علوم الشريعة كالفقه والحديث ونحوه ، مثال ذلك :

(**نفيسة**) : وهي ابنة أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم زوجة إسحاق بن جعفر الصادق ، من النساء الصالحات التقيّات ، ويُروىٰ أن الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ حضر إليها في مصر ، وسمع عليها الحديث ، وكان للمصريين فيها اعتقاد عظيم[2] .

* وأما محمد بن رافع السلامي ، فينقل ترجمة عدد كبير من النساء أيضاً ، منها علىٰ سبيل المثال لا الحصر :

---

(١) تاريخ بغداد : في أماكن متفرقة ، خاصة الجزء : ١٤ .

(٢) وفيات الأعيان : ٥/ ٤٢٥ .

(**أم عبد الله زينب ابنة الشيخ كمال الدين عبد الرحيم المقدسي**) : الشيخة الصالحة المسندة المعمّرة ، سمعت من محمد وعبد الحميد ابني الهادي ، وإبراهيم بن خليل ، وخطيب مراد ، وعبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني ، ويوسف بن فرغلي ، وأحمد بن عبد الدائم ، وأجاز لها جماعة من بغداد منهم : إبراهيم بن الخير ، والمبارك ابن الخواص ، ومحمد بن عبد الكريم بن السيديّ ، والأعز بن العليق ، ويحيىٰ بن قمرة ، ومحمد بن المعني ، ومحمد بن نصر بن الحصري ، ومحمد بن عليّ بن بقاء بن السبّاك وغيرهم ، وكات صالحة عابدة كثيرة الصلاة والصيام ، وفعل الخير ، وحدّثت بالكتب الكبار ، وكانت سهلة في التسميع ، مُحبّة لأهل الحديث ، كريمة النفس ، وتفرّدت بغالب إجازتها ، وانتُفع بها ، وخُرّج لها .

. . . . و(**أمة العزيز البعلبكية**) : هي ابنة الشيخ الإمام أبي الحسين علي بن محمد بن اليونيني البعلبكية ، سمعت من نصر الله بن حواريّ (سباعيات أبي الأسعد القشيري) ، ومن الشمس بن عبد الرحمن بن أبي عمر الأول من (أمالي القاضي أبي بكر) ومن المسلم بن علاّن ، وأجاز لها شيخ الشيوخ عبد العزيز والكمال الضرير وغيرهما ، وسمع منها البرزالي ، وقال : هي أكبر بنات الشيخ شرف الدين أبي الحسين الموجودات ، وتُعرف بالشيخة ، وهي امرأة مباركة ، لها عبادة واجتهاد .

. . . . (**وعائشة**) : ابنة الإمام الصالح شرف الدين أبي الثناء محمود بن محمد التاذّمي الحلبي ، سمعت من الشيخ تقي الدين إسماعيل بن أبي اليُسر (الشمائل) للترمذي ، ومن أبي الحسن علي بن البخاري (مشيخته) تخريج ابن الظاهري ، ومن يعقوب بن المعتمد منتقىٰ من مسند العشرة من (مسند الإمام أحمد) .

. . . . (**وفاطمة ابنة الشيخ العز بن أبي عمر المقدسي**) : هي الشيخة الصالحة المسندة المعمّرة أم عبد الله المقدسية الصالحية ، حضرت على إبراهيم بن خليل (نسخة أبي مسهر) وما معها ، و(جزء ابن الفراتي) ، وسمعت من ابن عبد الدائم (مشيخته) لنفسه ، وعدة أجزاء ، وأجاز لها محمد بن عبد الهادي ، وحدّثت مرّات ، وكانت عابدةَ رحمها الله تعالىٰ .

. . . (**وعائشة بنت إبراهيم السُّلمي**) : هي الشيخة الصالحة أم محمد ، زوج الحافظ أبي الحجاج يوسف المزّي ، سمعت من أحمد بن هبة الله بن عساكر ، ومن أحمد بن عبد الحميد بن عبد الهادي ، ومن أصحاب محمد بن السيِّد بن أبي لقمة الجزء السابع من حديث أبي النضر محمد بن أحمد بن هارون ، وحدّثت ، وسمع منها ابن طغريل الجزء السابع المذكور ، وكانت تحفظ القرآن وتلقّنه لجماعة من النساء ، وكانت صالحة خيّرة[1] .

* * *

---

(١) الوفيات : القسم الأول .

الفصل الرابع

كيف مرّ تعليم النساء في التاريخ الإسلامي؟!

قبل الإجابة علىٰ هذا السؤال ، لا بدّ من ملاحظةٍ مهمة هي : أن المرأة كالرجل في مجالات التعلم ـ خاصة العلوم الشرعية ـ لذلك فهي مثله في تحمّل العلم والتفقه في الدين ، وعلىٰ لذلك أدلة كثيرة ، فعندما نزل قوله تعالىٰ :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

قام رسول الله ﷺ وقال : « يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد! سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئاً »[١] .

ويستنبط من هذا الحديث الشريف استقلال المرأة في كل أمر ، وهنا عليها أن تحمل ـ كالرجل ـ أعباء الدعوة وشرف الالتزام بأحكام الشريعة[٢] .

والشيء الآخر : أنه لا مانع من أن تُسأل النساء في أمور العلم!!

وهذا الأمر ليس بدعة ، إنما هي سيرة العظام من هذه الأمة . روىٰ

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم .

(٢) للتوسّع يراجع : عالمية الدعوة إلى الله تعالىٰ ، للمؤلف : ٤٧ـ٦٠ .

الإمام مسلم في الصحيح عن ثمامة بن حزن القشيري قال : لقيتُ عائشة رضي الله عنها فسألتها عن النبيذ ، فدعت عائشة جارية حبشية ، فقالت : سل هذه فإنها كانت تنبذ لرسول الله ﷺ .

وروىٰ البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي سلمة قال : جاء رجل إلىٰ عبد الله بن عباس وأبو هريرة جالس عنده ، فقال : أفتني في امرأةٍ ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة ، فقال ابن عباس : آخر الأجلين .

قلت أنا : ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ٤] .

قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخي ـ يعني أبا سلمة ـ ، فأرسل ابن عباس غلامه (كريباً) إلىٰ أم سلمة يسألها ، فقالت : قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلىٰ ، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها .

كذلك فللمرأة أن تشترك في المناظرات العلمية وتحقيق المسائل الفقهية ونحو ذلك ، ولا تمنع الشريعة الإسلامية المرأة من مجادلة ومناقشة الرجال في أمور العلم ! !

فقد روىٰ البخاري ومسلم في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيّرات خلق الله .

فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب ، فجاءت فقالت : بلغني أنك لعنت كيت وكيت ، فقال : وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ، ومن هو في كتاب الله ؟ !

فقالت : لقد قرأتُ ما بين اللوحين فما وجدتُ فيه ما تقول!

فقال : لئن قرأته لقد وجدته ، أما قرأت قوله تعالىٰ :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر : ٧] .

قالت : بلىٰ .

قال : فإنه قد نهىٰ عنه .

قالت : فإن أهلك يفعلونه .

قال : فاذهبي فانظري .

فذهبت فنظرت ، فلم تر من حاجتها شيئاً .

فقال : لو كانت كذلك ما جامعتها .

إذن : لقد أقبلت النساء منذ فجر الدعوة الإسلامية علىٰ العلوم الشرعية وغيرها ، لذلك برز منهن الكثيرات ، حتىٰ إن الإمام ابن سعد ترجم في كتابه الطبقات الكبرىٰ لـ (٧٠٠) لسبعمائة امرأة روين الحديث ونحوه ! !

وكذلك الإمام ابن حجر العسقلاني ترجم في كتابه الإصابة في تمييز الصحابة لـ (١٤٥٣) لثلاثة وأربعين وخمسمائة وألف من المحدثات ! !

وأما الإمام المؤرخ الناقد شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي فقد ترجم في كتابه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لعدد كبير من النساء اللاتي حرصن علىٰ التعلم والعناية بالفقه والحديث ، وهذا الكتاب مؤلف من (٦) مجلدات ، منها مجلد كامل مؤلف من جزأين ـ أي ما يقارب من خمسمائة ورقة ـ خاص بتراجم النساء .

ونجد الأمر نفسه في (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي ، وفي (تهذيب الأسماء واللغات) للسخاوي ، وفي (وفيّات الأعيان) لابن خلكان . . . وغيرهم كثير .

بل إننا نجد أن كثيراً من العلماء والفقهاء والمحدثين البارزين كان من

مشايخهم بعض النساء ، من ذلك علىٰ سبيل المثال لا الحصر :

نقل الإمام السيوطي في مناقب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أن الإمام قال :

لقيت من أصحاب رسول الله ﷺ أنس بن مالك ، وعبد الله بن جزء الزبيدي ، وجابر بن عبد الله ، ومعقل بن يسار ، وواثلة بن الأسقع ، وعائشة بنت عجرد ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ ! ![1] .

والإمام الذهبي (ت ٤٧٨ هـ) المؤرخ الشهير له كتاب اسمه (معجم شيوخ الذهبي) ورد فيه طائفة من أسماء النساء (٨٣) وهن ثلاثٌ وثمانون امرأة أخذ الذهبي عنهن علوم الحديث والتاريخ والسيرة والفقه ونحوها[2] .

بل إن الأمر أكبر من ذلك كله ، حيث إن بعض النساء كنَّ يرددن الفتوىٰ التي يفتي بها الرجال ! !

ويكفي مثالاً علىٰ ذلك ما كانت تفعله السيدة عائشة رضي الله عنها ، حيث كانت تردُّ كثيراً من الفتاوىٰ التي كان يُفتي بها رجال الصحابة ، حتىٰ إن الإمام بدر الدين الزركشي قد جمع ذلك في كتاب عنوانه (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة علىٰ الصحابة) ! !

وهذا الأمر ـ تعليم وتعلُّم المرأة ـ لم يختص بالعهد النبوي فحسب ، بل استمرَّ عبر العصور التالية :

ففي خلافة الأمويين نبغ عدد كبير من النساء في هذا المجال ، وتصدَّر بعضهن إلىٰ التدريس ورواية الحديث واستنباط الأمور الفقهية ! !

---

(١) تبييض الصحيفة بمناقب الإمام أبي حنيفة : ٣٣ .

(٢) ويذكر ياقوت الحموي في كتابه (معجم الأدباء) أن ابن عساكر عدَّ أساتذته الذين أخذ عنهم ، فكان منهم (٨١) امرأة!!

ومن أولئك النسوة ـ كما ذكر ابن خلكان ـ السيدة نفيسة بنت الحسين (ت ٢٠٨ هـ) فقد نبغت في علوم الشريعة ، حتىٰ أطلق عليها العلماء (نفيسة العلوم) ، وكان لها مجلس علم حضره فيمن حضره الإمام الشافعي رحمه الله حيث سمع عليها في الحديث ونحوه .

وحتىٰ البنات الجواري برزن في هذه الجوانب ، من ذلك ماروا العلامة المقريُّ في (نفح الطيب) أنه كان (لابن المصرف) اللغوي المشهور جارية أخذت عنه النحو واللغة ، ولكنها فاقته في ذلك ، وبرعت في العروض علىٰ الأخص ومن ثم سميت بالعروضية ، وذكر أنها كانت تحفظ عن ظهر قلب كتاب (الكامل) للمبرّد ، و(الأمالي) لأبي علي القالي ، وكانت تشرحهما ، وعليها درس كثير من العلماء هذين الكتابين وعنها أخذوا العروض!!

وهكذا يقف المرء مبهوراً أمام ما قدمت النساء في مجال العلم والتعلم ، يقف مبهوراً ويقرأ أمثلةً ونماذج ليتبين حقيقة رأي الإسلام في ذلك :

. . . تلكم السيدة فاطمة بنت الشيخ علاء الدين السمرقندي الذي ألّف كتاباً اسمه (تحفة الفقهاء) ، درست العلوم الشرعية علىٰ يد والدها وغيره ، إلىٰ أن نبغت في ذلك كله ، فصارت الفتوىٰ تخرج من بيت والدها وعليها خطه وخطها!!

فلما تزوجها تلميذه علاء الدين الكاساني ، صارت الفتوىٰ تخرج وعليها توقيع الشيخ السمرقندي ، وابنته فاطمة ، وزوجها علاء الدين الكاساني . بل لقد قال المحققون : إنها كثيراً ما كانت تردُّ علىٰ زوجها وتعيده إلىٰ الصواب ، وهو صاحب الفتاوي الضخمة والذي ألف كتاباً اسمه (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع) مطبوع في هذه الأيام في سبعة

مجلدات ، وفيه شرح كتاب شيخه (تحفة الفقهاء) ، لذلك قيل : شرح تحفته ، وتزوج ابنته!![1]

وتلكم زينب بنت عبد الرحمن الشعري ، والتي كانت عالمة جليلة ، أخذ عنها أعيان العلماء روايةً وإجازةً ، وكان ممن أجازها الحافظ أبو الحسن الفارسي ، وأبو القاسم الزمخشري ـ صاحب تفسير الكشاف ـ وقد أجازت هي العلامة ابن خلكان ـ صاحب وفيات الأعيان ـ وكان يومها صغيراً ، وذلك تشجيعاً له!!

وتلكم كريمة بنت أحمد المروزي ، عالمة مكة في الحديث الشريف ، حتىٰ إن الإمام الخطيب البغدادي قد قرأ عليها صحيح البخاري كله!!

وأما في العصر العباسي :

ذلك العصر الذي ازدادت الترجمة فيه للعلوم غير العربية ، وتوطدت الدولة الإسلامية وانتشر الإسلام في كل مكان ، ولم تقتصر العلوم علىٰ الرجال فقط ، بل إن كثيراً من النساء اشتهرن في هذا العصر ، سواءً في ميادين الفقه والحديث والآداب ، وخاصة العلوم العربية والشرعية .

ويكفي دليلاً علىٰ ذلك أن الإمام السبكي صاحب (طبقات الشافعية) أخذ الكثير من العلوم الشرعية عن نساء ذكرهن في كتابه!!

وكذلك أورد الإمام البخاري أنه أخذ الأحاديث عن كثير وكثيرات منهن : كريمة الحرورية والتنوخية . . .

وبرزت الكثيرات في هذا الميدان أمثال : علية بنت المهدي ، وولادة الروائية ، وحسانة التميمية ، وعائشة بنت أمد ، وفضل المدينة . . .

---

(١) طبقات الفقهاء لطاش كبرىٰ زاده : ١٠٣ ، وسير أعلام النبلاء : ٤/ ٢٥٠ .

والأجمل من ذلك ، أن الإسلام أنّىٰ حل في بلد ـ أي في الفتوحات ـ كان الهم الأكبر لهذا الدين هو نشر العلم والثقافة والنور . . . ، لذلك نجد أنه في كثرٍ من الدول حدث ما لم يكن فيها قط ، ولنكتفي بمثال واحد :

وعن مشاركة المرأة الأندلسية في مجال الفقه وعلوم الدين ، يمكن القول أن الأندلس قد أنجبت نساءً كثيرات ، نبغن في هذه العلوم ، علىٰ نحو ما تشهد كتب التاريخ ، منهن :

ـ خديجة بنت جعفر بن نصر التميمي ، زوج عبد الله بن أسد الفقيه ، يذكر صاحب الصلة (ابن بشكوال) أنها حدثت عن زوجها عبد الله بموطأ القعني قراءة عليه بلفظها في أصله ، ويضيف قائلاً : وقيّدت فيه سماعها بخطها ، في سنة أربع وتسعين وثلاثمائة ، سمعت شيخنا أبا الحسن بن المغيث رحمه الله يذكر ذلك ، وذكر لي أن الكتاب عنده ، ثم رأيت بعد ذلك ، علىٰ حسب ما ذكر رحمه الله .

ـ أم الحسن بنت أبي لواء سليمان بن أصبغ المكناسي ، قرطبية ، زاهدة ، فاضلة ، روت عن بقيّ بن مخلد سماعاً منه ، وقراءة عليه ، وسمعت هناك الحديث ، والفقه ، ثم عادت إلىٰ الأندلس ، وحجّت ثانية ، وتوفيت بمكة ـ شرّفها الله ـ .

ـ ريحانة تلميذة أبي عمرو المقرىء (المتوفىٰ عام ٤٤٤هـ) ، أخذت عنه القراءات وعلومها ، وأتمت دراسة السبع ، وروايات أخرىٰ غيرها ، فأجازها .

ـ ابنة فايز (قرطبية) زوج أبي عبد الله بن عتاب ، أخذت عن أبيها ، علوم التفسير ، واللغة ، والشعر ، وعن زوجها الفقه ، وقدمت علىٰ أبي عمرو الداني لأخذ القراءات عنه ، فألفته مريضاً من قرحة مات منها ، فسألت عن أصحابه فذكروا لها أبو داود ، فلحقت به ، بعد وصوله

(بلنسية) ، وقرأت عليه بالقراءات السبع ، وجوّدتها ، في آخر سنة (٤٤٤هـ) .

ـ خديجة بنت أبي محمد بن سعيد الشنتالي ، محدثة فاضلة ، سمعت مع أبيها من الشيخ أبي ذر عبد الله بن أحمد الهروي الحافظ ، صحيح البخاري ، كما شاركت أباها ، في السماع من شيوخه ، بمكة المكرمة .

ـ عابدة المدنية : جارية سوداء ، من رقيق المدينة ، تروي عن مالك ابن أنس ـ رحمه الله ـ وغيره من علماء المدينة ، وقال بعض الحفاظ : إنها كانت تروي ، عشرة آلاف حديث ، قدم بها (دحّون) إلىٰ الأندلس ، وأعجب بعلمها وفهمه ، فتزوجها[١] .

لذلك ـ وبعد هذا العرض الموجز ـ نستغرب من أين تتسرَّب لأمتنا مقولة أنه لا يجوز للمرأة أن تتعلم!!

وأن عليها أن تقضي حياتها في بيتها ، بل في أظلم مكان فيه ، وفي ثياب رثة!!

كم نحن بحاجة اليوم إلىٰ نساء طبيبات ، ليقمن بفحص بناتنا وأزواجنا وأمهاتنا ، بدل أن يفحصهن الرجال! ؟

كم نحن بحاجة إلىٰ مدرسات ومعلمات ليربين أبناءنا وبناتنا علىٰ ما يحب الله ويرضاه ، بدل أن نتركهم ونتركهن لمدرسات يعلمهن الإلحاد و. . . ! ؟

كم نحن بحاجة إلىٰ فتياتٍ يعلمن ومن ثم يمارسن التمريض والمداواة ؟!

---

(١) بتصرف واختصار من المرأة في الأدب الأندلسي ، إعداد محمد احدادان ، وهي رسالة ماجستير مقدمة لجامعة حلب ـ غير مطبوعة بعد ـ : ٥٩ـ٦٣ .

كم نحن بحاجة إلىٰ مذيعات يلتزمن بأوامر الله ونواهيه! ؟

كم نحن بحاجة إلىٰ زوجات متعلمات يعلمن الأولاد في البيوت ـ وأنعم من تلك المهنة من مهنة ؟!

قد لا أبالغ إن قلت : إن من أهم أسباب تخلف المسلمين هو جهل المرأة عندهم!!

وهل تحسن الجاهلة تربية الأجيال! ؟ وهل تغذي الجاهلة مع لبنها إلا الجهالة والحمق ؟!

إن المسلمين عندما اهتموا بتعليم النساء انعكس ذلك الإشراق والنور علىٰ الأطفال ، فلما كبروا مدّنوا الدنيا وعلموها الحضارة والعلوم .

ذلك هو تاريخنا الناصع ينطق بشواهد كثيرة علىٰ وقوف النساء إلىٰ جانب الرجال في حقل العلم والتعلم ورواية الفقه والحديث وتحملُّ المتاعب في سبيل ذلك كله ، بل علىٰ تتلمذ كثير من فطاحل العلم علىٰ أيدي نساء ، وما المانع من أخذ الرجال العلم عن النساء ؟!

يقبل خبر المرأة العادلة من غير مشاركة رجل معها بخلاف الشهادة ، إذ اشترط الذكورة فيها بالنص ، وهذا إنما اقتداء بالصحابة رضوان الله عليهم ، وكفىٰ بهم قدوة . وهم قبلوا خبر (بريرة) قبل العتاق ، وخبر عائشة الصديقة أم المؤمنين ، وأم سلمة وغيرها[١] .

ولم يُنقل عن أحد من العلماء بأنه ردَّ خبر امرأةٍ لكونها امرأة ، فكم من سنة قد تلقَّتها الأمة بالقبول من امرأةٍ واحدةٍ من الصحابة ، وهذا لا ينكره من له أدنىٰ نصيب من علم السنة[٢] .

---

(١) فتح الرحموت شرح مسلم الثبوت : ١/ ١٤٤ .

(٢) نيل الأوطار للشوكاني : ٨/ ٢٣ .

فهذا العلامة محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) : روىٰ عن أكثر من واحدة ، فروىٰ عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعيد بن زرارة الأنصارية المدنية ، وهي من المكثرات عن عائشة رضي الله عنها ، وأخذ الزهري عنها كثيراً[١] .

والإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالىٰ (ت ١٧٩ هـ) .

روىٰ عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص الزهرية المدنية ، وهي روت عن أبيها وعن أم ذر ، وقيل إنها رأت ستاً من أمهات المؤمنين ، وروىٰ عنها جماعة من أهل العلم ، منهم : الجعيد بن عبد الرحمن ، وأيوب ، والحكم بن عتيبة ، وأبو الزناد ، ومهاجر بن مسمار ، وعبيدة بن نابل وآخرون[٢] .

والإمام القاضي أبو يعلىٰ الفراء (ت ٤٥٨ هـ) رحمه الله تعالىٰ .

سمع من أمة السلام بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة البغدادية ، وتكنىٰ أم الفتح ، وسمع منها جماعة ، وسمعت هي من محمد بن إسماعيل البصلاني وغيره .

قال ابن كثير بعد أن ذكر رواية أبي يعلىٰ الفراء عنها : وأثنىٰ عليها غير واحد في دينها وفضلها وسيادتها ، كان مولدها في رجب في سنة ثمان وتسعين ومئتين ، وتوفيت في رجب سنة تسعين وثلاث مئة[٣] .

والإمام أبو سعد السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) :

ذكر أسماء مشايخه في كتاب (التحبير في المعجم الكبير) ، وكان منهم نساء :

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني : ١١/٤٦٦ .

(٢) تهذيب التهذيب : ١٢/٤٦٤ .

(٣) مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي : ٥٤ .

سرد تسعاً وستين محدثة وراوية للحديث سمع منهن أو كتبن له إجازة بمرويَّاتهن أمثال : أمة الله القشيرية ، وزينب الأصبهانية ، وأم خلف الشحامية ، وأم الرضا الأصبهانية و . . .[1] .

والإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالىٰ (ت ٥٩٧ هـ) :

تحدث عن مشايخه ، فذكر ثلاث نسوة سمع منهن ، وأورد بسنده عنهن ثلاثة أحاديث ، وهن : فاطمة بنت محمد الحسين بن فضلوية الرازي البزاز ، وفاطمة بنت أبي حكيم عبد الله بن إبراهيم الخبريّ ، وشُهدة بنت أحمد الإبريّ[2] .

والحافظ المنذري عن كثير من النساء ، أمثال : صفاء العيش بنت عبد الله الأشرفية الحمزية ، والشيخة أم حسن غضيبة بنت عنان السعدية ، وأم الخير فتوح بنت إبراهيم الشامية ، وخديجة بنت المفضل بن علي المقدسية ، وست الكتبة نعمة بنت علي البغدادي و . . .[3] .

والإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ (ت ٧٥١ هـ) :

سمع من فاطمة بنت محمد البطائحي ، وهي محدثة روت صحيح البخاري عن ابن الزبير مرات ، وسمعت صحيح مسلم من ابن الحضيري شيخ الحنفية ، وسمعت من ابن رواحة ، وكانت دينة ، متعبدة ، صالحة ، مستدة ، ماتت عن ست وثمانين سنة[4] .

إذن أليس هذا كله أوسمة توضع علىٰ صدر التاريخ الإسلامي ؟

---

(١) التحبير في كثير من مواضعه ، خاصة ٢/٣٩٦ .

(٢) المنتظم لابن الجوزي : ١٠/٨٨ .

(٣) عناية النساء بالحديث النبوي ، مشهور بن حسن آل سلمان : ٤٠ـ٤٥ ، تضحيات في سبيل العلم ، للمؤلف : /٥٨ـ٧٤/ .

(٤) شذرات الذهب : ٦/٢٨ .

المرأة في الإسلام لها ما للرجل ، وعليها ما علىٰ الرجل ، لا فرق بينهما إلا في بعض الأمور الهامشية ، وكل منهما يكمِّل الآخر .

أما أن ينتسب أناس إلىٰ الإسلام ليعلنوا أن الإسلام نظر إلىٰ المرأة نظرة دونية ، أو أنه عاملها معاملة دون الرجل ، أو . . . فهذا ليس من الإسلام أبداً ، بل إن عدداً من علماء الإسلام علىٰ مرِّ العصور والأزمان أخذوا عن المرأة العلم و . . . ويكفي فخراً ما قرره إمام الجرح والتعديل الحافظ الذهبي حيث قال :

وما علمت في النساء من اتُّهمت ، ولا من تركوها[1] .

وليسمع أولئك الذين يريدون من المرأة أن تدخل بيتها المظلم وتغلق عليها بابها ولا ترىٰ أحداً :

قالت تميمة بنت سلمة : أَمَّت عائشة رضي الله عنها نساءً في الفريضة في المغرب وقامت وسطهن وجهرت بالقراءة ! !

وقالت ريطة الحنفية : إن عائشة أمتهنَّ في صلاة الفريضة ! !

وقالت حجيرة بنت حصين : أمتنا أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها في صلاة العصر وقامت بيننا ! !

وقالت خيرة بنت أبي الحسن : كانت أم سلمة رضي الله عنه تؤمهنّ في رمضان وتقوم معهنّ في الصف ! !

وقال يحيىٰ بن سعيد : كانت عائشة تؤم النساء في التطوع ! !

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يأمر جارية له بأن تؤم النساء في ليالي رمضان ! !

---

(١) ميزان الاعتدال في نقد الرجال : ٤/ ٦٠٤ .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : تؤم المرأة النساء في التطوع ، تقوم وسطهنّ[1] .

* ولنوثق الأمر أكثر نحاول سرد أسماء أهم النساء اللاتي اشتهرن في الحديث والرواية عبر العصور :

طبعاً في العصر النبوي قلنا أنه ظهر كثيرات أمثال السيدة عائشة وأم سلمة وغيرهنّ .

ثم جاء من بعدهم فروين الأحاديث وشاركن في شرحها ، أمثال : عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة ، حيث أخذت عن عائشة وغيرها (ت ١٠٦ هـ) .

وحفصة بنت سيرين ، وأم الدرداء الصغرىٰ ، ومعاذة بنت عبد الله أم الصّهباء العدوية ، وغيرهن كثيرات .

ثم جاء من بعدهم أمثال : عابدة المدينة حيث روت عشرة آلاف حديث ، وعُليّة بنت حسان ، ونفيسة بنت الحسن بن يزيد ، وغيرهن .

وفي القرن الرابع الهجري برزت كثيرات من النساء أمثال فاطمة بنت عبد الرحمن ، وفاطمة بنت أبي داود ، وأمة السلام بنت القاضي أبي بكر .

وفي القرن الخامس الهجري اشتهرت بعضهن : أمثال فاطمة بنت أبي الحسن الدقاق ، وعائشة بنت حسن بن إبراهيم ، وعائشة بنت محمد بن الحسين البسطاميّ .

وفي القرن السادس الهجري برزت محدثات كثيرات أمثال : فاطمة بنت محمد بن أبي سعيد ، فاطمة بنت سعد الخير .

---

(١) المحلىٰ في مواطن متفرقة خاصة : ٣/ ١٢٠ـ١٣٥ .

وهكذا توالت الأزمنة حتىٰ يومنا ، لنرىٰ اهتمام النساء بالحديث والفقه كما اهتم الرجال ، وهذا دليل واضح علىٰ اهتمام الإسلام بتعليم المرأة .

كيف لا ، والإسلام فرض علىٰ ولي الأمر أن يحصن أهله من آفات الزامن ومن ثمّ من نار جهنم ، وذلك عن طريق العلم والثقافة ، وبالعلم وحده تتعلم الفتاة الإسلام : عقيدة ، وعبادة ، وسنناً ، وفرائض ، وأخلاقاً ، وصدق الله تعالىٰ حين قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم : ٦] .

وشرح العلامة الألوسي ذلك بقوله :

واستدل بها علىٰ أنه يجب علىٰ الرجل تعلم ما يجب من الفرائض وتعليمه لهؤلاء ، وأدخل بعضهم الأولاد في الأنفس ، لأن الولد بعض من أبيه[١] .

بالعلم قامت السماوات والأرض ، وبالعلم مُيِّز الإنسان عن سائر المخلوقات .

وبالعلم بلغ الأجداد العُلىٰ ، فهل نمنع نصف ـ بل قل ثلثي ـ المجتمع من العلم ؟!

إن هذا لأمر يُراد!!

* * *

---

(١) روح المعاني : ٢٨/٥٦ .

الفصل الخامس

فماذا عن علم السيدة عائشة رضي الله عنها؟!

في الحديث عن المرأة : عالمة ، فقيهة ، محدثة ، لا بدّ من وقفة من الشخصية العظيمة في هذا المجال ، ألا وهي السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها .

من أهم العوامل التي جعلتها تبرز في هذا المجال :

١ـ بيت والدها العلمي : فوالدها الصدِّيق كان عالماً بأشعار وأنساب العرب ، وكان الناس يأتونه ليسألونه في ذلك ، يقول ابن كثير رحمه الله في ذلك :

كان أبو بكر رجلاً مؤلفاً لقومه محبباً سهلاً ، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش لما كان فيها من خير وشر[١] .

لذلك روت عائشة رضي الله عنها كثيراً عن والدها ، شعراً ، وخطباً و . . .

---

(١) البداية والنهاية : ٣/ ٣٠ ، وينقل عمر رضا كحالة في أعلام النساء (٣/ ١٠٧) : أعدوا الذين حفظت عنهم الفتوىٰ من الصحابة مائة ونيف وثلاثون نفساً ما بين رجل وامرأة .

وقال الذهبي في الكاشف : إن عائشة أفقه نساء الأمة ، وقال الزركشي في المعتبر : إن عمر وعلياً كانا يسألانها في مسائل فقهية عديدة!!

وأفادها كثيراً في رواية أحداث السيرة والأحاديث الشريفة ، أن والدها قد أسلم أول الرجال ، وكان ملازماً لسيدنا رسول الله ﷺ .

٢ـ بيت زوجها سيدنا رسول الله ﷺ ، وهو بيت العلم ، ومنه خرجت الحكمة ، ومنه أشرق النور كله ، لذا حفظت الكثير الكثير ، حتىٰ قيل إنها حفظت للمسلمين فقه النساء ـ أي ما يتعلق بهن من طهارة وغسل وحيض ـ .

٣ـ ذكاؤها : حيث اعترف كبار الصحابة والتابعين بحدّة ذكائها وقوة ذاكرتها وسرعة حفظها ، لذا حفظت أسباب نزول الآيات ، وأموراً أخر في الطب والشعر والأدب ونحوه .

واهتمت كثيراً بفهم دقائق التفسير القرآني ، حيث انتهجت منهجاً خاصاً بها في التفسير وهو معرفة اتفاق آيات القرآن فيما بينها ـ أي تفسير القرآن بالقرآن ـ كذلك اهتمت بالحديث الشريف ، روايةً وفهماً وشرحاً ، ولم تبخل علىٰ الناس بعلمها وفقهها .

وأما في مجال الفقه ، فقد برزت في عهد كبار الصحابة والتابعين ، ولم تكتف بنقل الأحكام الفقهية ، إنما اجتهدت في كثير من المسائل ، بل انفردت في عدد من المسائل منها :

ـ انفرادها في الإباحة لولد الزنا بالإمامة ، حيث لا فرق عندها في إمامة الصلاة بين ولد الزنا وغيره ، لأن الأفضلية للأقرأ في كتاب الله وللأفقه في أمور الشريعة .

ـ وقالت أيضاً : يجوز للمرأة السفر بدون محرم مطلقاً ، إذا أمنت علىٰ نفسها من الفتنة ، وهذا الأمر سواءً كان السفر للحج أو غيره .

ـ وقالت أيضاً : إن الرضاع يُحرِّم سواء وقع في الصغر أو الكبر ، في أي سن كان لا يحدد في حولين .

ـ وقالت : يكره السفر في شهر رمضان المبارك ، وذلك كي لا يضطر إلىٰ الفطر فيه ، ومن ثم يتعرض إلىٰ الإهمال في القضاء ، والذي يصبح ديناً في ذمة الإنسان لو مات قبل أن يقضي .

ـ وذهبت إلىٰ جواز لبس السراويل القصيرة للمحرم مطلقاً ، سواء اضطر إلىٰ ذلك أم لا .

وقد اعتمدت السيدة عائشة رضي الله عنها في فقهها علىٰ القرآن الكريم ، وعلىٰ السنة الشريفة ، وعلىٰ القياس والاستحسان والاستصحاب والعُرف ، والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة .

وفي الفترة الأخيرة ، جُمع فقهها في مجلد كبير ورُتِّب علىٰ أحرف المعجم مع شرح وافٍ لكل أمر من الأمور ، وهذا من فضل الله ومنته علىٰ هذا الدين ، حيث هيأ له من يقومون بخدمته علىٰ سائر الدهور[1] .

* * *

---

(١) وهو موسوعة فقه عائشة أم المؤمنين ، تأليف الشيخ سعيد الدخيل ، تقديم الدكتور محمد رواس قلعجي ، ط/ دار النفاس ببيروت .

الفصل السادس

وماذا عن مسند الإمام أحمد بن حنبل؟!

المسند كتاب كبير جمع فيه الإمام أحمد كثيراً من الأحاديث الشريفة ، وهو من الكتب المعتمدة في هذا المجال .

لكن ما يهمنا أن الإمام روىٰ أحاديث كثيرة عن النساء ، وأفرد لذلك المجلد الأخير في هذا المسند .

وسنسرد أسماء بعضهن مع بعض ما روين ، ليكون الدليل الكافي علىٰ أن المرأة شقيقة الرجل ، تتحمّل أعباء الدعوة ، وتتقرب إلىٰ الله وتعبده ، وتمارس جميع النشاطات الدينية دون نظرة دونية ودون حرج أبداً .

١ ـ من الصفحة (٤٦) وحتىٰ الصحفة (٤٠٠) أحاديث نبوية روتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، ولو جمعنا هذه الأحاديث لوجدنا عددها يبلغ (٢٣٨٣) حديثاً شريفاً .

وهذا يبيِّن الجهود التي قامت بها ، والاهتمام الكبير ، والذكاء الحاد ، اللذين ساعداها علىٰ حفظ هذه الكمية الكبيرة من هذه الأحاديث .

ومن هذه الأحاديث ما رواه الإمام أحمد عن عثمان بن عمر عن يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة : « أن نساء المؤمنات كنَّ يشهدن مع

رسول الله ﷺ الصبح ، ثم ينقلبن متلفعات بمروطهن إلىٰ بيوتهن ما يعرفن من الغلس »[١] .

ومنها ما رواه الإمام أحمد أن عائشة قالت : لما أُمر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي ، فقال : « يا عائشة إني أذكر لك أمراً ولا عليك أن لا تستعجلي حتىٰ تذاكري أبويك » قالت : وقد علم أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه ، ثم قال : « إن الله عز وجل يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٨ـ٢٩] .

فقلت : في أي هذا أستأمر أبوي ؟! فإني قد اخترت الله ورسوله والدار الآخرة ، قالت : ثم فعل أزواج النبي ﷺ ما فعلت[٢] .

ولو تصفحنا هذه الأحاديث الشريفة التي روتها أم المؤمنين عائشة لوجدنا أن غالبيتها تنقل أحكام النساء ـ الطهارة والحيض والغُسل ونحوه ـ ، كما أنها تنقل كل ما قام به رسول الله ﷺ من فعل دون قول .

وقد عبّر أحد العلماء عن ذلك بقوله : إن أهمية علم عائشة رضي الله عنها أنها كانت تنقل لنا ما يحدث في بيت رسول الله ﷺ إلىٰ درجة أننا نعيش تلك الحياة كما لو كنا نعيش مع رسول الله ﷺ في بيته .

٢ـ ثم هناك بعض الأحاديث الشريفة التي روتها فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، ومنها ما رواه الإمام أحمد بالسند المتصل إليها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلىٰ علىٰ محمد وسلم ثم قال :

---

(١) مسند الإمام أحمد : رقمه (٢٥٥٧٩) .

(٢) المسند : رقمه (٢٥٥٧٧) .

« اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك » وإذا خرج صلىٰ علىٰ محمد وسلم وقال : « اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك »[1] .

٣ـ ثم ما روته أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما ، وهي تبلغ (٤٤) حديثاً . من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد بالسند المتصل إلىٰ حفصة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدراً والحديبية » قالت : أليس الله عز وجل يقول :

« ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم : ٧١] ؟

قال : فسمعته يقول : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٧٢] »[2] .

٣ـ ثم أحاديث روتها أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها ، ويبلغ تعدادها (٢٧٢) حديثاً ، من ذلك ما رواه الإمام أحمد بالسند المتصل إلىٰ أم سلمة أنها قالت : أنها سمعت النبي ﷺ يقول علىٰ المنبر وهي تمتشط : « أيها الناس » ، فقالت لماشطتها : لفِّي رأسي ، قالت : فقالت : فديتك إنما يقول : أيها الناس ، قلت : ويحك أو لسنا من الناس ؟

فلفَّت رأسها وقامت في حجرتها فسمعته يقول : « أيها الناس بينما أنا علىٰ الحوض جيء بكم زمراً فتفرقت بكم الطرق فناديتكم هلمّوا إلىٰ الطريق ، فناداني من بعدي قال : إنهم قد بدّلوا بعدك ، فقلت : ألا سحقاً ألا سحقاً »[3] .

---

(١) المسند : رقمه (٢٥٨٨٠) .
(٢) مسند الإمام أحمد : رقمه (٢٥٩٠١) .
(٣) المسند : رقمه (٢٦٠٠٦) .

٤ـ ثم بعض الأحاديث التي روتها أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها ، من ذلك أنها قالت : « إني سمعت رسول الله ﷺ علىٰ المنبر يقول : لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الاخر أن تحدّ علىٰ ميت فوق ثلاث ليال إلا علىٰ زوجٍ أربعة أشهر وعشراً »[١] .

٥ـ ثم في بعض الأحاديث التي روتها أم المؤمنين جويرية بنت الحارث ، ومن ذلك أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من لبس ثوب حرير ألبسه الله ثوباً من النار يوم القيامة »[٢] .

٦ـ ثم هناك (٢٧) حديثاً روته أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها ، من ذلك ما روته عن النبي ﷺ أنه قال : « من صلّىٰ في يوم ثنتي عشرة ركعة بنىٰ الله له ـ أو بني له ـ بيت في الجنة »[٣] .

٧ـ ثم بعض الأحاديث التي روتها خنساء بنت خذام ، ومنها ما روته أخت مسعود بن العجماء ، ومنها ما روته رميثة .

٨ـ ثم (٦٧) حديثاً نبوياً روته أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية ، منها ما روته من أن النبي ﷺ توضأ بفضل غسلها من الجنابة[٤] .

٩ـ ثم أحاديث نبوية روته صفية أم المؤمنين ، ومنها ما روته أم الفضل بن عباس ـ وهي أخت ميمونة ـ ، ومنها ما روته أم هانىء بنت أبي طالب .

١٠ـ ومنها (٨٣) حديثاً نبوياً روته أسماء بنت أبي بكر رضي الله

---

(١) المسند : رقمه (٢٦٢١٤) .
(٢) المسند : رقمه (٢٦٢١٧) .
(٣) المسند : رقمه (٢٦٢٢٨) .
(٤) المسند : رقمه (٢٦٢٦١) .

عنهما ـ من ذلك أنها سمعت النبي ﷺ يقول :

« من كان منكن يؤمن بالله واليوم الآخر فلا ترفع رأسها حتىٰ نرفع رؤوسنا ، كراهية أن يرين عورات الرجال لصغر أزرهم ، وكانوا إذ ذاك يأتزرون بهذ النمرة »(١) .

١١ـ ثم هناك أحاديث نبوية روتها : أم قيس بنت محصن أخت عكاشة بن محصن ، وسهلة بنت سهيل بن عمرو امرأة أبي حذيفة ، وأميمة بنت رقيقة ، وأخت حذيفة ، وأخت عبد الله بن رواحة ، والربيع بنت معوّذ بن عفراء ، وسلامة بنت معقل ، وضباعة بنت الزبير ، وأم حرام بنت ملحان ، وجذامة بنت وهب ، وأم الدرداء ، وأم مبشر امرأة زيد بن حارثة ، وزينب امرأة عبد الله بن مسعود ، وأم المنذر بنت قيس الأنصارية ، وخولة بنت قيس ، وأم خالد بمن خالد بن سعيد بن العاص ، وأم عمارة ، ورائطة بنت سفيان ، وعائشة بنت قدامة بن مظعون ، وميمونة بنت كروم ، وأم صبية الجهنية ، وأم إسحاق مولاة أم حكيم ، وأم رومان أم عائشة ، وأم بلال ، والصماء بنت بسر ، وفاطمة عمة أبي عبيدة ، وأسماء بنت عميس ، وفريعة بنت مالك ، وأم حميد ، وأم حكيم ، وجده ابن زيادة ، وقتيلة بنت صفيي ، والشفاء بنت عبد الله ، وابنة لخباب ، وأم عامر ، وفاطمة بنت قيس ، وأم فروة ، وأم معقل الأسدية ، وأم طفيل ، وأم جندب الأسدية ، وأم سليم ، وخولة بنت حكيم ، وأم طارق ، وامرأة رافع بن خديج ، وبقيرة ، وأم سليمان بن عمرو بن الأحوص ، وسلمىٰ بنت قيس ، وليلىٰ بنت الحرة ، وأم كرز الكعبية ، وحمنة بنت جحش ، وجدة رباح بن عبد الرحمن ، وأم بجد ، وورقة بنت عبد الله بن الحارث ، وسلمىٰ بنت مزة ، وأم

---

(١) المسند : رقمه (٢٦٤٠٧) .

معقل الأسدية ، وبسرة بنت صفوان ، ونسيبة ، وخولة بنت حكيم ، وخولة بنت تامر ، وخولة بنت ثعلبة ، وأم مالك البهزية ، وأم حكيم بن الزبير بن عبد المطلب ، وعمة حصين بن محصن ، وفاطمة بنت أبي حبيش ، وفريعة بنت مالك ، وأم أيمن ، وأم مبشر ، وحبيبة بنت أبي تجزئة ، وأم كرز الكعبية الخثعمية ، وأم شريك ، وسلمىٰ بنت قيس ، وأم هانىء بنت أبي طالب ، وسودة بنت زمعة ، وأم سليم ، ودرة بنت أبي لهب ، وسبيعة الأسلمية ، وأنيسة بنت خبيب ، وأم أيوب ، وحبيبة بنت سهلوأم حبيبة بنت جحش ، وجذامة بنت وهب ، وامرأة من بني عبد الأشهل ، وحواء جدة عمرو بن معاذ ، وكبشة ، وأم هشام بنت حارثة بن النعمان ، وأم العلاء الأنصارية ، وأم عبد الرحمن بن طارق ، وأم مسلم الأشجعية ، وأم جميل بنت المجلل ، وأم عمارة بنت كعب ، وحمنة ، وأم فروة ، وسلمىٰ ، وميمونة بنت سعدة رضي الله عنهن جميعاً .

إذن : جمع الإمام أحمد في مسنده مجلداً كاملاً روت أحاديثه عن سيدنا رسول الله ﷺ النساء .

وهذا إن دلّ علىٰ شيء فإنما يدل علىٰ ما ذهبنا إليه من أن النساء شقائق الرجال : في الفقه ، والعلم ، والحديث ، و . . .

أبعد هذا يقول قائل : إن الإسلام ظلم المرأة ، ونظر إليها نظرة دونية ، وحجبها عن العلم والنور ، وزجَّ بها في غياهب الظلمات والجهل ؟!

لقد رأينا في كتاب واحد (هو المسند) عدداً كبيراً من النسوة يروين عدداً كبيراً من الأحاديث الشريفة ، والتي تتضمن كثيراً من الأحكام الشرعية ومن أمور الفقه و . . . ، ولم يقل أحد من المسلمين أن هذا الأمر

يجب أن لا نأخذ به لأنه صادرٌ عن النساء . علىٰ العكس تماماً . فقد تلقته المسلمون ونقلوه بكل أمانة وصدق ، لكن أولئك الذين يحاولون اتهام الإسلام بذلك ينطبق عليهم قول المثل العربي : رمتني بدائها وانسلّت!!

* * *

الباب الثاني عشر

المرأة في ميدان الأخلاق

الفصل الأول

الدّين هو الأخلاق

الحديث عن الأخلاق حديث طويل ومتشعب ، وتعريف الأخلاق متعدد ، حيث أخذ كل عالم من العلماء جانباً معيناً ، من ذلك ما أورده ابن القيم ـ رحمه الله ـ من أن الدين كله خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين .

واعتبر علماء السلف الدِّين هو الأخلاق الكريمة ، والأخلاق هي الدين ، ولذلك فسَّر عبد الله بن عباس ـ ترجمان القرآن ـ قول الله تعالىٰ :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

بقوله : لعلىٰ دين عظيم ، لا دين أحبَّ إليَّ ، ولا أرضىٰ عندي منه ، وهو دين الإسلام ، ثم قال : لكل بنيان أساس ، وأساس الإسلام حسن الخلق .

وفسَّر عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم قوله تعالىٰ :

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

بقوله : أمر الله نبيَّه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس ، أما العرف : فهو كل معروف ، وأعرفه التوحيد ثم حقوق العبودية وحقوق العبد ، أما الإعراض عن الجاهلين : فإذا سفهَ عليك الجاهل فلا تقابله بالسَّفه .

واعتبرت الشريعة الإسلامية جميع العبادات تؤدي إلىٰ الأخلاق ،

فليست هذه العبادات طقوساً غامضةً أو مجهولةً ، وليست حركات لا معنىٰ لها ، إنما هي تمارين متكررة ليتعوَّد المسلم علىٰ الأخلاق الصحيحة الواضحة : فهذه الصلاة المفروضة بيّن الله سبحانه وتعالىٰ الحكمة منها فقال :

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ ﴾

[العنكبوت : ٤٥] .

والصوم ما شرع ليدع الإنسان الطعام والشراب ، وإنما ليحرم نفسه عن بعض الشهوات كما أخبر رسول الله ﷺ :

« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه و شرابه »[1] .

وكذلك الزكاة إنما شرعت لغرس مشاعر الحنان والرأفة والمحبة والألفة بين أفراد المجتمع ، وهذا سرُّ قوله تعالىٰ :

﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

وكذلك الحج ليس رحلة شاقة إلىٰ بلاد صحراوية ، إنما هو تربية للنفس والجسد والأفراد علىٰ مكارم الأخلاق :

﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وعلىٰ هذا المنوال سار الصحب الكرام والتابعون من بعدهم ، ولم يُعرف عن أحد أنه قال إن الرجل يتفوّق علىٰ المرأة في مجال الأخلاق .

---

(١) رواه الإمام البخاري .

لكن لنستدل علىٰ هذا القول ونؤكد صحته ، لا بد من استعراض بعض النماذج ، والمشكلة الرئيسية هي العدد الكبير لأنواع الأخلاق ، إذن لا بد من اختيار بعض النماذج فقط[1] :

* * *

---

(١) من مقدمة سلسلة الأخلاق الإسلامية ، للمؤلف : ٣/ ١١٧ .

الفصل الثاني

المرأة في ميدان الصبر

وقفت النساء المسلمات إلىٰ جانب الرجال في جميع المحن والمصائب ، فكانت المرأة صابرةً محتسبة ذلك عند الله تعالىٰ ، وقد برز دورها في كثير من مجالات الصبر :

ها هي تصبر علىٰ الفقر والحرمان و. . . وقد روىٰ ابن حجر قصة فيها العبرة والعظة عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عليٍّ أن رسول الله ﷺ لما زوَّجه فاطمة بعث معها بخميلة[١] ووسادة أدم[٢] حشوها ليف وسقاءين . قال : فقال عليٌّ لفاطمة يوماً : لقد سقوت حتىٰ أسليت[٣] صدري ، وقد جاء الله بسبْيٍ ، فاذهبي واطلبي خادماً لنا .

فقالت : وأنا ، والله ، قد طحنتُ حتىٰ محلَتْ يداي .

فأتت النبي ﷺ فقال : « ما جاء بك ، أيْ بنيَّة ؟ »

فقالت : جئتُ لأسلم عليك ، واستحيت أن تسأله ، ورجعتْ فأتياه جميعاً ، فذكر له عليٌّ حالهما ، فقال : لا والله ، لا أعطيكما

---

(١) نوع من أنواع اللباس .

(٢) وسادة مصنوعة من الجلد .

(٣) أثر ذلك في جلد صدري من العمل .

وأدع أهل الصفة تتلَّوىٰ بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع وأنفق عليهم أثمانهم » .

فرجعا ، فأتاهما وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطَّيا رؤوسهما بدت أقدامهما ، وإذا غطَّيا أقدامهما انكشفت رؤوسُهما ، فثارا ، فقال : « مكانكما ، ألا أخبركما بخيرٍ مما سألتماني ؟ »

فقالا : بلىٰ ، فقال : « كلمات علَّمنيهنَّ جبريل : تسبِّحان في دُبر كل صلاة عشراً ، وتحمدان عشراً ، وتكبِّران عشراً ، وإذا أويتما إلىٰ فراشكما سبِّحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، وكبِّرا أربعاً وثلاثين »

قال عليٌّ : فو الله ، ما تركتهنَّ منذ علَّمنيهنَّ .

وقال له ابنُ الكواء : ولا ليلة صفين ؟

فقال : قاتلكم الله يا أهل الطروق ، ولا ليلة صفين[1] .

وفي تاريخ المسلمات قصص كثيرة في هذا المجال : في شعب أبي طالب ، وفي المعارك ، وفي الفترة المكية و . . .[2] .

وكذلك صمدت المرأة المسلمة أمام محنة المرض ومن ثم أمام فقد الأحباب ، وهناك قصص كثيرة تدل بوضوح علىٰ مدىٰ صبر المرأة المسلمة في هذا المجال .

يروي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءت امرأة من اليمن إلىٰ رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ادع الله عز وجل أن يشفيني .

---

(١) الإصابة : ٤/٣٧٩ .

(٢) يراجع : سيرة سيِّد الأنام عليه الصلاة والسلام « للناشئة » ، للمؤلف .

قال : إن شئتِ دعوت الله لك فشفاك ، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك

قالت : بل أصبر ولا حساب عليَّ !!

. . . . ويروي ابن حجر في ترجمة أم زفر الحبشية السوداء ، قال عطاء : قال لي عبد الله بن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟

قلت : بلىٰ ، قال ؛ هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت : إني أصرع ، وإني أتكشف ، فادع الله لي .

فقال : إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة ، وإن شئتِ دعوت الله أن يعافيك فقالت : أصبر ، وإني أتكشَّف ، فادع الله أن لا أتكشَّف ، فدعا لها !![1] .

. . . . ويروي الأصمعي قال : حدثني رجل من بني ثُعل قال : كنت ببعض نواحي نجد فرُفِعَتْ لي فيه قبة من أدم فقصدتُها ، فإذا أصوات نساءٍ مُعوِلات ، فدنوتُ منهنّ وسألتهنّ عن شأنهنّ ، فقلن : (منفوسة بنت زيدِ الفوارس) أُصيبت بابنها ، وإذا هو في حجرها ، وهي تقول : والله لتقدُّمك أمامي أحب إليّ من تأخرك ورائي ، ولصبري عنك أَجْدىٰ من جزعي عليك ، وما حظ مصيبةٍ تحل من التلف محلك ، وتُورث من العطب مثل مضجعك ؟ ولئن كان فراقك حسرة إنّ توقُّع أجرك لخِيَرة ، ثم قالت : لله در عمرو بن معدي كرب حيث يقول :

إنا لقومٌ لا تفيض دموعنا ... علىٰ هالكٍ منّا وإن قصَم الظهرا !![2]

---

(١) الإصابة : ٤/ ٤٥٤ .

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي : ٤/ ٣١٧ .

.... وتلكم (صفية بنت عبد المطلب) رضي الله عنها :

لما استشهد أخوها حمزة رضي الله عنه ، أقبلت لتنظر إليه ، فلقيها الزبير رضي الله عنه ، فقال : أيْ أمه ، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي ، قالت : ولم قد بلغني أنه مُثّل بأخي ؟ وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ؟ لأصبرنَّ وأحتسبنَّ إن شاء الله !!

فجاء الزبير ، فأخبره ، فقال : « خلِّ سبيلها »

فأتت إليه ، واستغفرت له ، ثم أمر به فدفن !![1] .

... وتلكم الصحابية أم سليم رضي الله عنها :

عندما مات ابن أبي طلحة - أي ابنها - قالت لأهلها : لا تحدِّثوا أبا طلحة بابنه حتىٰ أكون أنا أحدِّثه ، فجاء ، فقرّبت له عشاءه فأكل وشرب ، ثم تصنَّعت له أحسن ما كانت تصَّنع قبل ذلك ، فوقع بها ، فلما رأته قد شبع وأصاب منها ، قالت : يا أبا طلحة ، أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ، قالت : فاحتسب ابنك !

فانطلق حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ فأخبره بما كان ، فقال رسول الله ﷺ : « بارك الله لكما في ليلتكما »

قال : فحملت ، وكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه ، وكان رسول الله إذا أتىٰ المدينة من سفر لا يطرقها طروقاً ، فدنوا من المدينة ، فضربها المخاض ، فاحتبس عليها أبو طلحة ، وانطلق رسول الله ﷺ ، فقال أبو طلحة : إنك لتعلم يا رب ، أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج ، وأدخل معه إذا دخل ، وقد احتبست بما ترىٰ .

---

(١) حياة الصحابة للكاند هلوي : ٢/ ٥٩٤ .

قال : تقول أم سليم : يا أبا طلحة ، ما أجد الذي كنتُ أجد ! !

فانطلقا ، وضربها المخاض حين قدما ، فولدت غلاماً ، فقال أنس : قال لي أبو طلحة : لا يرضعنّه أحد حتىٰ تغدوا به علىٰ رسول الله ﷺ . قال : فلما أصبحتُ احتملته ، فانطلقتُ به إلىٰ رسول الله ﷺ فصادفته ومعه مِيْسَم[1] ، فلما رآني قال : « لعل أم سليم ولدت »

فقلت : نعم ، فوضع الميسم ، فوضعتُه في حجره ، ودعا بعجوة من عجوة المدينة ، فلاكها في فيه حتىٰ ذابت ثم قذفها في فيِّ الصبي ، فجعل يتلمّض فقال : انظروا إلىٰ حبِّ الأنصار التمر فمسح وجهه وسماه عبد الله .

قال الراوي ـ وهو عباية بن رفاعة ـ : فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد تسعة كلهم قد قرؤوا القرآن ، يعني من نسل الولد الذي رزقوه تلك الليلة[2] .

* * *

---

(١) حديدة تُكوىٰ بها جلود الحيوانات .

(٢) صفة الصفوة : ٢/٤٨ـ٤٩ .

الفصل الثالث

المرأة في ميدان التوبة

حينما خاطب البيان الإلهي الناس بأن يتوبوا إلىٰ الله ، لم يميِّز بين الرجل والمرأة ، بل كانت العبارة واضحة المعنىٰ :

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

وقد رويت قصصٌ كثيرةٌ في هذا المجال ، وجمع كثيراً منها الإمام ابن قدامة المقدسي في كتابه التوابين ، نأخذ بعض النماذج منها :

. . . قال وهيب بن الورد : بنيما امرأة في الطَّواف ذات يوم ، وهي تقول :

يا رب ، ذهبت اللَّذات ، وبقيت التبعات .

يا رب ، سبحانك ، وعزتك ، إنك أرحم الراحمين .

يا رب ، ما لك عقوبة إلا النار .

فقالت صاحبة معها : أخيّة ، دخلتِ بيت ربِّك اليوم ؟

فقالت : والله ما أرىٰ هاتين القدمين أهلاً للطواف حول بيت ربي ، فكيف أراهما أهلاً أطأ بهما بيت ربي ، وقد علمتُ حيث مشتا وأين مشتا ؟!

وحكىٰ أحمد بن رياح الكاتب عن الهيثم بن عديّ عن مروان بن محمد قال :

دخلت عزة صاحبة كثيّر علىٰ أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان أخت عمر ، فقالت لها : يا عزة ، ما معنىٰ قول كثير :

قضىٰ كل ذي دينٍ علمتُ غريمه وعـزّة ممطـولٌ معنّـىٰ غـريمُهـا ؟

ما هو هذا الدَّين الذي يذكره ؟ قالت : اعفيني ، قالت : لا بد من إعلامك إياي ، فقالت عزَّة : كنتُ وعدتُه قُبْلة ، فأتاني لينتجزها ، فتحرَّجت عليه ، ولم أفِ له .

فقالت لها أم البنين : أنجزيها منه ، وعليَّ إثمها!

ثم راجعت نفسها فاستغفرت الله ، وأعتقت لكلمتها هذه أربعين رقبة ، وكانت إذا ذكرت ذلك ، بكت حتىٰ تبلّ خمارها ، وتقول :

يا ليتني خرس لساني عندما تكلّمتُ بها ، وتعبّدت عبادةً ذكرت بها في عصرها من شدة اجتهادها ، فرفضت فراش المملكة تحيي ليلها .

وكانت كل جمعة تحمل علىٰ فرس في سبيل الله ، وكانت تبعث إلىٰ نسوة عابداتٍ يجتمعن عندها ، ويتحدَّثن ، فتقول : أحبُّ حديثكنّ ، فإذا قمتُ إلىٰ صلاتي لهوتُ عنكنّ ، وكانت تقول : البخيل كل البخيل من بخل علىٰ نفسه بالجنة ، وكانت تقول : جُعل لكل إنسان نهمه في شيء ، وجُعلت نهمتي في البذل والإعطاء ، والله للعطية والصلة والمواصلة في الله أحبُّ إليَّ من الطعام الطيِّب علىٰ الجوع والشراب البارد علىٰ الظمأ ، وهل ينال الخير إلا بالاصطناع ؟ وكانت علىٰ مذهب جميلٍ حتىٰ توفيت ، رحمها الله تعالىٰ .

وقال سري السقطي ـ رحه الله ـ :

.... ضاقت عليَّ نفسي يوماً ، فقلت في نفسي : أخرج إلىٰ المارستان وأنظر إلىٰ المجانين فيه ، وأعتبر بأحوالهم ، فخرجت إلىٰ بعض المارستانات ، وإذا بامرأة مغلولة يدها إلىٰ عنقها ، وعليها ثياب

حسانٌ وروائح عطرة ، وهي تنشد :

أعيـــذكَ أن تغـــلَّ يـــدي ... بغيـــر جـــريمـــةٍ سبقـــتْ
تغـــلُّ يـــدي إلـــىٰ عنقـــي ... ومـــا خـــانـــت ولا ســـرقـــتْ
وبيـــن جـــوانحـــي كبـــدٌ ... أحـــسُّ بهـــا قـــد احتـــرقـــتْ
وحقـــك يـــا مـــدىٰ أملـــي ... يمينـــاً بـــرَّةً صَـــدَقـــتْ
فلـــو قطّعتهـــا قطعـــاً ... وحقـــك عنـــك لا نطقـــت

فقلتُ لصاحب لمارستان : ما هذه ؟

فقال : مملوكة خُبل عقلها ، فحُبست لتُصلح !

فلما سمعت كلامه أنشدت :

معشـر النـاس مـا جننـتُ ولكـن ... أنـا سكـرانـةٌ وقلبـي صـاحِ
لِـمْ غللتُـم يـدي ولـم آتِ ذنبـاً ... غير هتْكي في حبّه وافتضاحي
أنـا مفتـونـةٌ بحـبّ حبيـبٍ ... لستُ أبغي عن بابه من براحِ
فصلاحي الذي زعمتم فسادي ... وفسادي الذي زعمتم صلاحي
ما علىٰ من أحبّ مولىٰ الموالي ... وارتضـاهُ لنفسـه مـن جنـاحِ

قال سري : فسمعتُ كلاماً أبكاني ، فلما رأت دموعي ، قالت : يا سري ، هذه دموعك علىٰ الصِّفة ، كيف لو عرفته حق المعرفة ؟

قلت : هذا أعجب ، من أين عرفتني ؟

قالت : ما جهلت منذ عرفت أن أهل الدرجات يعرف بعضهم بعضاً !

فقلت : يا جارية ، أراك تذكرين المحبة ، فلمن تحبّين ؟

قالت : لمن تعرّف إلينا بآلائه ، وتحبّب إلينا بنعمائه ، وجاد علينا بجزيل عطائه ، فهو قريب إلىٰ القلوب مجيب ، تسمّىٰ بأسمائه الحسنىٰ ، وأمرنا أن ندعو بها ، فهو حكيم كريم ، قريب مجيب .

قال : فقلت لها : فبم حُبسْتِ ؟

فقالت : قومي عابوا عليَّ ما سمعت مني .

فقلتُ لصاحب المارستان : أطلقها ، ففعل ، فقلتُ : اذهبي حيث شئتِ .

فقالت : إن حبيب قلبي قد ملّكني لبعض مماليكه ، فإن رضي مالكي وإلا صبرت واحتسبت ، فقلت : هذه والله أعقل مني!

فجاء مالكها ومعه ناس كثير ، فقال لصاحب المارستان : وأين بدعة ؟

فقال : دخل عليها سري ، فأطلقها ، فلما رآني عظّمني ، فقلتُ : هي والله أولىٰ بالتعظيم مني ، فما الذي تُنكر منها ؟

فقال : كثرة فِكرتها ، وسرعة عبرتها وزفْرتها وحنينها ، فهي باكية راغبة ، لا تأكل مع من يأكل ، ولا تشرب مع من يشرب ، وهي بضاعتي اشتريتُها بكل مالي بعشرين ألف درهمٍ ، وأمّلت أن أربح فيها ثمنها .

فقلتُ : وما كانت صنعتها ؟ قال : مطربة! قلت : ومنذ كم كان بها هذا الداء ؟ فقال : مذ سنة ، فقلت : ما كان بدؤه ؟

قال : كان العود في حجرها ، وهي تغني وتقول :

وحقك لا نقضْتُ الدهر عهداً ولا كدّرتُ بعد الصفو ودّاً
ملأت جوانحي والقلبَ وجْداً فكيف أقَرُّ أو أسلو وأهدا
فيا من ليس لي مولىً سواه تُراك تركتني في الناس عبداً

قال : فكسرت العود ، وقامت ، وبكت ، فاتهمتُها بمحبة إنسان ، فكشفتُ عن ذلك فلم أجد له أثراً .

قال : فقلتُ له : هكذا كان ؟ فقالت :

خاطبني الوعظ من جناني — وكان وعظي علىٰ لساني
قرّبني منهُ بعدَ بُعْدٍ — وخصّني الله واصطفاني
أجبتُ لما دعيتُ طوعاً — ملبيّاً للذي دعاني
وخفتُ مما جنيتُ قِدْماً — فوقع الحبُ بالأمانْ

قال : فقلت له : عليَّ الثمن وأزيدك .

قال : فصاح ، وافقراه ، من أين لك ثمن هذه ؟

فقلت : لا تعجل عليَّ ، تكون في المارستان حتىٰ آتي بثمنها ، ثم مضيتُ وعيني تدمع ، وقلبي يخشع ، وبتُّ ولم أطعم غمضاً ، ووالله ما عندي درهم من ثمنها ، وبقيت طول ليلتي أتضرع إلىٰ الله وأقول :

يا رب ، إنك تعلم سرِّي وجهري ، وقد اتكلتُ علىٰ فضلك ، وعوّلتُ عليك فلا تفضحني .

فبينما أنا عند السحر إذا بقارع يقرعُ الباب ، فقلت : من بالباب ؟

فقال : حبيب من الأحباب ، أتىٰ في سبب من الأسباب ، من الملك الوهاب .

ففتحت الباب ، فإذا برجل معه خادم وشمعة ، فقال يا أستاذ ، أتأذن لي بالدخول ، فقلت : ادخل ، من أنت ؟

قال : أنا أحمد بن المثنىٰ ، قد أعطاني مالك الدار فأكثر ، كنت الليلة نائماً ، فهتف بي هاتف المنام : احمل خمس بدراتٍ إلىٰ سريّ يعطيها لمولىٰ (بدعة) يفكها من الأسر ومن رق العبودية الساعة فلنا بها عناية .

فجئت مبادراً بهذا المال ، فاصنع به ما شئت .

قال : فخررت لله ساجداً ، وارتقبت الصبح ، فلما تعالىٰ ضوء النهار أخذت بيد أحمد ومضيتُ به إلىٰ المارستان ، فإذا الموكَّل به يلتفت يميناً

وشمالاً ، فلما رآني قال : مرحباً ادخل فإن لها عند الله عناية ، هتف بي البارحة هاتف ، وهو يقول :

إنهـــا منـــا بيـــال ليســت تخلــو مــن نــوال
قــرُبــتْ ثــم تسمّــت وعلــتْ فــي كــل حــال

فحفظت هذا القول وكررته إلىٰ أن أتيتم ، فدخلت عليها وهي تقول :

قــد تصبَّــرتُ إلــىٰ أن عيــلَ فــي حبــك صبــري
ضــاق مــن غلّــي وقيــدي وامتهــانــي فيــك صــدري
ليــس يخفــىٰ عنــك أمــري يــا منــىٰ قلبــي وذخــري
أنــت لــي تعتــقُ رقبــي وتفــكُّ اليــوم أســري

قال : وأقبل مولاها يبكي ويخشع ، فقلت له : قد جئناك بما ورثت وربح خمسة آلاف ، فقال : لا والله! فقلت : بربح عشرة آلاف ، فقال : لا ، فقلت : بربح المثل ، فقال : لو أعطيتني الدنيا ماقبلتُ ، وهي حرة لوجه الله تعالىٰ ، فقلت له : ما القصة ؟

فقال : يا أستاذ ، وُبِّختُ البارحة ، أشهدك إني خارج من جميع مالي وهارب إلىٰ الله تعالىٰ ، اللهم كُن لي بالسّعة كفيلاً وبالرزق جميلاً .

فالتفتُّ إلىٰ ابن المثنىٰ ، فرأيته يبكي ، فقلت له : ما بكاؤك ؟

فقال : ما رضي بي المولىٰ لما ندبني إليه ، أشهدك أني قد تصدَّقتُ بجميع مالي لوجه الله تعالىٰ!

فقلت : ما أعظم بركة (بدعة) علىٰ الجميع ، فقامت فنزعت ما كان عليها ، ولبست مدرعةً من الشعر وخرجت وهي تقول :

هــربــتُ منــه إليــه بكيــتُ منــه عليــه
وحقــه فهــو مــولــىً لا زلــتُ بيــن يــديــه

حتــــىٰ أنــــال وأحظـــــىٰ بمـــا رجـــوتُ لــــديــــه

قال سريّ : فأقمتُ بعد ذلك مدة حتىٰ مات مولاها ، فبينا أنا أطوف بالكعبة وأنا بصوتٍ محزون من كبد مقروحة ، وهو يقول :

قـــد تشَّهـــرت بحبِّـــكْ كيـف لـي منـك بقـربـكْ
كيـف بـي يـا نفـس إن وا خَـــذكِ الله بـــذنبـــكْ
لـــم يقـاســي أحـــدٌ يــا نفـس كـربـاً مثـل كـربـكْ
فَسَلـــي ربـــك يـــأتيـ ـك الـرضـىٰ مـن عنـد ربـكْ

قال : فتبعت الصوت ، فإذا امرأة كالخيال ، فلما رأتني قالت : السلام عليك يا سريّ ، فقلتُ : وعليك السلام ، من أنتِ ؟

فقالت : لا إله إلا الله ، وقع التناكر بعد المعرفة! أنا بدعة .

فقلت : ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق ؟

فقالت : أفادني كل المنىٰ ، وأنشدت :

يـا مـن رأىٰ وحشتـي فـآنسنـي بـالقُـرب مـن قـربـه فـأنعشنـي
هربتُ من مسكني إلىٰ سكني نعـم ومـن مـوطنـي إلـىٰ وطنـي
يا سكني لا خلوتُ من سكني دهـري ويـا عـدَّتـي علـىٰ الـزمـن
أوحشنـي مـا فقـدت منـه فقـد عـاد بـإحسـانـه فـآنسنـي
وعــدت أيضــاً وعــاد منعطفــاً كـذاك مـذ كـان منـه عـوَّدنـي

ثم قالت : لا حاجة لي بالبقاء ، فخذني إليك ، قال : فحرَّكتها فإذا هي ميتة ـ رحمها الله تعالىٰ ـ! !

* * *

الفصل الرابع

المرأة في ميدان الزهد والقناعة والورع

التاريخ الإسلامي وكتب التراجم والسير زاخرة بالقصص عن النساء اللاتي برزن في هذا الجانب ، ولا مجال لذكرها كلها ، لكن نأخذ نماذج فقط :

لقي سفيان الثوري رابعة رحمها الله تعالىٰ وكانت زريَّة الحال ، فقال لها : يا أم عمرو ، أرىٰ حالاً رثّة ، فلو أتيت جارك فلاناً لغيَّر بعض ما أرىٰ ، فقالت له : يا سفيان ، وما ترىٰ من سوء حالي ؟ ألست علىٰ الإسلام ؟ فهو العز الذي لا ذل معه ، والغنىٰ الذي لا فقر معه ، والأُنس الذي لا وحشة معه ، والله إني لأستحيي أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟!![1] .

وقال محمد بن قدامة : بلغنا أن امرأة كان يقال لها (حَسَنة) تركت نعيم الدنيا فأقبلت علىٰ العبادة ، فكانت تصوم النهار ، وتحيي الليل ، وليس في بيتها شيء ، كلما عطشت خرجت إلىٰ النهر فشربت بكفّيها ، وكانت جميلة ، فقالت لها امرأة : تزوجي .

فقالت : هات رجلاً زاهداً لا يكلِّفني من أمر الدنيا شيئاً ، وما أظنك

(١) وفيات الأعيان : ٢/ ٢٨٥ .

تقدرين عليه ، فو الله ما في نفسي أن أعبد الدنيا ولا أتنعّم مع رجال الدنيا ، فإن وجدتِ رجلاً يبكي ويبكيني ، ويصوم ويأمرني ، ويتصدّق ويحضّني عليها ، فبها ونعمت ، وإلا فعلىٰ الرجال السلام!![1] .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله تعالىٰ :

كنت مع أبي يوماً من الأيام في المنزل ، فدق داقٌّ الباب ، فقال لي : اخرج فانظر من بالباب ؟ فخرجت فإذا امرأة ، قال : قالت لي : استأذن لي علىٰ أبي عبد الله ، قال : استأذنته ، فقال : ادخلها ، قال : فدخلت ، فجلستْ ، فسلّمت عليه وقالت له : يا أبا عبد الله ، أنا امرأة أغزل بالليل في السّراج ، فربما طفىء السراج فأغزل في القمر ، فعليّ أن أبيّن غزل القمر من غزل السراج ؟ قال : فقال لها : إن كان عندكِ بينهما فرق ، فعليك أن تُبيني ذلك .

قال : قالت له : يا أبا عبد الله أنين المريض شكوىٰ ؟!

قال : أرجو أن لا يكون شكوىٰ ، ولكنه اشتكاء إلىٰ الله .

قال : فودَّعَتْه ، وخرجت .

قال : فقال لي : يا بنيّ ، ما سمعت قط إنساناً سأل عن مثل هذا ، اتبع هذه المرأة ، فانظر أين تدخل ؟

قال : فاتبعتها ، فإذا قد دخلت إلىٰ بيت (بشر بن الحارث) وإذا هي أخته .

قال : فرجعتُ فقلت له ، فقال : محال أن تكون مثل هذه إلا أخت بشر!![2]

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان : ٢/ ٢٨٩ ، وصفة الصفوة : ٤/ ٣٣ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وغيره من مراجع التاريخ والتراجم .

إذن : برزت المرأة في ميدان الأخلاق ، فتحملت وصبرت ، وخفضت الصوت وغضت البصر ، وأحبت في الله ورسوله وبرت والديها وكانت مثالاً تحتذىٰ مع جيرانها ، ووصلت أرحامها ، وتواضعت لله ، وكرهت الغيبة والنميمة ، وقمعت النفس عن الهوىٰ ، واستغفرت الله وخافته وخشيت منه ، وابتعدت عن أكل الحرام ، وكانت رحيمة شفوقة ، وامتازت بالإخلاص والشكر والحلم والورع والأمانة والتوبة والصدق ، والتوكل علىٰ الله ، و. . . .

ولنختم الكلام بهذا المثال الذي يُظهر حرص المسلمة علىٰ الابتعاد عن الحرام :

كان ببغداد رجل بزّاز[1] له ثروة ، فبينما هي تحادثه كشفت عن وجهها في خلال ذلك ، فتحيَّر وقال : قد والله تحيَّرتُ مما رأيتُ .

فقالت : ما جئتُ لأشتري شيئاً ، إنما لي أيام أترددُّ إلىٰ السوق ليقع بقلبي رجل أتزوجه ، وقد وقعت أنت بقلبي ، ولي مالٌ ، فهل لك في التزوّج بي ؟ فقال لها : لي ابنة عمّ وهي زوجتي ، وقد عاهدتها ألا أغيّرها ، ولي منها ولد .

فقالت : قد رضيتُ أن تجيء إليّ في الأسبوع نوبتين .

فرضي ، وقام معها ، فعقد العقد ، ومضىٰ إلىٰ منزلها ، فدخل بها ، ثم ذهب إلىٰ منزله فقال لزوجته : إن بعض أصدقائي سألني أن أكون الليلة عنده .

فبقي علىٰ هذا ثمانية أشهر ، فأنكرت ابنة عمه أحواله ، فقالت لجاريةٍ لها : إذا خرج فانظري أين يمضي ؟

---

(١) أي بائع الثياب .

فتبعته الجارية ، فجاء إلىٰ الدكان ، فلما جاء الظهر قام ، وتبعته الجارية ، وهو لا يدري إلىٰ أن دخل إلىٰ بيت تلك المرأة ، فجاءت الجارية إلىٰ الجيران فسألتهم : لمن هذه الدار ؟ فقالوا : لصبية قد تزوجت برجل بزّاز ، فعادت إلىٰ سيدتها فأخبرتها ، فقالت لها : إياك أن يعلم بهذا أحد ، ولم تظهر لزوجها شيئاً .

وأقام الرجل تمام السنة ، ثم مرض ومات ، وخلّف ثمانية آلاف دينار ، فعمدت المرأة التي هي ابنة عمه إلىٰ ما يستحقه الولد من التركة ، وهو سبعة آلاف دينار ، فأفردتْها ، وقسمتِ الآلاف الباقية نصفين ، وتركتْ النصف في كيس ، وقالت للجارية :

خذي هذا الكيس واذهبي إلىٰ بيت المرأة ، وأعلميها أن الرجل مات ، وقد خلّف ثمانية آلاف دينار ، وقد أخذ الابن سبعة آلاف بحقه ، وبقيتْ ألف ، فقسمته بيني وبينك ، وهذا حقك ، وسلّميه إليها . فمضت الجارية ، فطرقتْ عليها الباب ، ودخلت ، وأخبرتها خبر الرجل ، وحدّثتها بموته ، وأعلمتها الحال ، فبكت ، وفتحت صندوقها ، وأخرجت منه رقعةً ، وقالت للجارية :

عودي إلىٰ سيدتك ، وسلّمي عليها عني ، وأعلميها أن الرجل طلّقني ، وكتب لي براءة ، ورُدِّي عليها هذا المال ، فإني ما أستحق في تركته شيئاً !![1]

أهذه قصص من عالم الخيال ؟!

أم أنها أحداث وقعت في التاريخ الإسلامي ؟!

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي : ٢/ ٥٣٢ .

إننا اليوم وقد بعُدنا عن الدين الحنيف نرىٰ أمثال هذه القصص ـ إذا ما أسقطناها علىٰ واقعنا ـ خيالية لا تحدث في الواقع ، لكن الإسلام عندما دخل إلىٰ قلوب النساء والرجال ، لم يعد هناك شيء اسمه المستحيل ، وعندها ارتاح الرجل وارتاحت المرأة ، لأن كليهما عرف حقه وعرف واجبه فالتزم بذلك . . .

* * *

الباب الثالث عشر

المرأة خطيبة، بليغة، شاعرة

الفصل الأول

النساء والشِّعر

امتنّ الله تعالىٰ علىٰ الإنسان بأنه علَّمه أسلوب التعبير عمَّا يدور في نفسه ، وأشار إلىٰ ذلك في سورة الرحمن :

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾

[الرحمن : ١ـ٤] .

وأهم أنواع البيان : الكتابة ، والشِعر ، والخطابة ، والبلاغة ، وقد برز الأجداد العرب في هذه المجالات .

ولذلك قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : الشعر علم العرب وديوانها فتعلموه ، وعليكم بشعر الحجاز .

وقال : إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله ولم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب .

لكن هذا الأمر لم يكن مقتصراً علىٰ الرجال وحدهم ، بل برز فيه نساءٌ كثيرات في البلاغة والفصاحة والخطابة وفنِّ الرثاء والشِعْر و . . .

وقد كُتب في ذلك الكثير ، وتناقلت المراجع والمصادر كثيراً من هذه التحف النسائية ، ونحن بدورنا سننقل بعضاً منها ، لنستدل علىٰ ما قلناه في البداية من أن النساء شقائق الرجال ، وأنه لا فرق بين الصنفين إلا في أشياء قليلة ـ اعتبرها الله تعالىٰ من الفطرة ووجدت لأمور يعلمها هو

سبحانه وتعالىٰ ـ ولحكمٍ تقتضيها ضرورة التعايش علىٰ سطح هذه الأرض :

* برز في عصر الجاهلية نساءٌ شاعرات ، وكان أكثر اهتمامهن بالرثاء ، فهذه أعرابية يموت ابنها فترثيه شعراً :

أيا ولـدي قـد زاد قلبـي تلهبـاً ... وقد حرقت مني الشؤون المدامعُ
وقد أضرمت نارُ المصيبة شعلةً ... وقد حميت مني الحشا والأضالعُ
وأسأل عنك الركب هل يخبرونني ... بحالك كيْما تستكنّ المضاجعُ
فلا بك فيهم مخبرٌ عنك صادقٌ ... ولا فيهـمُ مـن قـال إنـك راجـعُ
فيا ولدي مُذ غبتَ كدّرت عيشتي ... فقلبـي مصـدوعٌ وطـرفـي دامـعُ
وفكـري مسقـومٌ وعقلـي ذاهـبٌ ... ودَمعـي مسفـوحٌ وداري بـلاقـعُ

وتلكم الشاعرة المخضرمة تماضر الخنساء (ت ٤٦هـ) توفي أخوها صخر ، فراحت تقول القصائد في رثائه ، من ذلك علىٰ سبيل المثال :

قـذىً بعينـك أم بـالعيـن عُـوّار ... أم أقفرتْ إذ خلتْ من أهلها الدار
كـأن عينـي لـذكـراه إذا خطـرت ... فيضٌ يسيل علىٰ الخدَّين مدرارُ
تبكي (خُناس) علىٰ (صخرٍ) وحقٌّ لها ... إذ رابها الدهر إن الدهر ضرَّارُ
لا بدَّ من ميتةٍ في صرفها عبرٌ ... والدهر في صرفه حولٌ وأطوارُ
يـا صخـر ورّادَ مـاء قـد تـواردهُ ... أهـل المـوارد مـا فـي وِرده عـارُ
وإن صخـراً لتـأتـمُّ الهـداة بـه ... كـأنـه علـمٌ فـي رأسـه نـارُ
لـم تُلفـهِ جـارةٌ يمشـي بطـاحتهـا ... لـريبـة حيـن يُخلـي بيتـه الجـارُ
مثـل الـردينـيّ لـم تنفـذْ شبيبتـه ... كـأنـه تحـت طـيّ البـرْد أسـوارُ
طلق اليدين بفعل الخير معتمدٌ ... ضخم الدسيعة[1] بالخيرات أمّارُ

---

(١) أي : مائدته كريمة وكبيرة ، وهذا دليل حبه لضيوف وإكرامهم .

حمـال ألـويـةٍ ، هبّـاط أوديـةٍ   شهّـاد أنـديـةٍ للجيـش جـرّارُ

لكن لما جاء الإسلام هذَّب فن النوح والرثاء ، وأخذ به إلىٰ طريق الصَّواب ، فأصبح يسير تحت مظلة الإسلام ، ومع قانون القرآن ، ومن ذلك ما قالته السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها حين انتقل سيدنا رسول الله ﷺ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ :

إنا فقدناك فقدَ الأرض وابلَها[1]   وغاب مُذ غبتَ عنا الوحي والكُتُبُ
فليت قبلك كان الموت صادفنا   لمّا نُعيتَ وحالت دونكَ الكُتُبُ

ثم تأتي عمته صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها ، فترثيه ﷺ رثاءً تفوح منه المعاني الإسلامية ، وتقول :

ألا يـا رسـول الله كنـت رخـاءنـا   وكنـتَ بنـا بـرّاً ولـم تـكُ جـافيـاً
وكـان بنـا بـرّاً رحيمـاً نبيُّنـا   ليبك عليك اليوم من كان باكيا
لعمـري مـا أبكـي النبـي لمـوتـه   ولكـن لهَـرْجٍ كـان بعـدك آتيـاً
كـأنّ علـىٰ قلبـي لفَقـد محمـدٍ   ومن حبّه من بعد ذاك المكاويا
(أفاطم) صلّىٰ الله ربُّ محمدٍ   يُبكّي ، ويدعو جدَّه اليوم نائيا
فـدىً لـرسـول الله أمـي وخـالتـي   وعمـي ونفسـي قصـره وعيـاليـا
صبرتَ وبلَّغت الرسالة صادقاً   ومتَّ صليب الدين أبلج صافيا[2]
فلـو أن ربَّ العـرش أبقـاكَ بيننـا   سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
عليـك مـن الله السـلامُ تحيـةً   وأدخلتَ جناتٍ من العَدْنِ راضياً

ولما توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقفت السيدة عائشة علىٰ قبره وقالت :

---

(١) أي : المطر الشديد .
(٢) أي : قوي الدِّين ، واضحاً مضيئاً منيراً .

نضَّر الله وجهك يا أبتِ ، وشكر لك صالح سَعْيك . فلقد كان أجلَّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك . وأعظم المصائب بعده فقدك . إن كتاب الله ليعد بحُسْن الصبر عنك حُسْن العِوَض منك ، وأنا أستنجز موعودَ الله تعالىٰ بالصبر فيك ، وأستقضيه بالاستغفار لك ، أما لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا فلقد قمت بأمر الدين لمَّا وهىٰ شَعبُهُ وتفاقم صَدْعُهُ ورَجَفتْ جوانبُه[1] ، فعليك سلام الله توديعَ غير قاليةٍ ـ كارهة ـ لحياتك ولا زاريةٍ[2] علىٰ القضاء فيك .

ولما استشهد سيدنا عمر رضي الله عنه راحت زوجته عاتكة ترثيه وتقول :

عيــنُ جــودي بعبــرةٍ ونحيــبِ ... ولا تملّـي علىٰ الأميـن النجيـبِ
فجعتني المنونُ بالفارس المُعلم ... يــوم الهيــاج والتثــويــبِ[3]
عصمة الناس والمعين علىٰ الدهر ... وغيــث المحــروم والمحــروبِ
قل لأهل الضرَّاء والبؤس موتوا ... قد سقته المنون كأس شعوبِ[4]

* * *

(١) أي لما تفرَّق المسلمون ، وارتدَّ منهم من ارتد .
(٢) أي : عائبةٍ .
(٣) المعلم : أي المعروف بين الناس ، والتثويب هو الدعاء .
(٤) للتوسع في ذلك يراجع : زهر الآداب للقيرواني ، ونهاية الأرب للنويريِّ ، والشّعر والشعراء في ميزان الشريعة الإسلامية ، للمؤلف .

الفصل الثاني

نساءٌ خطيبات!!

وفي مجال الخطبة والوعظ والفصاحة تبرز نساء كثير ، ولنصغي إلىٰ نماذج من أقوالهن لنرىٰ الحقيقة واضحةً جليةً :

تلكم الزهراء رضي الله عنها تقف في الناس بعد انتقال رسول الله ﷺ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ فتقول كلاماً فصيحاً بليغاً ، ومما قالته في ذلك :

الحمد لله علىٰ ما أنعم ، وله الشكر علىٰ ما ألهم ، والثناء بما قدم : من عموم نعم ابتداها وسبوغ آلاء أسداها ، وتمام نعم أولاها ، جلّ عن الإحصاء عددها ، ونأىٰ عن المجازاة أمدها ، وتفاوت عن الإدراك أبدها ، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها .

واستحمد إلىٰ الخلائق بأجزالها ، وثنىٰ بالندب إلىٰ أمثالها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له : كلمة جعل الإخلاص تأويلها ، وضمن القلوب موصولها ، وأنار في التفكر معقولها ، الممتنع من الأبصار رؤيته ، ومن الألسن صفته ، ومن الأوهان كيفيته ، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها ، كوّنها بقدرته ، وذرأها بمشيئته من غير حاجة إلىٰ تكوينها ، ولا فائدة له في تصويرها إلا تثبيتاً لحكمته وتنبيهاً علىٰ طاعته ، وأشهد أن أبي محمداً ﷺ عبده ورسوله ، ابتعثه الله تعالىٰ إتماماً لأمره ، وعزيمة علىٰ إمضاء حكمه ، وإنفاذاً لمقادير حتمه ، فرأىٰ الأمم فرقاً في

أديانها عكفاً علىٰ نيرانها عابدةً لأوثانها ، منكرةً لله مع عرفانها .

فأنار الله بأبي محمد ﷺ ظلمها ، وكشف عن القلوب بهمها ، وجلىٰ عن الأبصار غممها . أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه . وحملة دينه ووحيه ، وأمناء الله علىٰ أنفسكم ، وبلغاؤه إلىٰ الأمم . فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك ، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر ، والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق ، الصيام تثبيتاً للإخلاص . والحج تشييداً للدين ، والعدل تنسيقاً للقلوب ، وطاعتنا نظاماً للملّة ، وإمامنا أماناً من الفُرقة ، والجهاد عزاً للإسلام وذلاً لأهل الكفر والنفاق . والصبر معونة علىٰ استيجاب الأجر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مصلحة للعامة ، وبرّ الوالدين وقاية من السخط . وصلة الأرحام منسأة في العمر . والقصاص حقناً للدماء ، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة ، وتوفية المكاييل والموازيين تغيراً للبخس .

أيها الناس : اعلموا أني فاطمة وأبي محمد ﷺ ، أقول عَوداً وبِدءاً ، ولا أقول ما أقول غلطاً ، ولا أفعل ما أفعل شططاً :

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

. . . وتلكم السيدة حفصة تقف لتقول بعد استشهاد والدها سيدنا عمر رضي الله عنهما :

الحمد لله الذي لا نظير له والفرد الذي لاشريك له ، وأما بعد :

فكل العجب من قوم زيّن الشيطان أفعالهم وارعوىٰ إلىٰ صنيعهم ونصب حبائله لختلهم . حتىٰ همَّ عدو الله بإحياء البدعة ونبش الفتنة وتجديد الجور بعد دروسه . وإظهاره بعد دثوره ، وإراقة الدماء وإباحة الحمىٰ وانتهاك محارم الله عز وجل بعد تحصينها ، فأضرىٰ وهاج وتوغر

وثار غضباً ونصرةً لدين الله ، فأخسأ الشيطان ووقم ـ قهر ـ كيده وكفف إرادته وقدع ـ دفع ـ محنته ، وأصغر خدّه لسبقه إلىٰ مشايعة أولىٰ الناس بخلافة رسول الله ﷺ ، الماضي علىٰ سنته ، المفتدي بدينه ، المقتص لأثره ، فلم يزل سراجه زاهراً وضوؤوه لامعاً ونوره ساطعاً له من الأفعال الغرر . ومن الآراء المصاص[1] ، ومن التقدم في طاعة الله اللباب إلىٰ أن قبضه الله إليه قالياً ـ مبغضاً ـ لما خرج منه ، شانياً ـ معيباً ـ لما ترك من أمره ، شيّعاً لمن كان فيه ، صباً إلىٰ ما صار إليه ، وائلاً إلىٰ ما دُعي إليه . عاشقاً لما هو فيه ، فلما صار إلىٰ التي وصفتُ وعاين لما ذكرتُ أومأ بها إلىٰ أخيه في المعولة ونظيره في السيرة وشقيقه في الديانة ، ولو كان غير الله أراد لأمالها إلىٰ ابنه ولصيّرها في عقبه ولم يخرجه من ذريته . فأخذها بحقها وقام فيها بقسطها ، لم يؤده ثقلها ولم يبهظه حفظها مشرداً للكفر عن موطنه ، ونافراً له عن وكره ، ومثيراً له من مجثمه حتىٰ فتح الله عز وجل علىٰ يديه أقطار البلاد ونصر الله بقدمه ، وتكنّفه وهو بالله معتصم ، وعليه متوكل حتىٰ تأكدت عُرىٰ الحق عليكم عقداً ، واضمحلت عُرىٰ الباطل عنكم حلاً ، نورُه في الوجنات ساطع ، وضوؤه في الظلمات لامع ، قالياً للدنيا إذ لا تطلب سواه بعلاً ، ولا تبغي سواه نحلاً . أخبرها أن التي يخطب أرغد منها عيشاً ، وأغدق منها أرضاً ، وأنعتُ منها جمالاً ، وأتمّ منها بلهنية ـ رخاء ـ وأعذب منها رفهنية ـ رفاهية ـ فبشعت نفسه بذلك لعادتها واقشعرت منها لمخالفتها ، فعركها بالعزم الشديد حتىٰ أجابت بالرأي الجليد حتىٰ انقادت ، فأقام فيها دعائم الإسلام وقواعد السنة الجارية ورواسي الآثار الماضية وأعلام أخبار النبوّة الطاهر . وظل خميصاً ـ ضامراً ـ من بهجتها ، قلياً لأثاثها ، لا يرغب في

---

(١) أي : خالص كل شيء ـ والمقصود ـ أحسن الآراء : [القاموس المحيط : ٨١٤] .

زبرجدها ولا تطمح نفسه إلىٰ جدتها حتىٰ دُعي فأجاب ، ونودي فأطاع ، علىٰ تلك الحال فاحتذىٰ في الناس بأخيه فأخرجها من نسله وصيّرها شورىٰ بين إخوته ، فبأي أفعاله تتعلقون ؟ وبأي مذاهبه تتمسكون ؟

أبطرائقه القويمة في حياته ؟ أم بعدله فيكم عند وفاته ؟ ألهمنا الله وإياكم طاعته . . .

* وفي مجال الرسائل والمكاتبة برزت النساء إلىٰ جانب الرجال ، وعُرفت في هذا المجال أسماء كثيرة ، منهن زوج سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنهما واسمها نائلة بنت الفرافصة ، يروي ابن عبد ربه(ت ٣٢٨هـ) أنها أرسلت إلىٰ معاوية الخليفة الأموي كتاباً مع النعمان بن بشير ـ وذلك بعد استشهاد سيدنا عثمان ـ جاء فيه :

من نائلة بنت الفرافصة إلىٰ معاوية بن أبي سفيان ، أما بعد : فإني أدعوكم إلىٰ الله الذي أنعم عليكم ، وعلمكم الإسلام ، وهداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الكفر ونصركم علىٰ العدو ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وأنشدكم الله ، وأذكّركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم ، فإنه قال ـ سبحانه ـ :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات : ٩] .

وإن أمير المؤمنين بُغي عليه ، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولادة ، ثم أُتي إليه ما أُتي لحقَّ علىٰ كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره فكيف وقد علمتم قدمه في الإسلام ، وحُسن بلائه ، وأنه أجاب داعي الله وصدّق كتابه واتّبع رسوله ، والله أعلم به إذ انتخبه فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة ، وإني أقص عليكم خبره ، إني شاهدةٌ أمره كله ، إن أهل المدينة حصروه في داره ، ويحرسونه ليلهم ونهارهم قياماً علىٰ أبوابه

بالسلاح ، يمنعونه كل شيء قدروا عليه حتىٰ منعوا الماء ، فمكث هو ومن معه خمسين ليلة . . . ـ إلىٰ أن قالت ـ : ثم جاء ثلاثة نفر من أصحابه فقالوا : إن في المسجد ناساً يريدون أن يأخذوا أمر الناس بالعدل ، فاخرج إلىٰ المسجد يأتوك ، فانطلق فجلس فيه ساعة وأسلحةُ القوم مظلَّةٌ عليه من كل ناحية ، فقال : ما أرىٰ اليوم أحداً يعدل! فدخل الدار ، وكان معه نفر ليس علىٰ عامتهم سلاح فلبس درعه وقال لأصحابه : لولا أنتم ما لبستُ اليوم درعي ، فوثب عليه القوم فكلمهم ابن الزبير ، وأخذ عليهم ميثاقاً في صحيفته وبعث بها إلىٰ عثمان : عليكم عهد الله وميثاقه أن لا تقربوه بسوءٍ حتىٰ تكلموه وتخرجوا ، فوضع السلاح ، ولم يكن إلا وضعه ودخل عليه القوم يقدُمهم محمد بن أبي بكر ، فأخذوا بلحيته ودعوه باللقب ، فقال : أنا عبد الله وخليفته عثمان ، فضربوه علىٰ رأسه ثلاث ضربات ، وطعنوه في صدره ثلاث طعنات ، وضربوه علىٰ مقدم الجبين فوق الأنف ضربة أسرعت في العظم ، فسقطت عليه وقد أثخنوه وبه حياة ، وهم يريدون أن يقطعوا رأسه فذهبوا به ، فأتتني ابنة شيبة بن ربيعة فألقت بنفسها معي عليه ، فوطئنا وطأً شديداً ، وعُرِّينا من حلينا ، وحرمة أمير المؤمنين أعظم ، فقتلوا أمير المؤمنين في بيته مقهوراً علىٰ فراشه ، وقد أرسلت إليكم بثوبه عليه دمه ، وإنه والله إن كان أَثِمَ من قتله ما سَلِمَ مَن خذله ، فانظروا أين أنتم من الله ، وأنا أشتكي كل ما مسَّنا إلىٰ الله عز وجل ، وأستصرخ بصالحي عباده ، فرحم الله عثمان ولعن قتلته وصرعهم في الدنيا مصارع الخزي والمذلة ، وشفىٰ منهم الصدور . . .[1] .

---

(١) للتوسع والتمحيص في قصة استشهاد سيدنا عثمان يراجع : البداية والنهاية للحافظ ابن كثير : ١٩٢/٧ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي : ١٤٥ ، وتاريخ الطبري : =

* وترتقي المرأة المسلمة ـ في غالبية العهود ـ وتبرز مواهبها الأدبية ، فلا تكتفي بإلقاء الخطب والمواعظ ، ولا بإنشاد الشعر و. . إنما كانت تجلس حكماً بين فحول الشعراء!!

هذه سكينة بنت الحسين يقول عنها ابن عبد ربه في العقد الفريد[1] :

. . . وبفضل مقامها الرفيع فقد كانت تجالس الأجلّة من قريش ويجتمع إليها الشعراء والأدباء والمغنون فيحتكمون إليها فيما أنتجته قرائحهم ، فتبيِّن لهم الغثَّ من السمين .

وتناقش المخطىء مناقشة علمية ، فيقنع بخطئه ويقرُّ لها بالفضل وقوة الحجة وسعة الإطلاع ، وذات يوم اجتمع في ضيافتها : جرير والفرزدق وجميل والنصيب ، فمكثوا أياماً ثم أذِنَتْ لهم فدخلوا ، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم ، فأخرجت إليهم جاريةً لها وضيئة ، وقد روت الأشعار والأحاديث ، فقالت :

أيكم (الفرزدق) ؟ فقال : ها أنا ذا ، قالت : أنت القائل :

هما دلَّياني من ثمانين قامة ... كما انقضَّ باز أقتمُ الريش[2] كاسرُه
فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا ... أحيٌّ يرجّىٰ أم قتيلٌ نحاذره
فقلت: ارفعا الأسباب لا يشعروا بنا ... ووليَّت في أعجاز ليلٍ أدابره
أحاذر بوَّابين قد وكلا بنا ... أو أحمر من ساج تئطُّ[3] مسامره
فأصبحت في القوم القعود وأصبحت ... مغلقة دوني عليها دساكره
يرىٰ أنها أضحت حصاناً وقد جرىٰ ... لنا برقاها ما الذي أنا شاكر«

= ٤/ ٣٣٣ ، وعلي بن أبي طالب مستشار أمين للخلفاء الراشدين ، للمؤلف .

(١) للتوسع عن سيرة حياتها يراجع : أعلام النساء لعمر رضا كحالة : ٢/ ٢٠٧ .

(٢) أي : أسود الريش .

(٣) أي : تحنُّ .

قال : نعم أنا قلته . ، قالت : ما دعاك إلىٰ إفشاء سرِّك وسرِّها ؟ أفلا سترتَ علىٰ نفسك وعليها ؟ خذ هذه الألف وانصرف ! !

قال : بل أتركها واللحاق بأهلي أجمل ، ثم دخلت فقالت : أيُّكم جرير ؟ قال : ها أنذا ، قالت : أنت القائل :

طرقتك صادئة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلامِ
تجري السِّواك علىٰ أغرّ كأنه بَرَدٌ تحدَّر من متون غمامِ
لو كان عهدك كالذي حدثتنا لوصلت ذاك فكان غير رِمامِ
إني أواصل من أدرت وصاله بحبالٍ لا صلفٍ ولا لوامِ

قال جرير : أنا قلته ، قالت : أفلا أخذت بيدها ورحبت بها وقلت : فادخلي بسلام ؟ أنت رجل ضعيف ، خذ هذين الألفين والحق بأهلك ! !

* * *

الفصل الثالث

دور المرأة المسلمة في الحركة الأدبية

وهكذا كان دور المرأة في العصر الإسلامي الأول ، وفي عهد الأمويين ، والعباسيين والمملوكيين ، وفي الأندلس. . . ولنأخذ مثالاً علىٰ ذلك ، يقول الدكتور عمر موسىٰ باشا :

إن ما وصلنا من نصوص شعرية ، يدل علىٰ أن المرأة الأندلسية ، في عصر بني أمية ، قد نظمت الشعر في أغراض شتىٰ ، من مدح ، وغزل ، وحنين ، وشكوىٰ ، من ذلك قول الشاعرة (مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري) وهي ترد علىٰ قصيدة بعث بها إليها ، أحد الأفراد ، وأرفقها بمالٍ وحلي :

من ذا يجاريك في قول وفي عمل … وقد بدرت إلىٰ فضل ولم تسل
ما لي بشكر الذي نظمت في عنقي … من اللآلي وما أوليت من قبل
حليتنـي بحلـىٰ أصبحـت زاهيـة … بها علىٰ كل أنثىٰ من حلىٰ عطل
لله أخـلاقـك الغـرّ التـي سقيـت … مـاء الفـرات فـرقـت رقـة الغـزل
أشبهت في الشعر من غارت بدائعه … وأنجدت وغدت من أحسن المثل
من كان والده العضب المهند لم … يلد من النسل غير البيض والأسل[1]

وأما الشاعرة (عائشة بنت أحمد القرطبية) ، فلها قصيدة رائعة ،

---

(١) الأسل : ج أسلة ، وهي الرماح .

ارتجلتها أمام المظفر ابن المنصور بن أبي عامر ، وبين يديه ولده يلاعبه ، تقول فيها :

أراك الله فيـــه مـــا تـــريـــد ... ولا بـــرحـــت معـــاليـــه تـــزيـــد
فقـــد دلّـــت مخـــايلـــة علـــىٰ مـــا ... تـــؤملـــه وطـــالعـــه السعيـــد
تشـــوّقـــت الجيـــاد لـــه وهـــزّ الـ ... ـحسام هـوىٰ وأشـرقـت البنـود
فســوف تـــراه بـــدراً فـــي سمـــاء ... مـــن العليـــا ضـــراغمـــه أســـود
فـــأنتـــم آل عـــامـــر خيـــر آلٍ ... زكـــا الأبنـــاء منكـــم والجـــدود
وليـــدكـــم لـــدىٰ رأيٰ كشيـــخ ... وشيخكـــم لـــدىٰ حـــرب وليـــد(١)

* **وأما عائشة الباعونية (ت ٩٢٢ هـ) :**

هي الشيخة الأريبة العالمة العاملة ، أم عبد الوهاب ، الصوفية الدمشقية بنت الباعوني .

ولدت في دمشق ، ورحلت إلىٰ القاهرة في طلب العلم ، ونالت هناك علماً وافراً ، وأجيزت بالافتاء والتدريس ، ثم عادت إلىٰ دمشق لتؤدي خدمة جليلة في مجال العلوم و. . .

لها ديوان مخطوط وهو موجود في دار الكتب الظاهرية ، ويتألف من ست قصائد نبوية ، ومن ذلك قولها في تخميس بردة المديح للبوصيري :

كتمت عشقي فأضحىٰ غير مكتتم
بمدمعٍ عند (ميٍّ) اللون مُنسجم
وقال صحبي ووجدي صار كالعلم :
أَمِـنْ تَـذكّـر جيـرانٍ بـذي سلـمِ ... مزجتُ دمعاً جرىٰ من مقلةٍ بدم

---

(١) نفح الطيب لأحمد المقريّ : ٤/ ٢٩٠ ، وفي هذا الكتاب نماذج كثيرة لشاعرات أندلسيات ، وكذلك في كتاب جذوة المقتبس للحميدي .

إضافةً إلىٰ الديوان فلها كتب في التصوّف والشعر والمعارف الذوقية منها :

الفتح الحقي من منح المتلقي ، والملامح الشريفة في الآثار اللطيفة ، ودر الغائص في بحر المعجزات والخصائص ، والإشارات الخفية في المنازل العلية ، وفيض الفضل ، والمورد الأهنأ في المولد الأسنىٰ .

ولنستمع إليها وهي تصف مدينة دمشق :

نزّه الطرف في دمشق ففيها ... كلما تشتهي وما تختار
هي في الأرض جنة فتأمل ... كيف تجري من تحتها الأنهار
كي سما في ربوعها كل قصر ... أشرقت من وجوهها الأقمار
وتناغيك بينها صادحات ... خرست عند نطقها الأوتاد
كلها روضة وماء زلال ... وقصور مشيدة وديار

والمعروف عن الشاعرة أنها كانت عابدة عالمة متنسّكة ، أخذت من العارفين المتصوفة مثل شيخها إسماعيل الحواري ، لذلك كانت عواطفها صادقة ومشاعرها تمثل قمة الرقة ، وتحمل معانٍ صوفية رائعة .

ولنأخذ مثالاً ذلك :

حبيبي أنت من قلبي قريب ... وعن سري جمالك لا يغيب
خلعتَ الحسن في خلع التحلي ... فشاهدت الجمال ولا رقيب
وأبديتَ الوصال فلا صدود ... ولا وهم ولا شيء يريبُ
وطُفتَ عليّ في حان التصابي ... بكأس عيشُ شاربه يطيب
براح نلتُ أقصىٰ الري منه ... وفي زي تراءت لي الغيوب
وزالت باستواء شمسي طلالي ... تجلٍّ ليس يعقبه غروب
وصرت إلىٰ مقام ليس فيه ... سواك حبيب قلبي لي نصيب
تنادمني وتسقيني مدامتي ... وتحضرني لديك فلا أغيب

وتـذكـرنـي وتشهـدنـي جمـالاً ولا سقم وسؤل وأنت لي الحبيب

وبعد ذلك كله لا بدّ من القول : إن هذه الشاعرة الكبيرة كانت ذات منزلة سامية في الأوساط الاجتماعية والصوفية والأدبية ، إذ كانت تشترك في المجالس الأدبية ، والحلقات العلمية ، والمطارحات الشعرية .

ولقد أسهمت بدورها الفعّال في تطور الشعر العربي وتجديد بعض أغراضه في هذا الالتزام الشكلي والمضموني ، كما ظهر ذلك في فن المدائح النبوية ، إذ أصبحت بديعياتها وقصائدها النبوية تتردد في الحلقات الصوفية والمجالس الأدبية[1] .

* وفي الكتب الكبيرة نجد أسماء النساء تبرز في عالم الأدب والشعر و . . .

فمثلاً في كتاب (معجم الأدباء) لياقوت الحموي ، نجد أسماء كثيرة لنساء أديبات أمثال : فاطمة بنت الأقرع ، وحميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري ، و . . .

والكُتّاب الكبار اهتموا بهذا الموضوع ، حتىٰ أن واحداً كالإمام السيوطي يفرد كتاباً لشاعرات اشتهرن في عهده ومن قبله فبلغ عددهن (٤١) امرأة ، منهن مثلاً : أم الكرام بنت المعتصم بالله ، وأم العلاء الحجارية ، وأم السعد القرطبية ، وبدر التمام ، وبوران ، وتقيّة ، والحجناء بنت نصيب ، وثمامة بنت عبد الله بن سوار ، وحفصة الغرناطية ، و . . .

وفي موسوعة (عالم النساء في عالمي العرب والإسلام) لعمر رضا

---

(١) بتصرف واختصار من كتاب تاريخ الأدب العربي ـ العصر المملوكي ـ للدكتور عمر موسىٰ باشا : ٤٣٧ـ٤٥١ .

كحالة ، تجد الكثير الكثير من تراجم النساء اللاتي برزن في هذا الميدان ، ومنهن مثلاً :

الزباء بنت عمير بن المورِّق ، وزبالة بنت عتيبة بن مرداس ، والزرقاء بنت عدي الكوفية ، وابنة ابن السكان ، وسلمىٰ بنت عميس ، وسلمىٰ بنت القراطيسي ، وصفية بنت عبد الله الربيّ ، وعاصية البولانية ، و . . .

ولننقل بعض ما جمعه صاحب هذه الموسوعة ، ومثال ذلك حياة السيدة عائشة رضي الله عنها ، والذي يهمنا هو الجانب الأدبي والبلاغي ونحوه ، ويقول في ذلك :

(كبيرة محدثات عصرها ونابغته في الذكاء والفصاحة والبلاغة ، ولدت بمكة في السنة الثامنة قبل الهجرة) .

(وكانت حاملة لواء العلم والعرفان في عصرها ونبراساً منيراً يضيء علىٰ هل العمل وطلابه ، وكانت تأتيها مشيخة محمد ﷺ يسألونها عن عويص العلم ومشكله فتجيبهم جواباً مشبعاً بروح التروي والتحقيق مما لا يتسنىٰ إلا لمن بلغ في العلم مقاماً علياً) .

(وقال محمد بن عمر : ربما روت عائشة رضي الله عنها القصيدة ستين بيتاً والمائة بيت) .

(وقال موسىٰ بن طلحة : ما رأيت أفصح من عائشة ، وقال معاوية بن أبي سفيان : والله ما رأيت خطيباً قط أبلغ ولا أفصح من عائشة ، وقال الأحنف بن قيس : سمعت خطبة أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والخلفاء هلم جراً إلىٰ يومي هذا ، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه في عائشة) .

وكانت تقول : علموا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم .

وقالت ذات يوم : رحم الله لبيداً كان يقول :

قـض اللبـانـة لا أبـالـك واذهـب والحـق أسـرتـك الكـرام الغيـب
ذهب الذي يعاش في أكنافهم وبقيت في خلفٍ كجلد الأجرب

فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟ ثم قالت : إني لأروي ألف بيتٍ له ، وإنه أقل ما أروي لغيره ! ! .

(وسمعها النبي ﷺ وهي تنشد شعر زهير بن حباب :

ارفع ضعيفك لا يحل بك ضعفه يـومـاً فتـدركـه عـواقـب مـا جنىٰ
يجزيك أو يثني عليك فإن من أثنىٰ عليك بما فعلت كمن جزىٰ

فقـال النبـي ﷺ : « صـدق يـا عـائشـة لا شكـر الله مـن لا يشكـر الناس »[1] .

* تلكم طائفة من القصص التي تتحدث عن أن المرأة قد برزت في ميادين الشعر والفصاحة والخطابة والوعظ والرسائل و . . .

وفي أمهات الكتب آلاف القصص في هذا المجال ، وكلها تؤكد أن النساء شقائق الرجال ، لا ولـم تحجب النساء عن هذه المجالس ، بل كما رأينا أن بعضهن كن يتولين الحكم بين فطاحل الرجال الشعراء ، وكنّ يقلن لهذا الشاعر أو الأديب أخطأت في قولك كذا ، والصحيح هو أن تقول كذا ! !

فهل بعد هذا يخرج علينا من يردد كالببغاء ليقول : إن الإسلام ظلم المرأة وأهانها ، ونظر إليها نظرة دونية ؟ !

* * *

(١) أعلام النساء في دولتي العرب والإسلام ، مقتطفات من الجزء الثالث : ٩-١٣١ .

الباب الرابع عشر

المرأة في ميادين التربية

الفصل الأول

منهج الإسلام في التربية

حينما نستعرض منهج الإسلام في التربية ، نراه منهجاً يسير مع الإنسان منذ ولادته ، بل وقبل ذلك بكثير ، فهو يركز على الاختيار الحسن للأم ، ويعتني اعتناءً كبيراً بها ، ويطالب الناس باحترامها ورعايتها . . .

ويعتبر الإسلام الإنسان لا يعلم شيئاً ، إنما مع مرور الزمن واختلاطه بمن حوله ، وسماعه العلوم من هنا وهناك يصبح متعلماً . . . وقد سطّر البيان الإلهي ذلك :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] .

واهتمام الإسلام بالبيت والأسرة ليس ناشئاً عن أمر عادي ، إنما بما له من أهمية في تنشئة الأجيال ، ذلك لأن المرأة المنحرفة الشاذة الجاهلة لن تنشىء بطلاً ولا متعلماً ولا مثقفاً ولا مصلحاً و. . . ، إنما سيكون أولادها ـ عموماً ـ على شاكلتها ، ذلك لأن الطفل يكون في يد والدته كالعجينة ، إن شاءت وجّهته نحو الخير وإن شاءت وجّهته نحو الشر ، وشتّان بين الوجهتين ، وفي ذلك يطلب الله تعالىٰ من الرجال والنساء أن يبعدوا أولادهم عمّا يوصلهم إلىٰ الهاوية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾

[التحريم : ٦] .

وللنبي ﷺ كثير من التوجيهات بحسن اختيار الأمهات ، والاعتناء بالأولاد ، ذلك لأن الأم لها الدور الأكبر في هذا المجال :

« كل مولود يولد علىٰ الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه »[١] .

وقد أدلىٰ الشعراء بدلوهم في هذا السياق ، من ذلك :

ليس اليتيم من انتهىٰ أبواه من ... همّ الحياة وخلفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذي تلقىٰ له ... أماً تخلّت أو أباً مشغولا

ومن ذلك قول أحدهم وهو يصوّر الفرق الكبير بين الجيل الذي تربيه أمهات فاسدات وبين الجيل الذي تربِّيه أمهات صالحات قانتات عابدات صائمات ذاكرات. . . فيقول :

وليس النّبت ينبت في جنان ... كمثل النبت ينبت في الفلاة
وهل يرجىٰ لأطفال كمال ... إذا ارتضعوا ثديّ الناقصات

وهذا أمر نلمسه في واقع الحياة ، فطفل تراه شريراً يسرق ويتكلم الكلمات البذيئة ويعتدي علىٰ هذا وذاك و. . وطفل آخر تراه وديعاً هادئاً مؤدباً وقوراً ، إذا تكلم تحسبه كبيراً ، وإذا سألته أجاب بكل لطف ، وإذا رأىٰ أمامه مالاً أو نحوه لا تمتد يده إليه ، تسأل عن السبب في الفرق بينهما ، فيأتيك الجواب : الطفل الأول بيته سيء ، والدته تهتم بالغناء والرقص والقيل والقال وأمور الدنيا وتترك أولادها للشارع ورفاق السوء ،

---

(١) سبق تخريجه .

والثاني يهتم به والده ووالدته ، يصطحبانه إلىٰ أماكن العبادة ، ويشتريان له القصص الهادفة و . . .[1] .

يحدثنا التاريخ أن الفضل بن زيد رأىٰ مرة ولداً من الأعراب ، فأعجب بمنظره وأدبه وفروسيته ، فسأل أمه ، فقالت : يا هذا ، اعلم أن ولدي هذا قد ربَّيته تربية صالحة ، فلما أتمّ خمس سنوات أسلمته إلىٰ المؤدب فحفظ القرآن الكريم وتلاه ، وعلَّمه الشعر فرواه ، ورغب في مظاهر قومه ولقن مآثر آبائه وأجداده ، فلما بلغ الحلم حملته علىٰ أعناق الخيل فتمرّس وتفرّس ولبس السلاح ومشىٰ بين بيوت الحي وأصغىٰ إلىٰ صوت الصارخ . . . !!

نعم هذا هو سبب استقامة الولد ، وصدق الشاعر في قوله :

وينشأ ناشىء الفتيان منا ... علىٰ ما كان عوَّده أبوه
وما دان الفتىٰ بحجىٰ ولكن ... يعوّده التديّن أقربوه

لذلك يجب أن يهتم الناس بتربية أولادهم وخاصة في مرحلة الصغر ، وقد نقل الطبري والبيهقي أن أبا الدرداء رضي الله عنه قال : العلم في الصغر كالنقش علىٰ الحجر ، وهذا ما أثبته علم النفس والتربية والاجتماع في هذه الأيام :

أراني أنسىٰ ما تعلمت في الكِبَرْ ... ولست بناسٍ ما تعلّمتُ في الصغر
وما العلم إلا بالتعلم في الصبا ... وما الحلم إلا بالتحلّي في الكبر
ولو فلق القلب المعلَّم في الصبا ... لأصبح فيه العلم كالنقش علىٰ الحجر

---

(١) وصدق الشاعر حين قال :

قد ينفع الأدب الأولاد في الصغر ... وليس ينفعهم من بعده أدب
إن الغصون إذا أعدلتها اعتدلت ... ولا يلين إذا لينته الخشب

وما العلم بعد الشيب إلا تعسّفاً إذا كلَّ قلب المرء والسمع والبصر
وما المرء إلا اثنان عقل ومنطق فمن فاته هذا وهذا فقد دَمَرْ

والتربية التي يطلبها الإسلام من الناس تكون علىٰ أنماط :

تربية جسدية : كما في قوله تعالىٰ وهو يحضُّ علىٰ الأكل من مال الله الحلال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة : ١٦٨] .

وتربية روحية : وذلك عن طريق المراقبة الداخلية ، وإخلاص العبودية لله .

وتربية روح الجماعة ، كما في قوله تعالىٰ :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وتربية فكرية : وذلك من خلال الموازنة ، والعمل ، والتجربة ، كما في قوله تعالىٰ :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٩] .

* * *

الفصل الثاني

سبب نجاح المرأة في مجالات التربية

إذن :

إن سبب تركيز الإسلام علىٰ الأسرة والتي تتألف من رجل وامرأة هو أن نواة المجتمع هي الأسرة ، ولكن من الملاحظ أن دور الأم في هذا المجال أكبر من دور الأب ، ذلك لأن الرجل يقضي غالبية وقته خارج البيت بعيداً عن الأولاد يكدح بسبب الرزق وقد يغادر بلدته إلىٰ بلاد الغربة مدة سنوات كثيرة .

ولو عدنا أدراجنا إلىٰ التاريخ القديم ، لرأيناالمرأة قد نجحت في مجال التربة نجاحاً عظيماً فقد صبرت خلال ذلك وفرَّغت وقتها لصالح أولادها ، فكانت نتيجة رائعة :

تلكم هي زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام (هاجر) ، تصحب زوجها وولدها (إسماعيل عليه السلام) إلىٰ بلاد صحراوية لا زرع فيها ولا ماء ، إنهم يستجيبون لأمر الله تعالىٰ ، ويسلّمون تسليماً مطلقاً :

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

ثم جاء الأمر إلىٰ الخليل إبراهيم بأن يعود إلىٰ بيت المقدس ، ويترك المرأة ورضيعها في هذا الجو المأساوي ـ المكان الموحش ـ ، فماذا فعلت هاجر ؟!

تلفتت حولها فلم تر إلا الجبال الجرداء ، وبعد قليل عطش رضيعها حيث لا ماء هناك . . . فراحت تقطع المسافة بين الصفا والمروة علّها تجد الماء ، ويشاء الله تعالىٰ أن ينبع الماء من بين أصابع رضيعها ليكون ذلك بمثابة مكافأة لها علىٰ صبرها واستجابتها لأمر زوجها وحنانها علىٰ رضيعها .

ورغم بعد المسافة بينها وبين زوجها ـ عليه السلام ـ فقد كانت مربية ناجحة لولدها إلىٰ درجة عجيبة ، حيث رأىٰ زوجها ذات يوم أنه يذبح ولده!! والولد فلذة كبد الأب ، وخاصة أنه رُزق به علىٰ الكبر ، فكيف يكون ذلك يا رب ؟ إنه امتحان وابتلاء ، لكن العجب العجاب هو موقف الولد الذي ربّته هاجر ، لقد ربّته تربية الأبطال ، تربية المطيعين ، تربية الأدب ، فلما أخبره والده بهذا الأمر الإلهي الشاق قال لأبيه : نفذ أمر الله مهما كان!!

لذلك خلّد البيان الإلهي هذا المشهد ليكون من خلاله العبر والعطات :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢ـ١١٠] .

وهكذا أتىٰ الناس إلىٰ حيث ماء زمزم وبُني بيت الله الحرام وأذَّن

إبراهيم في الناس للحج وأصبحت تلك الديار المقدسة مهوىٰ الأفئدة إلىٰ قيام الساعة .

. . . وفي تاريخنا الإسلامي حكايا وقصص يبرز من خلالها دور المرأة في تربية أولادها التربية الصحيحة الصالحة ، فكان الجيل المسلم جيلاً تفتخر به الأجيال علىٰ مدىٰ الأيام والأزمان ، ولنكتفي ببعض تلك الأمثلة :

يذكر كتّاب السير والتاريخ أبطالاً في صدر الإسلام ويقولون عن كل واحد منهم :

ابن عفراء ، فما هي قصة هذا النسب ؟!

إنها (عفراء بنت عبيد بن ثعلبة) من بني النجار ، رزقها الله تعالىٰ بثلاثة أبناء من زوجها الحارث بن رفاعة ، وهؤلاء الأولاد هم (عوف ومعاذ ومعوّذ) ، فأما (عوف) فكان أحد ستة من أهل المدينة بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة الأولىٰ ، وكان أحد اثني عشر رجلاً بايعوه بيعة العقبة الثانية ، وكان معه في هذه البيعة شقيقه معاذ ، وفي البيعة الثالثة اشترك الأشقاء الثلاثة في مبايعة رسول الله ﷺ ، فكانوا ضمن السبعين رجلاً من الأنصار الذين جعلهم الله طلائع الإيمان في المدينة المنورة .

وأما(معاذ) فكان يتولىٰ رعاية شؤون يتيمين يملكان مربد[1] تمر في المدينة ، وهذا المربد هو الذي بركت فيه ناقة رسول الله ﷺ عند الهجرة ، فاشترىٰ رسول الله ﷺ المكان وبنىٰ فيه مسجده الطهور ، وقد آخىٰ رسول الله ﷺ بين معاذ وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

---

(١) المكان الذي يوضع فيه التمر ليجفف ، وهو يشبه البيدر الذي يوضع عليه القمح ونحوه .

وفي غزوة بدر دفعت (عفراء) بأبنائها الثلاثة إلىٰ ميدان المعركة بعد أن ربتهم تربية الأبطال والشجعان .

وقد روىٰ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه هذه الحادثة فقال : إني لواقف يوم بدر في الصف ، فنظرت عن يميني وعن شمالي ، فإذا أنا بغلامين من الأنصار ، حديثة سنهما ، فتمنيت لو كنت بين أضلع منهما[1] ، فغمزني أحدهما وقال : يا عم ، هل تعرف أبا جهل بن هشام ؟ قلت : نعم ، وما حاجتك إليه يا ابن أخي ؟ قال : بلغني أنه كان يسب رسول الله ﷺ ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده ، حتىٰ يموت الأعجل منا!!

وغمزني الآخر وقال لي مثل ما قال الأول ، قال عبد الرحمن : فنظرت فرأيت أبا جهل ، فدليت الغلامين عليه ، فسارعا إليه ، وابتدراه بسيفهما ، فضرباه فصرعاه ، وهو بين الحياة والموت ، ثم ذهبا إلىٰ رسول الله ﷺ ، وأخبراه بما فعلاه ، فقال لهما : « أيكما قتله ؟ » فقال كل منهما : أنا قتلته .

فهدأ النبي من روعهما وقال لهما : « هل مسحتما سيفكما ؟ »

قالا : لا ، فنظر النبي ﷺ إلىٰ السيفين ثم قال : « كلاهما قتله!! » وكان هذان الغلامان (عوف ومعاذ ابنا عفراء) .

وفي رواية أخرىٰ أن نبي ﷺ قال حينما علم بمصرع أبي جهل : « إن لكل أمة فرعوناً ، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل ، قتله الله شر قتلة ، قتله ابنا عفراء ، وقتلته الملائكة ، وتدافَّه[2] ابن مسعود » .

---

(١) أي بين أقوىٰ منهما .
(٢) أي أجهز عليه .

ثم يأتي عوف إلىٰ رسول الله فيقول له : يا رسول الله ، ما يضحك الرب من عبده ؟ ـ أي ما الذي يرضيه عن ربه ـ فأجابه رسول الله : « غمسه يده في العدو حاسراً » فانطلق عوف حاملاً سيفه وتقدم فقاتل وقاتل حتىٰ سقط شهيداً في سبيل الله . . . (١) .

هؤلاء الشبان الصغار لم يتربّوا في الجامعات ولا في المدارس ، إنما ربّتهم امرأة مسلمة ، فكانوا خير مثال يُحتذىٰ . . . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

وتلكم (هند بنت عتبة) يدخل عليها والدها ليشاورها في رجلين رغبا بالزواج بها ، فقالت : صفهما لي ، فقال : أما أحدهما ففي ثروة واسعةٍ من العيش ، وإن تابعته تابَعكِ ، وإن ملت عنه حطَّ إليك ، تحكُمين عليه في أهله وماله .

وأما الآخر : فموسع عليه ، منظورٌ إليه ، في الحسب الحسيب ، والرأي الأريب ، مِدْرَهٌ أرومته ، وعزٌّ عشيرته ، شديدُ الغيرة ، لا ينام علىٰ ضِعَةٍ ، ولا يرفع عصاه عن أهله ! !

فقالت : يا أبت ، الأول سيدٌ مضياعٌ للحرّة ، فما عست أن تلين بعد إبائها ، وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلُها فأشِرَتْ ، وخافها أهلها فأمِنَتْ ، فساء عند ذلك حالُها وقبُح عند ذلك دلالها ، فَإن جاءت بولدِ أمقتْ ، وإن أنجبتْ فعن خطإٍ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمِّه عليَّ بعد .

---

(١) للتوسع في هذه القصة يرجع : السيرة النبوية لابن كثير : ٢/ ٤٤٣ ، والسيرة الحلبية علي برهان الحلبي : ١/ ٥٨ ، وعيون الأثر لابن سيد الناس : ١/ ٢٦ ، وفدائيون في تاريخ الإسلام للشرباصي : ٥٠ ، وسيرة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام للمؤلف : ٤/ ١٤٧ .

واختارت الثاني . فكان هو أبو سفيان بن حرب ، فولدت منه معاوية ، فربته تربية الأذكياء الأبطال ، فكان معاوية ما كان ، حيث أسس الدولة الأموية ، وبقي أميراً على بلاد الشام مدة (٢٠) سنة ، ثم ملكاً للمسلمين جميعاً مدة (٢٠) سنة أخرى ، يقول التاريخ :

إن أحد الرجال رآها ذات يوم تسير ومعها ابنها معاوية ـ وكان صغيراً ـ فقال لها : من يكون هذا الغلام ذو الرأس الكبير ؟

فقالت : ثكلته أمه إن لم يصبح سيِّد العرب .

لقد صدق تخمينها وظنها ، حيث عرفت كيف تربي . فكان ولدها سيد العرب :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيّب الأعراقِ

ويروي الإمام ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ هذه القصة الرائعة فيقول :

قال أبان بن تغلب ـ وكان عابداً من عباد البصرة ـ : شهدت أعرابية توصي ولدها وقد أراد السفر وهي تقول :

أي بني اجلس أمنحك وصيتي ـ وبالله التوفيق ـ فإن الوصية أجدىٰ عليك من كثير عقلك .

قال أبان : فوقفت مستمعاً لكلامها ، مستحسناً لوصيتها ، فإذا هي تقول :

أي بني . إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة وتفرّق بين المحبين ، وإياك والتعرّض للعيوب فتتخذ غرضاً ، وخليق ألا يثبت القرص علىٰ كثرة السهام ، وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته .

وإياك والجود بدينك والبخل بمالك ، وإذا هززت فاهزز كريماً يلين

لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها ، ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت منه فاجتنبه ، فإن المرء لا يرىٰ عيب نفسه ، ومن كانت مودته بشره وخالف منه ذلك فعله ، كان صديقه منه علىٰ مثل الريح في تصرفها .

ثم أمسكت فدنوت منها ، فقلت : بالله يا أعرابية إلا زدته من الوصية .

فقالت : أو قد أعجبك كلام العرب يا عراقي ! ؟

قلت : نعم .

فقالت : والضرر أقبح ما تعامل الناس بينهم ، ومن جمع بين الحلم والسخاء قد أجاد الحلة ، ريطتها وسربالها[١] .

* قصص كثيرة في هذا المجال تضعنا أمام منهج رسمه الإسلام ، إنه الجيل الذي تربيه الصالحات ليكون جيلاً إيمانياً ، جيلاً لا يخشىٰ إلا الله ، جيلاً لا يقف أمامه العدو ولا العُدد ولا العَدد ، جيلاً ينطلق إلىٰ المعركة فيضحي بكل ما يملك ، ولن يضرنا أن نستذكر ما فعلته الخنساء عندما دفعت بأولادها إلىٰ المعركة وحرَّضتهم علىٰ الجهاد في سبيل الله . . .

ولن ننسىٰ أيضاً ما فعلته أسماء بنت أبي بكر عندما جاء ابنها يستشيرها بشأن خذلان الناس له ، فما كان منها إلا إلا أن حمسته علىٰ متابعة جهاده إن كان في سبيل الله . .

ولن ننسىٰ مواعظ فاطمة النيسابورية لكبار المحدثين والفقهاء في زمانها .

---

(١) صفة الصفوة : ٤/ ١٢٢ .

ولن ننسىٰ نصائح أمامة بنت الحارث لابنتها وهي تزفُّها إلىٰ بيت زوجها .

ولن ننسىٰ دور أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوج عكرمة بن أبي جهل في تربية أولادها وإرسالهم إلىٰ ميادين الجهاد . .

ولن ننسىٰ دور أم عمارة بنت كعب في إرسال ولدها عبد الله بن زيد إلىٰ قتال مسيلمة الكذاب ومن ارتدَّ معه . .

ولن ننسىٰ مواقف كلٍّ من : سودة بنت عمارة بن الأشتر ، وبكارة الهلالية ، والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمذانية ، وعكرشة بنت الأطرش بن رواحة ، وأم الخير بنت الحريش بنت سراقة البارقي ، وأم سنان بنت جشمة بن خرشة ، وأروىٰ بنت الحارث بن عبد المطلب .

لن ننسىٰ كيف دفعن بأولادهن إلىٰ ميادين القتال ، بعد أن ربينهم علىٰ حبِّ الجهاد في سبيل الله ، وعلىٰ حب الله ورسوله والقرآن الكريم . .

إنه منهج التربية الإسلامية ، فكما يهتم الإنسان بذاته فإن عليه أن يهتمَّ أيضاً بعائلته وأولاده وزوجته ، وهذا ما جاء واضحاً علىٰ لسان خليل الرحمن :

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

وهذا ما قام به النبي ﷺ فربىٰ جيلاً نموذجياً ـ رجالاً ونساءً ـ وكان هذا الجيل هو القدوة لمن أتىٰ بعده ، ولن يتحقق الفوز لأمة من الأمم إلا إذا كانت العناية بالتربية عناية فائقة ، إذ أنه يجب أن تتربىٰ الفتيات علىٰ طاعة الله ورسوله ، ومن ثم تتربىٰ الأمهات علىٰ الفضيلة والعفاف لينشئن

جيلاً - من تربيتهن - طاهراً وقوياً ، ويكون مثاله في الحياة جيل صحابة رسول الله ﷺ الذين قيل فيهم :

خلّفت جيلاً من الأصحاب سيرتهم تضوع بين الورىٰ رَوْحاً وريْحانا
كـانـت فتـوحهُمـو بـرّاً ومـرحمـة كانت سياستهم عدلاً وإحسانا
لم يعرفوا الدين أوراداً ومسبحةً بل أُشْبِعُوا الدين محراباً وميدانا

* * *

الخاتمة

بعد هذا العرض السريع لمكانة المرأة في الإسلام ، حقوقها ، وما ورد بخصوص ذلك في القرآن الكريم والسنة الشريفة وحياة الصحابيات و . . .

نتوقف عند الحقيقة الناصعة وهي وضع الإسلام للمرأة في مكان لا يصيبه الأذىٰ ولا العنت ، فهي مصانة عفيفة كريمة سخية شجاعة عالمة مشاركة في الأمور الاجتماعية والسياسية ، ولها حرية التصرف بمالها و . . .

وهذا الأمر شهد به الأعداء قبل الأصدقاء ، وقد نقل الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالىٰ طائفة من أقوالهم :

قال (فولتير) في مقالة القرآن ما نصّه :

ولقد نسبنا إلىٰ القرآن كثيراً من السخافات وهو في الحقيقة خالٍ منها ، إن مؤلفينا الذين كثروا كثرة الإنكشارية يجدون من السهل أن يجعلوا نساءنا من حزبهم بواسطة إقناعهنّ أن محمداً ﷺ اعتبرهن حيوانات ذات ذكاء ، وأنهن في نظر الشريعة بمثابة الأرقاء لا يملكن شيئاً من دنياهن ، ولا نصيب لهن في أخراهن ، وبديهي أن هذا الكلام باطل ، ومع ذلك فقد كان الناس يصدقونه .

نحن نجهل أن القرآن يميّز الرجل تلك الميزة المعطاة له من الطبيعة ، ولكن القرآن يختلف عن التوراة في أنه لا يجعل من ضعف المرأة عقاباً

إلهياً كما ورد في سفر التكوين الإصحاح الثالث العدد (١٦) .

ومن الخلط أن ينسب إلىٰ شارع عظيم نظير محمد ﷺ تلك المعاملة المنكرة للنساء . والحقيقة أن القرآن يقول :

﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .

ويقول :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] .

وقالت (آني بيزنت) زعيمة التيوصوفية العالمية في كتابها الأديان المنتشرة في الهند :

ما أكبر خطأ العالم في تقدير نظريات النبي ﷺ فيما يتعلق بالنساء ، فقد قيل : إنه قرر بأن المرأة لا روح لها فلماذا هذا التجنّي علىٰ رسول الله ؟ أعيروني أسماعكم أحدثكم عن حقيقة تعاليمه في هذا الشأن . جاء في القرآن :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٤] .

وقال مسيو (دو أميسبس) : إن المرأة في الشرق تُحترم بنبل وكرم . علىٰ العموم ، فلا أحد يستطيع أن يرفع يده عليها في الطريق ، ولا يجرؤ جندي أن يسيء إلىٰ أوقح نساء الشعب حتىٰ أثناء الشغب ، وفي الشرق يشمل البعل زوجته بعين رعايته ، وفي الشرق يبلغ الاعتناء بالأم درجة العبادة . وفي الشرق لا تجد رجلاً يقدم علىٰ الاستفادة من كسب زوجته . والزوج هو الذي يدفع المهر إلىٰ زوجته .

وقالت (لورافيشيا فاغليري) في كتابها دفاع عن الإسلام :

ولكن إذا كانت المرأة قد بلغت من وجهة النظر الاجتماعية في أوربا مكانة رفيعة ، فإن مركزها ، شرعياً علىٰ الأقل ، كان حتىٰ سنوات قليلة جداً ولا يزال في بعض البلدان ، أقل استقلالاً من المرأة المسلمة في العالم الإسلامي!!

وقال (غوستاف لوبون) في كتابه حضارة العرب ، وهو من ترجمة عادل زعيتر :

كان الإسلام ذا تأثير عظيم في حال المرأة في الشرق ، فهو قد رفع حال المرأة الاجتماعي وشأنها رفعاً عظيماً بدلاً من خفضهما ، خلافاً للمزاعم المكررة علىٰ غير هدىٰ ، فالقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية بأحسن مما في قوانيننا الأوربية .

ثم قال : وإذا أردنا أن نعلم درجة تأثير القرآن في أمر النساء وجب علينا أن ننظر إليهن أيام ازدهار حضارة العرب ، فقد ظهر ما قصه المؤرخون أنه كان لهن من الشأن ما اتفق لأخواتهن حديثاً في أوربة ، وذلك حين انتشار فروسية عرب الأندلس وظرفهم ، وإن الأوربيين أخذو عن العرب مبادىء الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة ، فالإسلام إذن ـ لا النصرانية ـ هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه ، وذلك خلافاً للاعتقاد الشائع . فإذا نظرت إلىٰ أمراء النصارىٰ الإقطاعيين في القرون الوسطىٰ ، رأيتهم لم يحملوا شيئاً من الحرمة للنساء .

ومن الأدلة علىٰ أهمية النساء أيام حضارة العرب كثرة من اشتهر منهن بمعارفهن العلمية والأدبية ، فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن في العصر العباسي في المشرق والعصر الأموي في إسبانية .

وختم كلامه قائلاً : وإنني أطمع أن يعتقد القارىء بعد وقوفه علىٰ

ما تقدم ، أن مبدأ تعدد الزوجات أمر طيب ، وأن حب الأسرة ، وحسن الأدب ، وجميل الطبائع أكثر نمواً في الأمم القائلة به مما في غيرها علىٰ العموم ، وأن الإسلام حسَّن حال المرأة كثيراً ، وأنه أول دين رفع شأنها ، وأن المرأة في الشرق أكثر احتراماً وثقافةً وسعادة منها في أوربة علىٰ العموم. . .[1] .

* * *

لكن مع كل هذا ما زال في الناس من يقول : الإسلام ظلم المرأة ، والإسلام هضم حقوقها ، وجعل الرجل متسلطاً عليها. . . !!

قلنا لهم : فأين الحل إذن ؟ قالوا : أن نترك تعاليم الإسلام ونلحق بالحضارة الغربية .

قلنا : ولكن هل تعلمون ما هي نتيجة هذا اللهاث وراء تلك الأوهام والسراب ؟!

لقد قالوا للمرأة : تحرري من كل شيء : من اللباس ، من الأخلاق ، من الأديان. . !! فخُدعت المسكينة وسارت وراءهم ، لكن بعد فترة اكتشفت خداعهم وكذبهم ، ورأت الحقيقة واضحة كالشمس : إنهم يريدونها للمتعة والتسلية وقضاء الشهوة و. . .

إن الرجال ـ الذين أقنعوها بالحرية ـ يريدون منها أن تذهب معهم إلىٰ النوادي الليلية وإلىٰ شواطىء البحار ، وإلىٰ الخلوات والبارات ، إلىٰ حيث الخلاعة والرقص والخمور و. . . !! إنهم يحتفون بها وهي في عزِّ صباها ونشوتها ومالها ، ثم يرمونها كما يرمي الإنسان أي نوع

---

(١) بتصرف واختصار من كتاب : المرأة بين الفقه والقانون ص٢١٣ـ٢١٩ .

من القاذورات[1] ، وهذه المصيبة صرح بها أناس من علماء تلك البلاد ـ التي حررت المرأة و . . !! ـ من ذلك ما صرحت به القاضية السويدية (بريجيت أوفهاهر) : إن المرأة السويدية فجأة اكتشفت أنها اشترت وهماً هائلاً ـ أي الحرية التي أعطيت ـ بثمن مفزع هو سعادتها الحقيقية !!

ثم تقول : والنتيجة علىٰ مستوىٰ الأمة مذهلة حقاً ، ففي تقرير رسمي خطير لوزارة الشؤون الاجتماعية السويدية تعلن الحكومة أن (٢٥٪) من سكان السويد مصابون بأمراض عصبية ونفسية ، وأن (٣٠٪) من مجموعات المصروفات الطبيبة في السويد تنفق في علاج الأمراض العصبية والنفسية ، وأن (٤٠٪) من مجموع الأشخاص الذين يحالون إلىٰ التقاعد قبل سن المعاش بسبب العجز عن العمل تماماً هم من المرضىٰ المصابين عقلياً ، هذا إضافة إلىٰ انتشار الأمراض الجنسية التي لا تدخل في هذه الإحصائيات !!

ثم راح الرجال هناك يتفنون في استخدام المرأة لأمور تجارية و . . . مثال ذلك :

لقد استعان منتجو السيارات العالميون في معرض أقيم لعرض أحدث ما توصلوا إليه في صناعة السيارات بفتيات وهن شبه عاريات ، وذلك بقصد تنشيط حركة الإقبال !!

لكن بين الحين والحين تصحو بعض النساء علىٰ حقيقة هذا الخداع ، حتىٰ أن أفجر الممثلات في الغرب ـ وهي ممثلة داعرة فرنسية ـ كانت تمثل مشهداً عارياً أمام الكاميرا ، فثارت ثورة عارمة وصاحت في وجوه الرجال الذين من حولها : أيها الكلاب ، أنتم الرجال ، لا تريدون منا نحن النساء

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع كتاب : المرأة في ظل الحضارة الغربية للدكتور محسن عبد الحميد .

إلا أجسادنا ، حتىٰ تصبحوا من أصحاب الملايين علىٰ حسابنا ، ثم انفجرت باكية .

ومن قبلها انتحرت الممثلة الأمريكية (مارلين مونرو) وكتبت وصية تتضمن معنىٰ ما قالته تلك الممثلة الفرنسية[1] .

إذن : أين الحل ؟ هل هو في الحرية الجنسية ؟ أم في العري والبغاء ؟ أم في الابتعاد عن الزواج واللجوء إلىٰ الحرام ؟! . . .

الإسلام أجاب عن كل ذلك منذ عدة قرون ، وتحولت المرأة من متاع يرثه الأولاد وقد يباع في الأسواق ، إلىٰ مكانة مرموقة ، سواءً كانت فتاةً ، أو أماً ، أو زوجةً ، أو أختاً ، وقد أعطيت حقوقاً لا يبلغ إليها قانون ولا نظام في الكون ، ذلك لأن الإسلام هو من عند الله خالق الإنسان .

ولما بَعُدَ المسلمون عن إسلامهم ، راحوا يستوردون أنظمة من الشرق والغرب .

فتخبطوا خبط عشواء ، ولهثوا ولكن وراء سراب ، وظنوا أن الحضارة لا تكون إلا بخلع المرأة لباسها ، وإلا بترك الحدود والقوانين التي جاء بها الدين الحنيف .

لكن هيهات هيهات ، ولو استمعنا إلىٰ ما يقوله المفكرون المصلحون في الغرب لرأيناهم يصرخون بلسان الحال : أعطونا الإسلام فهو الحل الوحيد لمشاكلنا ، وعندها تصرخ المرأة الغربية : أنا لن أومن إلا بما جاء به محمد ﷺ ، ويصرخ الرجل الغربي : لا حلّ إلا بالالتزام بما جاء به كتاب الله المنزل علىٰ قلب محمد ﷺ .

---

(١) وصدق الشاعر حيث قال :

خَدَعُوها بقولهم حسناءُ ... والغواني يَغُرُّهُنَّ الثناءُ!!

لكن المشكلة الرئيسية : هي أن أولئك الناس ينظرون إلىٰ الإسلام من خلال تصرفات المسلمين اليوم ـ وغالبيتهم للأسف ـ بعيدون عن جوهر الإسلام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

وكل الأمل بشباب ـ ذكوراً وإناثاً ـ هذه الأمة ، ليعودوا إلىٰ عصور الأسلاف ، فيدرسوها حق الدراسة ، ويطبّقوا منهج القرآن والسنة ، وليكونوا عندها خير خلفٍ لخير سلف ، وعندها تتحقق بشارات الله تعالىٰ :

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم : ٤ـ٦] .

اللهم تقبّل منا هذا العمل المتواضع ، فهو منك وإليك ، واجعله يا ربنا خالصاً لوجهك الكريم ، وصلِّ علىٰ عبدك ومصطفاك سيدنا محمد ﷺ

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلىٰ الله على حبيبنا محمد وآله وصحبه أجمعين

* * *

المصادر والمراجع

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، طبعة أولىٰ : دار الفكر ببيروت ١٩٨٨ م .
- الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد القرطبي ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم الحفناوي ، طبعة أول ١٩٩٤ م دار الحديث بالقاهرة .
-(تفسير ابن عطية) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ، تحقيق عبد الله الأنصاري والسيد عبد العال إبراهيم ، ط ١٩٨٥ م الدوحة .
- البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان الأندلسي الغرناطي ، ط ١٩٩٢ م دارالفكر ببيروت .
- زاد المسير في علم التفسير ، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن ابن الجوزي ، تحقيق الدكتور محمد بن عبد الله ، ط ١٩٨٧ م ، دار الفكر ببيروت .
- تفسير الدر المنثور في التفسير المأثور ، جلال الدين السيوطي ، طبعة أولىٰ ١٩٨٣ م ، دار الفكر ببيروت .
- تفسير القرآن العظيم ، للحافظ إسماعيل بن كثير القرشي ، طبعة أولىٰ ١٩٦٦ م ، دار الأندلس ببيروت .
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، للإمام فخر الدين الرازي ، طبعة أولىٰ ١٩٩٠ م ، دار الكتب العلمية ببيروت .
- تفسير البغوي المسمّىٰ معالم التنزيل ، للإمام البغوي ، إعداد وتحقيق خالد العك ومروان سوار ، ط ٣ ١٩٩٢ م دار المعرفة ببيروت .
- فتح القدير ، الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي

الشوكاني ، مراجعة الشيخ هشام البخاري والشيخ خضر عكاري ، ط ١٩٩٦ م المكتبة العصرية ببيروت .

- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، للدكتور وهبة الزحيلي ، ط١ ١٩٩١ م ، دار الفكر المعاصر بلبنان .

- فتح الباري صحيح البخاري ، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، حقق أصلها عبد العزيز بن باز ، ط ١ ١٩٨٩ م دار الكتب العلمية بلبنان .

- جامع الترمذي مع شرح تحفة الأحوذي ، ط ٣ ١٩٨٤ م دار الكتاب العرب ببيروت .

- عون المعبود شرح سنن أبي داود ، لشمس الحق العظيم آبادي مع شرح ابن الجوزية ، ط٢ ١٩٩٥ م ، دار الكتب العلمية بلبنان .

- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط ثانية ١٩٩٣ م ، مؤسسة الرسالة ببيروت .

- جامع الأحاديث القدسية ، عصام الدين الصبّابطي ، دار الريان للتراث بالقاهرة .

- السنن الكبرىٰ ، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ، تحقيق الدكتور عبد الغفار البنداري وسيّد حسن ، ط١ ١٩٩١ م دار الكتب العلمية ببيروت .

- الموطأ ، للإمام مالك بن أنس ، تحقيق الدكتور بشار معروف ومحمود خليل ، ط١ ١٩٩١ م مؤسسة الرسالة ببيروت .

- بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ، تحقيق عبد الله الدرويش ، ط١ ١٩٩١ م دار الفكر ببيروت .

- الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، مع مختصر شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني لأحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي ، ط/ دار إحياء التراث العربي ببيروت .

- جامع الأصول في أحاديث الرسول ، لابن الأثير الجزري ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ط٢ ١٩٨٣ م دار الفكر ببيروت .

- المستدرك على الصحيحين ، للإمام عبد الله الحاكم النيسابوري ، دار المعرفة ببيروت .

- الاستذكار ، لابن عبد البر ، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي ، ط١ ١٩٩٣ م دار قتيبة بدمشق .

- المبسوط ، لشمس الدين السرخسي ، ط ١٩٨٦ م دار المعرفة ببيروت .

- تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ، للعلامة فخر الدين عثمان الزيلعي ، ط١ ١٣١٣ هـ دار المعرفة ببيروت .

- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، علاء الدين الكاساني ، ط٢ ١٩٨٦ م دار الكتب العلمية .

- الأم ، للإمام محمد بن إدريس الشافعي ، مع مختصر المزني ، ط ١٩٩٠ م دار الفكر ببيروت .

- الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي ، لأبي الحسن علي الماوردي البصري ، تحقيق الشيخ علي معوّض والشيخ عادل عبد الموجود ، ط١ ١٩٩٤ م دار الكتب العلمية ببيروت .

- المجموع شرح المهذب للشيرازي ، للإمام النووي ، تحقيق محمد نجيب المطيعي ، ط مكتبة الإرشاد بجدّة بالسعودية .

- المغني ، لابن قدامة الحنبلي ، تحقيق الدكتور عبد الله التركي والدكتور عبد الفتاح الحلو ، ط١ ١٩٨٧ م هجر بالقاهرة .

- أعلام الموقعين عن رب العالمين ، لإمام ابن قيّم الجوزية ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط١ ١٩٥٥ م ، المكتبة التجارية الكبرىٰ بالقاهرة .

- السيرة النبوية ، للإمام ابن كثير ، تحقيق مصطفىٰ عبد الواحد ، ط ١٩٧٦ م دار المعرفة ببيروت .

- السيرة النبوية ، لابن هشام ، تحقيق السقا والأيباري وشلبي ، دار القلم ببيروت .

- المرأة بين البيت والمجتمع ، البهي الخولي ، ط ١٩٧٢ م مكتبة دار العروبة .

ـ المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية ، وحيد الدين خان ، ترجمة سيد رئيس أحمد الندوي ، ط ١٩٩٤ م دار الصحوة بالقاهرة .
ـ المرأة بين الفقه والقانون ، للدكتور مصطفىٰ السباعي ، ط٣ المكتب الإسلامي بدمشق وبيروت .
ـ المرأة ذلك اللغز ، عباس محمود العقاد ، إعداد عامر العقاد ، ط١ ١٩٧٠م ، دار الكتاب العربي ببيروت .
ـ المرأة صانعة الأبطال ، نشأة ظبيان ، دار الوثائق بالكويت ١٩٩٠ م .
ـ المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ، عبد الله عفيفي ، ط ١٩٨٢م دار الرائد العربي ببيروت
ـ المرأة في جميع الأديان والعصور ، محمد عبد المقصود ، ط ١٩٨٢م مكتبة مدبولي بالقاهرة .
ـ المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلىٰ الله ، الدكتور علي عبد الحليم محمود ، ط٣ ١٩٩٢م دار الوفاء بالقاهرة .
ـ المرأة وحقوقها في الإسلام ، أبو النصر مبشر الطرازي الحسيني ، ط١ دار الكتب العلمية .
ـ النساء الداعيات ، توفيق الواعي ، ط٢ ١٩٩١م دار الوفاء بالمنصورة .
ـ نساء صنعن التاريخ ، فريد حقي ، ط١ ١٦٦٩م دار العلم للملايين ببيروت .
ـ نساء مؤمنات ، الدكتور يوسف القرضاوي ، ط٣ ١٩٩٠م ، مكتبة وهبة بمصر .
ـ صيحة تحذير من دعاة التنصير للشيخ المرحوم محمد الغزالي ط١ ١٩٩١م دار الصحوة بالقاهرة .
ـ الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، تأليف : مجموعة من الأطباء والكتاب للمعاصرين ، بإشراف الدكتور محمد كامل حسين .
ـ تاريخ الأدب العربي ـ العصر اللمملوكي ـ الدكتور عمر موسىٰ باشا ، جامعة دمشق ١٩٩٠م .
ـ قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة للشيخ محمد الغزالي ، ط١ ١٩٩٠م دار الشروق بالقاهرة .

- الرسول ﷺ ، سعيد حوىٰ ، ط١ ١٩٦٩م ، دار الإرشاد ببيروت .
- رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، أبو الحسن علي الحسني الندوي ، ط٢ ١٩٦٥م ، مكتبة دار الفتح بدمشق .
- تفسير سورة النور ، أبو الأعلىٰ المودودي ، دار الفكر .
- هذه مشكلاتهم ، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، ط١ ١٩٩٠م ، دار الفكر بدمشق .
- البداية والنهاية ، للإمام ابن كثير ، ط/ دار الكتب العلمية ببيروت .
- قصص العرب ، محمد أحمد جاد المولىٰ وآخرين ، ط/ دار الجيل ببيروت .
- صفة الصفوة ، للإمام ابن الجوزي ، ط١ ١٩٨٩م دار الكتب العلمية ببيروت .
- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، عمر رضا كحالة ، ط٢ ١٩٨٢م مؤسسة الرسالة .
- سير أعلام النبلاء ، للإمام الذهبي ، ط٢ ١٩٨٢م مؤسسة الرسالة ببيروت .
- الأعلام ، خير الدين الزركلي ، ط٥ ١٩٨٠م دار العلم للملايين ببيروت .
- لسان العرب ، للإمام ابن منظور ، ط/ دار المعارف بمصر .
- القاموس المحيط ، للعلامة الفيروزآبادي ، ط٣ ١٩٩٣م مؤسسة الرسالة
- حياة الصحابة ، محمد يوسف الكاندهلوي ، تحقيق نايف العباس ومحمد علي دولة ، ط٦ ١٩٩٣م دار القلم بدمشق .
- إحياء علوم الدين ، حجة الإسلام الغزالي ، ط٢ ١٩٩٣م دار الخير بدمشق .
- حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح ، للإمام ابن القيّم ، ط/ دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة .
- قصص الأنبياء ، للإمام ابن كثير ، تحقيق يوسف بديوي ، ط١ ١٩٩٢م دار ابن كثير بدمشق .
- كتاب الورع ، للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق الدكتورة زينب القاروط ، طبعة أولىٰ ١٩٨٣م ، دار الكتب العلمية ببيروت .

- شبهات حول الإسلام ، محمد قطب ، بدون طبعة ولا ذكر لدار النشر ولا التاريخ .
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، ابن حبان البستي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد وآخرون ، ط/ دار الكتب العلمية ببيروت .
- روائع البيان تفسير آيات الأحكام ، محمد علي الصابوني ، ط٣ ١٩٨٠م مكتبة الغزالي بدمشق .
- كتاب الزهد ، عبد الله بن المبارك ، تحقيق عبد الرحمن الأعظمي ، ط/ دار الكتب العلمية
- الفقه الإسلامي وأدلته ، الدكتور وهبة الزحيلي ، ط٣ ١٩٨٩م دار الفكر بدمشق .
- تربية الأولاد في الإسلام ، عبد الله علوان ، ط/ دار الشهاب بالزائر .
- جامع العلوم والحكم ، ابن رجب الحنبلي ، تحقيق الدكتور وهبة الزحيلي ، ط١ ١٩٩٣م دار الخير بدمشق .
- تفكّر ساعة ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط١ ١٩٩٥م دار النور بدمشق .
- كتاب الأذكياء ، للإمام ابن الجوزي ، ط/ مكتبة الرياض الحديثة .
- الأحكام السلطانية ، للإمام الماوردي ، ط ١٩٧٨م دار الكتب العلمية ببيروت .
- الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلاني ، ط ١٣٢٨هـ ، دار إحياء التراث العربي ببيروت .
- شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلي ، ط ١٩٧٩م ، دار المسيرة ببيروت .
- سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ط ١٩٦٦م المكتبة العربية بدمشق .
- مكارم الأخلاق ، للإمام ابن تيمية ، إعداد وتحقيق عبد الله بدران ومحمد عمر الحاجي ، ط١ ١٩٩٤م دار الخير بدمشق .
- الوفيات ، لابن رافع السلامي ، منشورات وزارة الثقافة في سورية ١٩٨٥م .
- تهذيب الأعيان ، للإمام ابن خلكان ، دار صادر ببيروت .
- بعض الجرائد والمجلات والدوريات ، ذُكرت في حينها .

* * *

المحتوى

المحتوى

من الدستور الإلهي ٥
من أحاديث المصطفى ﷺ ٧
المقدمة ٩

الباب الأول
مكانة المرأة قبل الإسلام

الفصل الأول: المرأة في العصر الفرعوني ٢٤
الفصل الثاني: المرأة عند البابليين والآشوريين ٢٧
الفصل الثالث: المرأة عند اليهود والصينيين واليابانيين والروس . . . ٢٩
الفصل الرابع: المرأة في بلاد فارس واليونان والرومان ٣٢
الفصل الخامس: المرأة عند اليهود، وعند النصارىٰ ٣٤
الفصل السادس: المرأة في العصر الجاهلي ٤١

الباب الثاني
ذكر النساء في القرآن الكريم

[بحث شامل حول حديث القرآن مع تفسير الآيات المتعلّقة بالنساء،
ضمن رؤية وسطية، لا إفراط فيها ولا تفريط . . .]

في سورة البقرة ٤٩
في سورة آل عمران ٥٧
في سورة النساء ٦٠
في سورة المائدة ٧٢
في سورة الأعراف ٧٣
في سورة التوبة ٧٥
في سورة هود ٧٧
في سورة يونس ٧٨
في سورة الرعد ٨٠
في سورة النحل ٨١
في سورة الإسراء ٨٣
في سورة مريم ٨٣
في سورة طه ٨٤
في سورة المؤمنون ٨٦
في سورة النور ٨٦
في سورة الفرقان ٨٨
في سورة النمل ٩٠
في سورة القصص ٩٢
في سورة مريم ٩٤
في سورة لقمان ٩٤
في سورة الأحزاب ٩٦
في سورة الزمر ١٠٠
في سورة غافر ـ المؤمن ـ ١٠١

في سورة الشورى ١٠١
في سورة محمد ﷺ ١٠٣
في سورة الفتح ١٠٣
في سورة الحجرات ١٠٤
في سورة الحديد ١٠٥
في سورة المجادلة ١٠٦
في سورة الممتحنة ١٠٧
في سورة الطلاق ١٠٨
في سورة التحريم ١٠٨
في سورة المعارج ١١٠
في سورة القيامة ١١١
في سورة عبس ١١١
في سورة البروج ١١٢
في سورة المسد ١١٣

الباب الثالث

نظرات في حقوق المرأة في الإسلام

الفصل الأول: تفرقة الإسلام بين الرجل والمرأة!! ١٢١
١ في الميراث ١٢١
٢ـ في القوامة ١٢٣
٣ـ في الشهادة ١٢٦
٤ـ في الأعباء الاقتصادية ١٢٧

٥ـ في بعض التكاليف الدينية ١٢٨
٦ـ في تولّي منصب رئاسة الدولة ١٣٠
الفصل الثاني : نظرات في حقوق المرأة ١٣٣
١ـ هل هنّ ناقصات عقل ودين ؟! ١٣٣
٢ـ حقيقة مساواة الرجل بالمرأة!! ١٣٨
أ ـ في العمل الصالح ، وفي جزائه ١٣٨
ب ـ في الولاء والمناصرة ١٤٠
ج ـ في المعصية والعقوبة ١٤٢
الفصل الثالث : النساء نعمة أم نقمة ؟! ١٤٣
الفصل الرابع : شيئاً من حقوق المرأة في الإسلام!! ١٤٩
١ ـ الحقوق الإنسانية العامة ١٤٩
حق الحياة ١٤٩
حق الحرية ١٤٩
حق الأهلية ١٥٠
٢ ـ حقوق المرأة قبل الزواج ١٥٠
٣ ـ حقوق المرأة حال قيام الزوجية ١٥٤
الصدّاق ـ المهر ـ ١٥٤
الإنفاق عليها بالمعروف ١٥٦
معاشرتها بالمعروف ١٥٨
حقها في مسألة العَزْل ١٥٩
العدل بين النسوة في المبيت ١٥٩
٤ ـ حقوق المرأة وهي أم ١٥٩
٥ ـ حقوق المرأة وهي مطلقة ١٦٢
٦ـ حقوق المرأة المتوفىٰ عنها زوجها ١٦٤

الباب الرابع

المرأة في محراب العبودية لله تعالى

الفصل الأول : مدخل إلىٰ مفهوم العبودية ١٦٩
الفصل الثاني : المرأة .... والمسجد!! ١٧٣
الفصل الثالث : المرأة ومناجاة الله تعالىٰ ١٨٧
الفصل الرابع : المرأة والقرآن الكريم ١٩٢
الفصل الخامس : المرأة والخوف من الله تعالىٰ ١٩٥

الباب الخامس

المرأة شجاعة، بطلة، مضحّية

الفصل الأول : في ظلال البطولة والتضحيات ٢٠٥
الفصل الثاني : نماذج نسائية في رحاب الفداء والتضحية!! ٢١٥

الباب السادس

المرأة: كريمة، مُنْفِقَة!!

الفصل الأول : حديث القرآن الكريم عن الإنفاق ٢٢٩
الفصل الثاني : نماذج من إنفاق أمهات المؤمنين ٢٣٢
الفصل الثالث : نساءٌ مؤمنات في طريق الإنفاق والعطاء!! ٢٣٥

الباب السابع

المرأة طبيبة، ممرّضة، ناجحة

الفصل الأول: مدىٰ اهتمام الإسلام بالطب ٢٤١

الفصل الثاني: ما هو دور المرأة في هذا المجال ؟! ٢٤٤

الباب الثامن

المرأة: ذكيّة

الفصل الأول: العقل في الميزان الشرعي ٢٥٣

الفصل الثاني: النساء . . والذكاء ٢٥٦

الباب التاسع

المرأة: داعية إلى الله تعالىٰ

الفصل الأول: منهج الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ٢٦٧

الفصل الثاني: دور المرأة المسلمة في حركة الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ . ٢٧١

الباب العاشر

المرأة قاضية، مستشارة، سياسية!!

الفصل الأول: ماذا عن «شاوروهنّ، وخالفوهن» ؟ !! ٢٨٣

الفصل الثاني : الجدل حول القوامة ، إلى أين ؟! ٢٩٢
الفصل الثالث : في ظلال (وقرن في بيوتكن) ٣٠٠
الفصل الرابع : المرأة والولاية على الرجل !! ٣٠٣
الفصل الخامس : شبهات وردود حول شهادة المرأة !! ٣١٢

الباب الحادي عشر

المرأة: عالمة، فقيهة، محدّثة

الفصل الأول : تشجيع الإسلام على العلم ٣١٧
الفصل الثاني : إصرار الشريعة الإسلامية على تعليم المرأة !! ٣٢٠
الفصل الثالث : نماذج رائعة تتعلق بالنساء المتعلمات ٣٢٢
الفصل الرابع : كيف مرّ تعليم النساء في التاريخ الإسلامي ؟! ... ٣٣٥
الفصل الخامس : فماذا عن علم السيدة عائشة رضي الله عنها ؟! .. ٣٤٩
الفصل السادس : وماذا عن مسند الإمام أحمد بن حنبل ؟! ٣٥٢

الباب الثاني عشر

المرأة في ميدان الأخلاق

الفصل الأول : الدّين هو الأخلاق ٣٦١
الفصل الثاني : المرأة في ميدان الصبر ٣٦٤
الفصل الثالث : المرأة في ميدان التوبة ٣٦٩
الفصل الرابع : المرأة في ميدان الزهد والقناعة والورع ٣٧٦

الباب الثالث عشر

المرأة: خطيبة، بليغة، شاعرة

الفصل الأول : النساء والشِّعر ٣٨٣
الفصل الثاني : نساءٌ خطيبات!! ٣٨٧
الفصل الثالث : دور المرأة المسلمة في الحركة الأدبية ٣٩٤

الباب الرابع عشر

المرأة في ميادين التربية

الفصل الأول : منهج الإسلام في التربية ٤٠٣
الفصل الثاني : سبب نجاح المرأة في مجالات التربية ٤٠٧
الخاتمة ٤١٦
المصادر والمراجع ٤٢٣
المحتوى ٤٣١

* * *

النّساء شقائق الرجال

الإسلام ظلم المرأة! النساء ناقصات عقل ودين!

آدم عليه السلام ما أُخرج من الجنة إلا بسبب المرأة!

شاوروهن وخالفوهن! صوت المرأة عورة!

المرأة لا تخرج إلا ثلاث مرات: من رحم أمها، وإلى بيت زوجها، وإلى قبرها!

مقولاتٌ، ورواياتٌ، وشبهاتٌ أُلصقت بالإسلام

لكن، هل نأخذ رأي للشريعة في ذلك من تصرّفات بعض المعقّدين والمتنطعين؟!

أم من المستشرقين والحاقدين على الإسلام؟!

والدكتور المؤلف يؤكّد على أن كل الإشكاليات تحلّ بالعودة إلى الأصول، القرآن والسنة.

فالمرأة: داعية إلى الله تعالى، وفقيهة، ومحدثة، وعابدة، ومربية، وشاعرة، وطبيبة، واستشهادية...

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy